وهكذا أنا معها على شيء من ألفة وشيء من صحبة العمر ، لكنني ، رغم هذا ، لشد ما تهيبتها ، حين كتبتها هادرة ، وتطلبتها نادرة ، ولشد ما سعيت الى إقتناصها غمامة مشردة ، ونهضت لها على الورق والمنبر ، ومع ذلك تبقى الكلمة ، بالنسبة إلي ، عصية ، محيرة ، متحيرة ، فلا هي كالمزنة تهمي ، ولا أنا كالمجترئة أتلقاها بالسنان ، تفاحة تنشطر وتشطر هذا التهيب معها .

إذن العذر ملتمس وأنتم العاذرون ، إذا جئتكم في موكب الثقافة دون أن أجر الذيل تيهاً بها، ودون أن أسحبه، خصلة شمس، في مسارها، لانني أعرف، أنه ههنا، في هذا البلد الصغير الكبير، كوكبة من المثقفين، تحاذر من كانت مثلي،أن تطلع شفقاً في أفقها،وتحاذر،أن أطلّت خيلها،أن تكون بين الأصائل منها ، فالشوط ، في السبق الى العطاء ثقافة ، قد كان طويلاً في تاريخكم، تجاوز جغرافية المكان والزمان، ليكون، هو نفسه، مكاناً فيه من عبقر صدى الوادي العجيب ،وزماناً فيه من الماضي تليد ، يحمل كل طريف،ليزيد في طريفه وطرافته إضافة بها تغتني العطاءات أدبية باسم الأدب ، وفكرية باسم الفكر وإبداعية باسم الإبداع ، بداية لا نهاية لها ، لأنه هو ، الإبداع ، جل أن تكون له نهاية بعد أن امتلك البداية ، ومنها انطلق صوتاً صائحاً بين اليابسة والماء ، أنني أنا الألق الشفيف ، الباعث حياة تسامى على كل حياة ، إذ هي تعطي حياتنا ، بما نحن بشر ، وجودها الأجمل ، وفتنتها الكبرى ، وغايتها المثلى ، في أن تكون للغد بمثل ما كانت للأمس ، مجداً عنده تتطامن الأمجاد ، لكونه المجد الباقي ، وما عداه الى زوال ، وباعتباره المرتجى ، في الحرف ، أن يتم النقلة ، بين

ما كان وما سوف يصير، والنقلة هذه في الخط المعرفي الصاعد : هي التي تأخذ بنا إلى أمام ، وإلى أمام دائماً ، رغم المنعرجات في طريق السير ، ورغم العنت في السرى المدلهم ، وكذلك رغم مكر التاريخ ، يريد بنا الرجعى ، مؤقتة ، ونريد به التقدم الذي يجاوز الرجعى ويجتازها ، كي يستقيم بعد ذلك مع انبلاجه صبح ؛ هي الموعد الموئل في آن .

بهذا المبتدأ نأتيكم وأيامنا الثقافية بين أيدينا ، وبهذا الخبر أتيتم إلينا وأيامكم الثقافية جلوة حضارة عربية إسلامية ، لنا منها شطر ولكم منها أشطار ، لأنها من الجزيرة العربية إنبثقت ، فإنطلقت ، فأنارت واستنارت ، ولا يزال العالم من حولنا ، يقبس منها نوراً ، فنستعيده نوراً ، وثوقاً منا أن التفاعل الثقافي ، ما كان ليكون لولا تلاقحه ، وما كان ليعطي ثماره ، لولا هذا التفاعل والتلاقح ، وبهذا وحده نبرهن ، كما في أيام السلف ، إن الخلف يدرك مدى أهمية الانفتاح الثقافي ، ويمارسه دون أن يهابه ، لايماننا أن الثقافة العربية ، التي عرفت من غزوات الثقافات الأجنبية الكثير الكثير ، ثقافة متكاملة ، راسخة ، باقية ، صامدة ، تعطي وتأخذ على الدوام ، وفي هذا العطاء والأخذ تكون حيث يجب أن تكون ، من نقطة الصيرورة الثقافية التي بلغتها الأمم الأخرى .

ولئن كانت الثقافة العربية التي هي حاضنتنا ، وجامعتنا ، ومدانا الأرحب ، قد ظلت موحدة رغم الإنقسامات ، وفاعلة في توحيدنا رغم التمزقات ، فإن علينا ، وبكل ما نملك من عزيمة ، أن نتخطى التخوم

الجغرافية ، والحدود السياسية ، بالجهد الثقافي لأنه الجهد الوحيد الذي يتخطى التخوم والحدود ، ويثبت حضوره الواحد الموحد في الوطن العربي كله • ورغم كل عوامل التباعد والفرقة ، فان سفارة الثقافة ، هي السفارة التي تجمع بعد تشتت ، وتشكل اللحمة بعد انفصام وتأسيساً على هذا فإن الأيام الثقافية المتبادلة ، في وضعنا الراهن ، تغدو أكثر من وسيلة لاطلاع بعضنا على ثقافة الآخر ،على أهمية هذا الاطلاع ، وتصبح ، في الشأو الذي نبتغيه ، عامل إنهاض ثقافي جمعي ، تتمرأى فيه صورتنا الحضارية ، لتكون لنا واجهة وعنواناً ، بهما تتبدى للدنيا ، وبهما تعرف الدنيا من نحن في رفد الحضارة الإنسانية ، قديماً وحديثاً على السواء •

إن دمشق ، دمشقكم ،دمشقنا جميعاً ، قد وجدت في إبداعاتكم الثقافية ، التي جسدتها أيامكم الثقافية فيها ، مخايل للنبوغ الذي إلى نماء ، ومطالع لترسيمات فنية ، في سائر ألوان الفن ، تعد بالكثير ، بل هي في ذاتها تستعلن راهناً في هذا الكثير ، وعسى أن يكون لأيامنا الثقافية في البحرين ، ما كان لأيامكم الثقافية في سورية ، ومن نافل القول أنه في هذا التعارف الثقافي المتبادل ، يكون النفع والإنتفاع بالخبرات الثقافية لبلدينا وشعبينا ، وبصورة متبادلة أيضاً ، وبقدر ما نزداد تواصلاً ثقافياً ، نزداد تواصلاً قومياً ، وفي هذا سر خلود أمتنا العربية ، التي بلسانها تنزل الوحي الكريم ، ليكون ، من بعد ، رباطاً قومياً هو العروة الوثقى التي نتمسك بها جميعاً •

ومن البدهي أن يتعاظم الدور الذي تلعبه الثقافة في أيامنا الرمادية هذه ، الحافلة بالمفاجآت ، وأن تتقدم هي ، الثقافة ، لتغدو الأمل وطليعته : الأمل في تبديد كل رمادية في اللون ، ليعقبها الإشراق ، والطليعة المعول عليها في إنهاء الجزر الراهن في وضعنا العربي ، ثم التمهيد ، تنويراً نهضوياً ، للمد الآتي ، المد الذي أصبح مرتقباً من أكثر المفكرين العرب ، ومن أرفعهم مكانة ، إدراكاً منهم أن التراجع العربي لن يدوم ، وأن الإنحسار الحالي مصيره أن يتوقف ، لا بالتمني ، بل بالعمل الدؤوب ، وبالإرتفاع على الشدائد عنوة ، اقتداء بأمم عانت ما نعاني ، وشعوب خوضت مثلنا في مستنقعات الموت ، وظلت أقدامها ثابتة ، بينما لحق الوهن بأيدي أعدائها فارتجفت ، وسقطت سقوط الشلو أصاب منه السهم مقتلاً .

لقد تعارف المناضلون ، الصادرون عن نظرة علمية ، أن السياسة في القيادة ، إلا أن الثقافة ، في زمننا هذا ، هي التي تقود ، وهي التي توجه ، وهي ، كذلك ، التي تمهد للسياسة ، وعلى هذا النحو أصبحت الثقافة مسئولة لا سائلة ، وأصبح المثقف قائداً لا مقوداً ، وبات على السياسي أن يأخذ خطابه من الثقافي ، وهو يأخذه اليوم ، وسيأخذه بقدر أكبر غداً ، وعلى هذا فإن نهضة سياسية مرتجاة ، تعني نهضة ثقافية مرتجاة ، تسبق وترود ، وتخرج بنا من غابة الظلمة ، الى نور السهل ، حيث الرحابة مدى ، ونحن فيه أسياد النقع المستثار .

هذه بإيجاز ، أو بتطويل ، نظرتنا الآن الى الثقافة ، وهذا وعينا بها وبدورها الكبير والخطير ، ومن هذا الوعي ننطلق ، في سورية بإرساء دعائم نهضة ثقافية عربية قومية ، هي لنا انتاجاً ، وهي للعرب كلهم فيئاً ، ولسنا في موقفنا هذا سوى رسل لهذه النهضة التي لن تتكامل دون اسهام المثقفين العرب كلهم ، في مختلف ديارهم ، برفدها عطاء جيلاً ، يشهد عليه عطاؤكم الجميل ، الذي عرفنـاه في دمشق ، خلال أيامكم الثقافية ، وجئنا لنتعرف عليه أكثر خلال أيامنا الثقافية ، وعلى الطبيعة مباشرة ، والفضل ، فوحاً يضـوع ، يعود إلى رئيسي بلدينا ، القائد حافظ الأسد الذي رعى الثقافة رعاية شاملة ومستمرة ، وسمو الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة الذي رعى ويرعى الثقافة في هذه الإمارة العربية الشقيقة .

ختاماً كل الشكر لكم ، أميراً وحكومةً وشعباً ، فقد أصبنا ، من ترحيبكم الحار بنا ، غالية المودات ، ونعمنا في حفاوتكم الأخوية ، بروح الأخوة العربية الحقة والصادقة ، وليس هذا غريباً على مثلكم ، وليس هذا جديداً على مثلنـا ، فالكرة الأرضية الزرقـاء ، أضحت صغيرة كالبرتقالة ، وعلى استدارتها يجاور الخليج الشام ، بمثل ما يجاور الماء اليابسة ، وفي فضائها تتلاقى على اسم الحرف العربي ، وما أكرمه وأعظمه في آن .

* * *

الدراسات والبحوث

الفكر ، اللغة ، الزمن ، ....
نحو منظومة معرفية عربية مقارنة

د. جمال الدين الخضور

اذا كان التجريد ، والفصل بين المكونات الاساسية لأنظمة العقل بهدف الحفر والدراسة واكتشاف عناصر الصحة ، والآفاق المستعصية ، مرحلة لا بد منها ، فيجب عدم اسقاط هذه الفعالية بشكل نهائي ، واستخلاص النتائج المترتبة على فعالية احادية القوة فالخيال الاجتماعي والفلسفة ، والعلوم التجريبية التطبيقية والعلوم النظرية ، والشعر ، والبيان (فقه اللغة والنحو والصرف ...) انظمة تتداخل عضوياً لتشكل شبكة بنائية رئيسية في المنظومة العقلية للكتلة الاجتماعية .

ـ د. جمال الدين الخضور : طبيب وشاعر وقاص ومترجم ، له عدد من الابحاث والدراسات في الدوريات العربية والمحلية .

فمثلا ، كيف يمكن أن نحفر في البناء الاجتماعي وندرس مكـوناته التيولوجية ، والميتية والرمزية وغيرها بدون ان نحفر في دور الذاكرة الجمعية عبر الغوص العميق والجدلي والنقدي التفجيري في الحقائق السيوسوالوجية على مستوياتها اللغوية والسيميائية المكونة لها ؟؟

وكيف يمكن أن نحفر في فعاليات الفكر وآليات تنشيطها بدون ان نحدد علاقته باللغة عبر كل شبكاتها ، وخصوصاً أن النص تمثلا خاصاً في منظوماتنا .

ومهما اختلفت وتنوعت المدارس والنظريات التي تدرس علاقة امتلاك اللغة وتعلمها بالمنظومة المعرفية ، ابتداء من السلوكية والتي يتزعمها « هول » و « أوسجود »(١) والتي تنص على ان الفكر هو مجموع ردود الأفعال الصوتية الكامنة ، وعلى أنه يمكن ان يمثل بدرجة ما من النشاط اللغوي المعبر عنه داخليا ، وبالرغم من ذلك الا انهم لا ينفون التفاعلات السالبة والموجبة بين السلوكيات اللفظية والانواع الاخرى من السلوك المعرفي .

اما مؤيدو مدرسة السيكولوجيا الاجتماعية ، فيعتبرون الفكر حصيلة لنوع من الاستيطان التدريجي للغة ، ومع التقاء الجـذور التوصيلية والتمثيلية للنمو ، ومع التراكم الكمي لعلاقات الجهاز الاشاري الثاني تتصاعد وترقى « إمكانية الصورنة ، والعمليات المعرفية الرئيسية للتجريد والتعميم » ، وبالتالي ، الارتقاء عبر مكونات هذا الجهاز في عمليات الذاكرة والادراك ، والحركية ، مما دفع رائد هذه المدرسة (بيوجوتسكي) الى القول بأن اللغة هي وسيط سوسيو ــ ثقافي من الدرجة الممتازة .

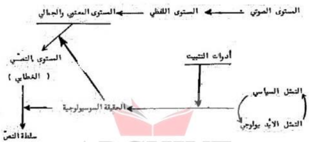
لكن « سيبور » و « وورف » يؤكدان ان اشكال اللغة هي التي تحدد اشكال الفكر !! واذا عدنا الى بياجيه ، فانه يقول : « بأن اللغة ، ليست الا واحدة من التجليات المتعددة للوظيفة الرمزية والتي تم انشاؤها من خلال تفاعل الانسان مع بيئته الفيزيقية والاجتماعية ، وبالتالي فإن هذه الوظيفة الرمزية ما هي الا حصيلة للقدرة المعرفية المرتفعة التي تمكن الفكر من ان يصبح فكراً(٢) .

ونحن هنا لا نريد ان نحول حوارنا الى حالة السنية ، الا بمقدار ما تخدم عناصر المكونات والوظائف اللغوية فعاليات الفكر وما تحدده هذه الاخيرة في مسارات تطور اللسان عبر الكشف والتنقيب في (اللاهوت) اللغوي وما يتركه من انقلاب كامل في منظومة العقل(٢) . وهذا يعني : أن الخطوة الأولى والضرورية في كشف التناقض الحاد بين الميتوس واللوغوس على المستويين العقلي واللغوي ، تتضمن اثبات العلاقة الجدلية بين فعاليات الفكر ، ومكونات اكتساب اللغة واعادة انتاجها عبر الفكر ، وعلاقة ذلك بالانساق والمنظومات المعرفية ، وإعادة انتاجها عبر الوظائف المتعددة للغة « اللسان » ، وإلا سنقع في نفس الاطار الراكد ، المزركش نقدياً . اي ، ان اية قراءة لا تحمل في داخلها منهجها النقدي التفجيري، هي تسليمية دائماً ، وحينها لن تفعل اكثر من تبديل القواميس وليست محاولات الارشفة الاكاديمية ، والتطبيق المدرسي باشتراطات مستحيلة ، الا عبارة عن محاولات كسر الرقبة ، لشد القوة التي تدفع الرؤوس الى الخلف ، لان من يبقى ينظر الى الخلف وينسى الامام فسيموت ورأسه الى الخلف حسب راي نيتشه .

انطلاقاً من ذلك نلاحظ أن المستوى النصي (الخطابي) هو ناتج سلسلة من المستويات ، تبدأ بالمستوى الصوتي ، فاللفظي ، فالمستوى المعنوي والجمالي ، ومن ثم ننتقل الى المستوى النصي « الخطابي » . وهنا يمكن ان يتحول المنهج ، وعبر التمثل الايديولوجي الذي تنتجه المنظومة الإبستمية للشرائح المسيطرة الى تعبير سياسي يفرض عبر آليات معقدة تخيلات ميتية تنتج عبر الواقعة المتخيلة كحقائق سوسيولوجية مستخدما ادوات تثبيت خاصة ، فيحول بالتالي المستوى الخطابي المفتوح الى سلطة النص .

حتى ولو اخذنا بعض المفاصل الاساسية في نظام مارتيني للاحظنا بأن التعرف باشكاله اللاشرطية والشرطية والستربوتيبية يحدد العلامة ، لينقلها لاحقاً عبر المرسلة ، وصولا الى الانتاج ، حتى ولو كانت الاشارة تتجلى في الحادث الذي يدرك بسرعة ، ويسمح بمعرفة مضمون الحادث

الآخر الذي لا يتوافر على اية إشارة . إلا ان العلامة ، هي فئة متميزة من الإشارة . وهي من طبيعية اداتية يتمثل هدفها في التواصل ، فتقدم للمستقبل (بكسر الباء) نوعين من الوقائع / الاعلامية والدلالية / ، بحيث يتم الانتقال وعبر تمثل الدال والمدلول من الصورة الصوتية الى



التمثل السكيولوجي ، حسب نظام دي ــ سوسير ، وتبدو بذلك بنية كل من الدال والمدلول كعلامة . تقوم بعدها عمليات الربط والتنسيق بادراج تلك العلامات في منظوماتها الخاصة ، ولا يتم ذلك الا عبر دور اكيد وفعال للكتلة الاجتماعية ، ولا يمكن ان يتم بمعزل عن جملة البنى المعرفية الاجتماعية ، وبالتالي يمكن ان تاخذ العلامات صيغة الكون المفتوح في مستوى مفتوح ، وفي زمن اجتماعي متصاعد ، او ان تؤخذ وعبر تثبيت الزمن من خلال قدرة اللغة على ذلك ، على انها (كون ايديولوجي)(٤) ، او ان العلامات تتحرك في مستوى ايديولوجي ، فالموجودات ليست هي ذاتها ، بل هي في علاقاتنا بها ، دلالة وقيمة(٥) أما الاحتمال الاخير ، هو ما فعله التمثل السياسي ــ الايديولوجي المسحوب شعاعياً وتاريخياً بمنظومة العقل ، فانشا ما يمكن ان نسميه العقل السلطوي ، عبر طرح الجانب التمثلي الايديو ــ سياسي النص ، بتحويله الى حقيقة سوسيولوجية ، ويبدو هذا واضحاً وبمثال صارخ في قول معاوية : « إن الله ساق الخلافة الى الأمويين قضاء وقدراً »(٦) .

وما تحويل النص عبر ادوات التثبيت الاديولوجية الى نص تيولوجي إلا إسقاط كامل لتاريخية الخطاب من محتواه ، وتجريده من الزمكانية الاديو-سياسية . وهنا يصبح دقيقاً ولازماً قول الدكتورة يمنى العيد : بأن السياق التخاطبي مختلف باختلاف السنن الاخلاقية والسياسية ، والدينية التي تحكم الصياغة ، ثمة معايير تقويمية تجعل هذه الصياغة مقبولة في زمن ومرفوضة في زمن آخر ، أو مستحبة في سياق مجموعة تخاطبية ، مستهجنة في سياق مجموعة تخاطبية أخرى ، القول بهذا المعنى هو اجتماعي تاريخي ، اي متغير ومختلف(٧) .

اللغة والمعرفة في البناء الانتروبولوجي المعرفي المعاصر / آلية النقد /

من هنا كان تأكيدنا على أن اللغة منظومة سيرورية اجتماعية تاريخية مكونة اساسا في البناء المعرفي وعبر تطوره الانتروبولوجي من خلال الرقي والتكون التصاعدي للجهاز الإشاري الثاني للكتلة ، بحيث يصبح من السهل اكتشاف ما حدث تاريخيا والتقاط جوهره ، وذلك في تحويل كل أشكال الخطابات الاجتماعية / الخطاب العقلاني ، الخطاب الفكري ، والفلسفي والثقافي والخطاب الكوني الشمولي العربي / الى مكونات مقلوبة في بنائيتها الزمكانية والابستمولوجية . وبتنشيط فعاليات الفكر عبر تحديد العلائق المكونة في منظوماته اللغوية والسيميائية ، أو ملكاته عبر العقل والمخيال الاجتماعي والذاكرة الجمعية والتداخلات الجدلية لكل تلك المكونات فيما بينها ، يمكننا ، وعبر تراكمات معرفية نوعية من :

١ ـ تحديد تاريخية الخطاب ، عبر اشتراطاته التي طرح فيها ووضعه تحت موشور النقد المعرفي المقارن الذي ينتقل من السياق الأبسط الى الاعقد من حيث نمو البنى الفوقية أو تغييرها ، بحيث تبدو تاريخيته ملازمة وناتجة لجملة الظروف والمقدمات التي انتجته ، مما يدفع بالمكونات الاساسية لمنظومة « اللاشعور المعرفي » الى مقدمة الحيثيات القابلة للنقد عبر سوياتها المتعددة ، ونزع (اللا) منها في المراحل الارقى وهذا مرتبط ايضا بوضع مستويات اللغة التمفصلية تحت نفس الموشور

النقدي المعرفي المقارن ، ونزع سلطتها الميتية والتيولوجية ، بحيث لا يتم الانتقال من البنية الضمنية الى الخفية (٨) في سياق تمثيلي تيولوجي ، او الانتقال (من الوحدة الدالة ــ الكلمة الى الجملة او الحكم) في نفس السياق بل ، في سياق نقدي منشط لفعاليات الفكر عبر تطبيق قواعد ذلك التنشيط بشكل مفتوح تماماً ، وضمنا على سويات الارتقاء الاعلى / الوحدات الصوتية والوحدات الداله الاولية او الحرفية / الكلمات / والوحدات الدلالية الاولية والوحدات التي لها معنى / (الجمل ومجموعات الجمل) . كل ذلك يفتح الآفاق امام فعاليات الفكر ومكوناته والذاكرة الجمعية والمخيال الاجتماعي لتحليل التراكم المعرفي للغة ، ووعي تاريخية هذا التراكم ، وبالتالي ، نزع سلطته الميتية وتفجيرها بادراك تاريخيتها الخاصة وزمكانيتها وذلك ، مهما كان الشكل الذي تشبثت فيه في منظوماتنا المعرفية .

٢ ــ التمييز الدقيق والتلقائي بين وظائف اللغــة (الاتصاليــة ، النزوعية ، التعبيرية ، الاحالية ، الشعرية ، الفوقية . . . الخ) ، وتلقائي هنا ، تعني الامتلاك التراكمي لمنظومة النقد المعرفي المقارن ، على طريــق تحويله الى لازمة في مقاربة ما يسميه الاستاذ الجابري البنية اللاشعورية « اعني المحددات والسلطات التي تحكم وتوجه المتلقي للمعرفة المنتج لها داخل الحقل المعرفي البياني ، دون أن يشعر بها ، دون أن يختارها . وقد محورنا تحليلنا لهذه المبادىء والمفاهيم والإجراءات حول ثلاثة ازواج معرفية رئيسية هــي : اللفظ / المعنى ، الأصل / الفــرع ، الجوهر / العرض ، الأول والثاني يحددان منطلقات التفكيـر ومنهجــه ، والثالث يؤسس الرؤية ويؤطرها(١١) » . بحيث يصبح مــا هــو محدد لمنطلقات التفكير ومنهجه موضوع نقد تفجيري (بادراك التاريخية والزمانية والتطور الانتروبولوجي المعرفي) ليس ابستمولوجيا فقط ، بل ، وجدليا ، بكـل المكونات والأسس الناظمة لهذه المنطلقات ومنهجها .

٣ ــ اكتشاف أن فعاليات الفكر ذات مساحات اوســع ، وجذور اعمق من فعاليات اللغة حتى المنشطة والمفتوحة . لان فعاليات الفكـر تبدأ مع التوضعات الأولية والبدئية لمكانيزمات الامتلاك الحسي والحركي

والتصوري والتفاعلي لدى الفرد والجماعة . واي فعالية من هذه هي اعمق واوسع من اي حركية لسانية او حداثية لغوية تعبر عنها ، بحيث تشكل منظومة هذه الميكانيزمات القنوات الخاصة التي يتم عبرها ومن خلالها وبها اضافة مكونات جديدة عبر الوظيفة المفتوحة للغة . فالواقع الحركي للحرف وامتلاك حداثية خاصة لمجموعة من الاحرف في دوالها / الصياغة الصوتية / لا يحدد الدلالات بدقة التطابق ، لأن الدلالات في هذه الحالة مفتوحة على فعاليات الفكر المستقبل ، فهي رغم خضوعها للتجريد والتحليل والتركيب والبنائية والاستقراء والاستنتاج والوظيفية والسببية ، إلا أن هذه السلسلة بحد ذاتها ، بتداخلها وبتشابكها ، هي فعاليات الفكر بحد ذاته . وبالتالي، بمقدارما تكون هذه الفعالية منشطة، بمقدار ما تكون مكونات امتلاك الدلالات بسوياتها المختلفة على درجة أعلى من الرقي . وعلينا الا ننسى بأن العملية النطقية (الفكرية) ببدائية اكتسابها تتم بشكل مستقل عن اللغة ، اما عمليات الإنتقال الى السويات الارقى منها ، كالتعليم وتناسق المنظومة المعرفية ، فيتم عبر التدخل النشيط للغة .

من هنا كان الدور المفرمل والمثبط لفعاليات التفكير الذي تلعبه الخطابات المسحوبة شعاعيا ، والتي اعطت دلالة محددة ميتية او تيولوجية ، فاسقطت المقدمات الاساسية للامتلاك النقدي للنص ، بحيث لم يتم امتلاكه في منظومة المخيال الاجتماعي وعبر الذاكرة الجمعية تحت فعالية المنظومة العقلانية كمنهجية نقدية تطبق البعد التحليلي -التركيبي- السببي للعقل عبر فعاليات التفكير ، بل يتم امتلاكه ميتيا كاشتراط مكون للشخصية (كفرد وكجماعة) لأن الذاكرة الجمعية في هذه الحالة اشتراطية ميتية ثابتة ، والمخيال الاجتماعي مثبط ساكن أو متحرك على دائرة زمنية بحيث يتحول الموضوعي في تاريخيته الى خيال ميتي ، وتتحول الفعالية الفكرية الى سلطة اتفاق ، وقلق العقل الى سكون أو انعكاس وتتحول تاريخية الحدث الى تأريخ سلطوي له .

ولتحريك هذه المتوالية ، وإعادتها الى توازنها الصحيح بحيث تقف على قدميها وراسها الى الاعلى ، لا تحتاج الى قوى خارقة ، بل تحتاج

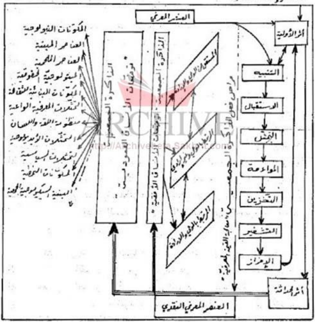
الى إزالة سلطة التمثل الايديولوجيّ بتعبيراتها السياسية المتعددة، وترك الافق مفتوحا لفعاليات الفكـر واللغة . وهـذا لا يخص الموضوع الآني فقط ، بل يتحرك ليشمل الذاكرة الجمعية والمخيال الاجتماعي المكونين من فعاليات مقلوبة أساسا في تمثلها التاريخي . وهنا ، قد يقول قائـل بأن الذاكرة الجمعية مثلها مثل منظومة اللاشعور المعرفي عند الجابري ، وبالتالي ، فهي مكونة بشكل مستقل عن وعينا وإرادتنا ، فكيف يمكن اخضاعها لفعاليات الفكر والنقد المعرفي ؟!!

وهنا يمكن تبسيط المناقشة ، حيث تتحدد الركائز والاسس المكونة لبناء الذاكرة الجمعية ، من ناحية التطبيق الافقي ، بنفس الميزات اللازمة لمنظومة اللاشعور تقريبا ، وتخضـع (وبنفس العلاقات والارتباطات) لمقومات بنائية محددة مشاركة في تكوين المخيال الاجتماعي ، وذلك عبـر السويات اللاشعورية غير المرتبطة بالوعي والإدراك ، وعبـر السويات المرتبطة بالوعي ولكنها مستقلة عن الإرادة ، وأخيرا عبر تلك المرتبطة بالإرادة بمفهومها الجمعي والفردي . وهكذا تبدو العناصر المكونة للذاكرة الجمعية من ناحية التطبيق العمودي (العناصر البيولوجية ، الميتيـة ، الملحمية ، القصصية ، الحقوقية ، اللسانية ، النمطية ، السيكولوجية، ......) الخ ذات تناسق افقي ، خاضعة بشكل سلبي (منفعل ، غير فعال) وفعال لتراكم أثر الحداثة عبر اكتساب عناصر وقيم معرفية جديدة، ابتداءً من تأثير المنبه السكيولوجي والاستقبال في الذاكرة ، وانتهـاءً بالتشفير والمعالجة المعرفية .

نستنتج من ذلك ان اخضاع المنظومات المعرفية للنقد (واقصدبذلك النقد التفجيري المقارن) يتم عبر تطبيقه على توضعات الانساق الافقيـة المكونة للذاكرة الجمعية ، اي ، على السوية المرتبطة بالوعي والإرادة ، من ثم ينفذ الى السوية المرتبطة بالوعي ولكنها مستقلة عن الإرادة ، فالسوية الأخيرة المستقلة تماما . ولا يترك هذا الفعل النقدي توضعـات الانساق العمودية كما هي متوضعة في بنيـة الذاكرة الجمعية والمخيال الاجتماعي ، بل تخترقها باتجاهات لانهائية ، تبدأ بآلية الترميز (التشفير) الجمعي نافذة عبر اليات الذاكرة وتوضع القيم المعرفية ، ولا تنتهي بأثر

الاولية ، وذلك من خلال عملية معقدة متصاعدة . وهذا ما يترك قطعه البين على التمثلات الأيديولوجية والحقوقية وغيرها المائلة في الذاكرة ، لاغية دورها في قسر العناصر اللغوية والسيكيولوجية وغيرها من عناصر ميتية تصبح في حينها قابلة تماما لفعل النقد واعادة المعالجة .

النقد وإعادة المعالجة .



شكل إيضاحي تمثيلي يبيّن مفعول أثر العنصر المعرفي النقدي على الذاكرة الجمعية وأبنيتها العمودية والأفقية عبر معالجة القيم المعرفية .

اذن ، تبدو هذه النفوذية في العمق متداخلة معقدة ، ذات فعل فراغي مركب لانهائي الجهات ، ولا تحدث عبر زمنية فيزيقية خاصة ، ولا تتم بمنحى مكاني واحد محدد ، بل عبر تداخلات مكونات المنظومات الثقافية في ابعادها الزمكانية الاجتماعية ، اي بمعادلات خاصة للزمن الاجتماعي المرتبط عضويا بتاريخية وسيرورة الكتلة الاجتماعية ، وعبر تداخل الخطابات المفتوحة على كل الاحتمالات وباشتراطاتها التاريخية ايضا ، وهذا بحد ذاته مقدمة لفتح الخطاب الثقافي آفاقه نحو زعزعة وخلخلة ، فتفجير المتكلس من فعاليات الفكر ، والمقلوب من مكونات العقل .

ومن المهم الإشارة الى ان العنصر المعرفي النقدي المضاف تداخليا الى اثر الاولية في المنظومة السيكيولوجية للذاكرة الجمعية يدخل في دارة فعل مستمرة ، فهو لا يتراكم كعنصر سلبي في انساق القيم ، بل يتفاعل نوعيا بإحداث كافة عناصر الخلخلة والإلغاء والإزاحة والتطوير ، بحيث تبدو مرحلة المواءمة هي المهمة والفاعلة في اثر القيمة المعرفية المحدثة لما يتلوها من اثر جديد في « اثر الحداثة » الحاصل ، والذي يقوم بدور ثان فعال في التأثير على الانساق الأفقية والعمودية للذاكرة الجمعية .

إعادة الارتسام الحلزوني التصاعدي للزمان الاجتماعي العربي . وهذا مرتبط في خلق التداخل الجدلي لمكونات الذاكرة الجمعية والمخيال الاجتماعي . لان حركة الأزمنة الاجتماعية وتمحور المنظومات المعرفية حولها يحددان مسار الذاكرة والمخيال في قلب النظرة الافقية التاريخية الى عمودية اسطورية في حال توفر الامكانيات لتمثل كل اشكال الازمنة بالزمن الأسطوري الميتي . فالزمن محدد باشكال متعددة مرتبطة بطبيعة تحميله للفعل التاريخي ، وبطرائق التعبير عنه لغويا او بيانيا ، بحيث يشكل مفهوما ميتيا نهائيا عبر السويات العليا من الدلالات ، مرتبطة به كل البنى الداخلية للمخيال الاجتماعي والذاكرة الجمعية .

اي ان وجود القدرة او الإمكانية من خلال التمثل الايديوسياسي او من خلال تحميل معنى ما لنص ما ، او ايجاد نص ما ضمن قدسية

النصوص ، بحيث يتم تمثيل كل أشكال الزمن وتحويلها الى الشكل الاسطوري الميتي . في حال وجود وتوفر هذه الإمكانية ، فإن الرؤية الأفقية التاريخية (ذات الحركية المرتبطة بالأزمنة) ستقلب الى نظرة عمودية اسطورية .

وبنظرة سريعة الى أشكال حركة الزمان :

آ ــ الزمن الأسطوري ، الميتي ، الثابت ، اللافاعل .

ب ــ الزمن الملحمي ، المرتبط بحركة الكتلة .

جـ ــ الزمن الفيزيقي ، الميقاتي ، المتناوب ، المتواتر ، الدوري .

د ــ الزمن المتصاعد ، القصصي ، المحدد بتاريخية التحريك في مكانية محددة .

هـ ــ الزمن الاجتماعي ، المحدد ، بصياغة وصقل المنظومات المعرفية للكتلة مع حركتها في سياق المولة والفعل الانساني . والتراكمات الكمية ، والنقلات النوعية في كل تلك المنظومات مرتبطة بالمقدمات النمطية وآلية الانتاج الاجتماعي .

و ــ الزمن الثقافي المرتبط بالمقدمات التاريخية لصياغة المنظومات السابقة متداخلا مع مكونات الذاكرة الجمعية والمخيال الاجتماعي .

ز ــ الزمن الآني ، المحدد بمقطع تاريخي للواقعة المدروسة ، للموضوع المنظور . اي انه يحدد تاريخية الظاهرة ميقاتيا بربطها بالزمن الاجتماعي !!.

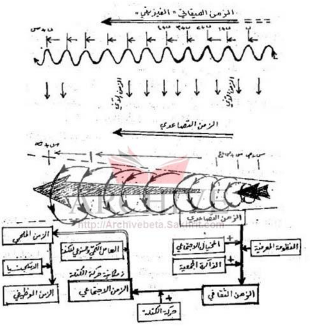
حـ ــ الزمن الإرهاصي ، الوظيفي ، ويقصد به الزمن الاجتماعي الممكن مستقبلا ، أو الممكن من الزمن الثقافي ، او المحتمل من الزمن الاجتماعي ، أو الواجب ان يكون .

نلاحظ أن التمثل الدقيق لأحد هذه الأشكال في المنظومة المعرفية يحدد طبيعة تفعيل الآليات الفكرية او قلبها او إلغائها او استبدالها . أما

محاولات تحريك الزمن ضمن فعاليات التفكير وبما يتناسب مع طبيعة حركة الكتلة ، اي عبر ما يمكن ان نسميه زمكانية الكتلة الاجتماعية ، فهو مقدمة لازمة للانتقال من الرؤية العمودية الاسطورية الى الرؤية الافقية الملحمية ، ومن الظواهر الثابتة مطلقا الى المتحركة نسبيا ، ومن الثابت الى المتحول ، ومن المكان المحنط بالمخيال الاجتماعي الى الفراغ الديناميكي او الفسحة (بتعبير انطون مقدسي) ، ومن كينونة الذاكرة الموميائية الى سيرورة الذاكرة التحويلية التصاعدية ، ومن الجوهر المطلق التخيلي الى الصيرورة ؛ فالسيرورة . فيتحول بذلك الزمن الآني الثابت في كل مقطع تاريخي لموضوع مدروس الى زمن آني جديد في اللحظة التالية للدراسة ، فتتداخل الأزمنة الآنية اللانهائية عبر حركة الموضوع لتشكل الزمن التصاعدي ، ونسميه بهذا الاسم لنميزه عن الزمن الفيزيقي ، الميقاتي ، المتناوب ، الدوري ، الذي يحدد التناغم وتوافق حركات الاجسام في الطبيعة . ومع التوابع المتصاعدة الحلزونية تفرز الكتلة وتصقل (مستندة على مقدمات في الذاكرة الجمعية والمخيال الاجتماعي ، وعبر تشغيل منظومة العقل في فعاليات الفكر) ما يمكن ان نسميه الزمن الثقافي ، الذي يتداخل جدليا مع حركة الكتلة لتشكل هذه المكونات الزمن الاجتماعي ، الذي يصف زمكانية حركة الكتلة الاجتماعية ، والذي يتصف بدوره بالآليات النشيطة للعامل الكمي التراكمي للكتلة ، مع القفزات النوعية الواسعة لمفاصل بارزة في الزمن الاجتماعي ، فيمكن ان يتحرك امامنا حينها ، ما يمكن ان نسميه الزمن الملحمي .

وعلينا ان نؤكد بان الزمن باشكال حركته المتعددة ، لا يشكل حاملا رياضيا لمقدمات ومكونات المنظومات المعرفية والخطابات المتعددة ، بل يشكل عنصرا تكوينيا بنائيا ، وما يميز الفعاليات النشيطة للتفكير ، انها تستطيع تحديد الموقع الطوبولوجي لمنظومة الجماعة بما هو مرتبط مع الزمن الوظيفي (الإرهاصي) ، اي الزمن الاجتماعي باحداثياته المحددة بما هو قائم ، والمحتمل وما يجب ان يكون .

اما العقل المقلوب ، والذي تتحرك فعاليات التفكير فيه عبر زمن ثابت او دائري ، وتتقزم فيه كل تلك الفعاليات لتصبح تحت يافطة



الاستدلال ، فإن كل أشكال الازمنة وحركتها تتقلص عنده في زمنين فقط ، الزمن الآني ، والزمن الاسطوري « الميتي » . وحتى الاعتراف بوجود الزمن التصاعدي ، فيساق مباشرة للتوصل الى الإطلاق اللافاعل في الزمن

الاسطوري الميتي . أما التعامل مع الزمن الإرهاصي (الوظيفي) فيتقلص تحت شعار الجبرية والقدرية ، ومقولات الاطلاق الاخرى المثبتة لمفهوم الزمن رياضيا ، والتي تنفي حركته الاجتماعية ، بحيث تقزم او تلغي او تقلب كل الفعاليات .

ولو دققنا قليلا في الشكل التمثيلي المبسط السابق للاحظنا بأن الزمن الملحمي يقع تحت تأثير وفعالية الثقافي عبر مكوناته ومقدماته مكونا زمنا خاصا مستقبليا محددا مع زمكانية حركة الكتلة الاجتماعية ما اطلقنا عليه الزمن الوظيفي (الإرهاصي) ، وهو هنا نقيض الجبرية والقدرية ، ولا يتقاطع مع التنبؤ بصيغه المتعددة . إنه الصيغة التي تبحث عنها الكتلة الاجتماعية عبر حركتها ، مشكلا البعد الرابع الجدلي لسيرورة الأمـة . معبرا عن قدرة فعاليات الفكر على النشاط واعادة التوزن للعقل ، قدماه الى الاسفل ورأسه الى الاعلى ، وعن سيرورته التحولية دائما وصعودا حركيـا .

نحو منظومة معرفية عربية نقدية مقارنة :

نضيف اذن ، بأن كشف المتكلس القائم على فعاليات الفكر ، ومن ثم تنشيطها ، يظهر حقيقة الزمن الميتي ـ الاسطوري اللافاعل الذي قلب رأسا على عقب حركية العقل العربي،ويظهر بالتالي طبيعة حركة الأزمنة . ويمر ذلك عبر الكشف عن العلاقة بين اللغة (اللسـان ، البيان) والفكر، وبالتالي تفتح الآفاق أمام قدرة فعاليات الفكر العربي على صياغة منظومات معرفية نقدية مقارنة تفجيرية محددة بما يلي :

١ ـ منظومة معرفية متداخلة مع كل المقدمات والمكونات الاوليـة واللازمة ، بما في ذلك الاشتراطات التاريخية . وهي ليست ابستميـة خالصة ، فهذه الحالة مستحيلة تماما من الناحية النظرية والتطبيقية كما بيّنا ذلك اعلاه ، متداخلة جدليا مـع محددات فيللوجية ونمطيـة وفينومينولوجية وسيمانتية وتاريخية ... الخ . لكنها تتوازن مع فتح الخطاب الفكري على كل فعالية ممكنة ، وتسقط الرؤى احادية الجانب والاتجاه السائدة حاليا في مقاربات العقل والفكر العربيين .

منظومة معرفية قادرة على كشف الشبكة العضوية الجدلية المكونة للبناء الانتروبولوجي الثقافي للانسان العربي .

٢ ـ نقدية ، لانها تكشف التناقض القائم بين فعاليات الفكر (حتى بسماتها اللاشرطية الخلقية المرتبطة اصلا بتكون الانسان ووجود الجماعات البشرية وتطورها) وبين المواصفات اللازمة للعقل التي الزمه فيها تاريخيا التمثل الايديولوجي والسياسي . فتعيد للازمنة حركيتها كما قلنا ، وتعيد الاستدلال الى مكانه الطبيعي بدلا من ان يكون طاغيا ولاغيا لكل فعاليات الفكر الاخرى من استنتاج واستقراء وتجريد وتحليل وتركيب ... ونقدية ايضا ، لان اعادة تنشيط فعاليات الفكر بشكل سوي يزيل القدرة التثبيطية التي تمارسها منظومة « البيان » المعرفية على قدرات اللغة العربية المتعددة في تطوير الفكر وقدرته على التعميم .

٣ ـ مقارنة ، ليس بمفهوم الدراسة النسبية والتناسبية مع منظومات اخرى ضمن نفس التكون الذاتي ، او مع منظومات معرفية اخرى لكتل اجتماعية اخرى ، او امم اخرى ، بل اقصد بذلك المقارنة التي تحمل في داخلها القدرة على كشف حقيقة تاريخية كل مرحلة من مراحل انتاج منظوماتنا ، ووضعها في حالة الدراسة التصاعدية التناسبية بكل مكوناتها ، وبنفس الوقت وضع العلاقات الداخلية المكونة في وضع مقارن دائما لا يسمح بطغيان شكل من اشكال المقاربة والمقارنة كما يحدث الان .

٤ ـ تفجيرية ، لا تعني اعادة البناء للمنظومات على « اللاشيء » ، على الفراغ ، بل تعني الازاحة الكاملة لسيطرة المعرفة الاسطورية بكل مظاهرها ، لتحل بدلا عنها المعرفة المنطقية البرهانية ، وازالة التمثل الايديولوجي لمنظوماتنا المعرفية ليحل بدلا عنها الخطاب المفتوح في تكوين منظوماتنا عبر تنشيط فعاليات الفكر ، لتحل بدلا من المعرفة السلطوية سلطة منظومة المعرفة الكتلية العربية المفتوحة على كل اشكال الفعاليات ، فتفجر الهيكلية الثانية للذاكرة الجمعية والاطار الاومياتي للمخيال الاجتماعي ، فتعيد صياغة هذه الذاكرة وعبر سوياتها المتعددة عبر حركية

الازمنة الاجتماعية والثقافية ، وتعيد للمخيال اسس الحكمة والمنطقة في وضع مرتكزات واشتراطات حركة الجماعة نحو امتلاك عناصر النهوض في دنيا العولمة الحالية والقادمة .

ايجــاز

ابتداء من علاقة المعرفة باللغة واللسان ، ودور البيان وعلوم الفقه والنص ، وانتهاء بالدور التيولوجي لها ، لاحظنا كيف يمكن لتيولوجية النص وميتيته من تحديد كيفية استقباله معرفيا ، وبالتالي فان تطبيق هذه العناصر على الذاكرة الجمعية والمخيال الاجتماعي العربيين يوصلنا الى نتيجة مفادها ان تفعيل عناصر المنظومات الفكرية وتنشيطها كاف كبداية لاعطاء آليات الاكتساب المعرفي انساقها وتوضعاتها الطبيعية ، مهما اختلفت وجهات النظر في تحديد العلاقة بين اللغة والمعرفة ، لان جدلية الفكر ، اللغة ، التاريخ قائمة في فعل النتاج الاجتماعي وبشكل يحدد ابعاده المفتوحة ، في حال استطعنا ازالة كل اشكال التمثل السياسي والايديولوجي الحاصل وبالتالي ، سيصبح من السهل حينها على الذاكرة الجمعية ، واعتمادا على تنشيط فعاليات الفكر من اعادة تنسيق عناصرها بما يرتب فعلا مخيالا اكثرحيوية وفعالية .

اما عناصر الزمن ، والتي محورت حولها وبشكل متكلس تداخلات المنظومات المعرفية وبما يتناسب مع الغاء كامل لاشكال حركية الكتلة الاجتماعية في زمكانيتها المميزة ، فقد تقلصت هي ذاتها لتبقى على الزمن الميتي فقط في الذاكرة الجمعية ، وعلى الزمن الاني والفيزيقي في رسم المخيال وتحديد حركية الكتلة . وهكذا يبدو واضحا ان اعادة التوازن الى تجانس الأزمنة الطبيعي في سيرورة الامة العربية ، لا يمكن له ان يتم او ان ينبثق الا من خلال تنشيط فعاليات الفكر .

وهكذا نلاحظ ان هذا التفعيل كاف لصياغة منظومة معرفية نقدية عربية قادرة على ايجاد تأسيس اصيل في أثر الاولية ، وبما يفتح السيرورة اللاحقة لاثر الحداثة المتراكم كتيم معرفية لاحقة ، بحيث تستطيع هذه المنظومة من خلخلة خارطة الموروثات والتشفير في الذاكـرة والمخيـال الاجتماعيين .

اذن ، تبدو الركائز الاربع المناقشة لصياغة جنين مشروع نهضوي (الاصالة ، الحداثة ، الديمقراطية ، التكنولوجيا ومعرفتها) متداخلة جدليا وعضويا مع استحالة الفصل فيما بينها حتى ولو بشكل اشتراطي تفعل من خلال تنشيط فعاليات الفكر القادرة على ايجاد صيغها الخاصة في التعامل والمعالجة ، وخصوصا اننا امتلكنا يوما ما هـذه الفعالية ، ويستطيع موروثنا الجمعي العربي ان يصيغ حركية فعالة قادرة على الابداع والتجاوز .

الهوامش :

(١) د. الغالي احروشاو ، مجلة الفكر العربي ، العدد /٤٤/ كانون الاول ١٩٨٦ ص.٢٢

(٢) د. الغالي احروشاو ، مجلة دراسات عربية ، العدد /٨/ السنة الحادية والعشرون ــ حزيران ــ ١٩٨٥

(٣) تذكر بدراسة نشرت في العدد ٣٤٢ من مجلة المعرفة بعنوان في الابستمولوجيا : العقل المقلوب بين الاداة والاستقالة ــ للمؤلف .

(٤) تذكر بدراسة نشرت في العدد ٣٤٢ من مجلة المعرفة بعنوان في الابستمولوجيا : العقل المقلوب بين الاداة والاستقالة ــ للمؤلف .

(٥) د. يمنى العيد ــ في معرفة النص ، اصدار دار الافاق الجديدة ص /٧٠/ .

(٦) المصدر السابق ص /٧٠/ .

(٧) مجلة الوحدة ، العدد (٥١) التي تصدر عن المجلس القومي للثقافة .
محور العقلانية والفكر العربي ص /٦٦/ .

(٨) د. يمنى العيد ، المصدر السابق .

(٩) هنري لوفيفر ، اللسان والمجتمع ، ترجمة مصطفى صالح صادر عن وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية ص ١٣٥ .

(١٠) المصدر السابق ص (٢٠٢) .

(١١) المصدر السابق ش /٨٠/ .

(١٢) د. محمد عابد الجابري ، نقد العقل العربي (٢) ، بنية العقل العربي مركز دراسات الوحدة العربية ، الطبعة الاولى ١٩٨٦ ، ص /٥٥٦/ .

۞ ۞ ۞

الدراسات والبحوث

نحو منهج عربي موحّد للعلوم الاجتماعية

د. احسان هندي

العلم ، في مفهومه الوضعي الحديث ، هو جملة المعارف التي تستهدف التواصل الى كنه الأشياء والكائنات الحية ، عن طريق دراسة « الظواهر » التي تبدو فيها هذه الأشياء في حالتها المستقرة (الستاتيكية) او المتحولة (الديناميكية) ، وهكذا فدراسة « الظواهر » تشكل الهدف الرئيسي لجميع العلوم .

د. احسان هندي : باحث من سوريا ، من اعماله المطبوعة « كفاح الشعب العربي السوري ــ تاريخ الثورات السورية » ، « الحياة العسكرية عند العرب » ، « معركة ميسلون » .

والظاهرة Phénomène : Phenomenus هي : « كل تبدل او تحـول يحـدث في الطبيعـة ويمكـن ملاحظتـه او قياسـه بالحواس الطبيعية ، او بالاجهزة العلمية ، او عن طريق المحاكمة العقلية » . وعلى هذا فان جميع ما لا يمكن التعرف عليه وقياسه بالحواس البشرية او الاجهزة العلمية او المحاكمة المنطقية لا يشكل جزءا من العلم ، وينطبق هذا بشكل خاص على القضايا الماورا ـ طبيعية (الميتافيزيقية) مثل : السحر ، المعجزات الخارقة ، كنه الروح ومصيرها بعد الموت ... الخ ، حيث أن مثل هذه الامور لا يمكن التعرف عليها ولا قياسها بواسطة الحواس او الأجهزة العلمية ، كما لا يمكن التوصل لمعرفتها عن طريق المحاكمة المنطقية المحضة إلا إذا اضفنا « الإيمان الديني » الى عنصر العقل حيث يمكن التوصل الى بعض القناعات الشخصية حولها في هذه الحالة .

وكل علم لا غنى له عن « منهج Méthode » خاص يتميز به عن مناهج العلوم الاخرى ، وينبني على موضوع العلم نفسه ، وهكذا فالعلم ـ حسبما يقول الفيلسوف الالماني كانت ـ ليس جملة من المعلومات فقط ، وإنما هو « جملة من المعلومات المصنفة او المرتبة ، لها موضوع Objet خاص بها ، ومنهج خاص بها كذلك » .

ولا يمكن لأي علم ان يتميز عن بقية العلوم ، ويستقل تحت تسمية خاصة به ، إلا إذا وجد **موضوعه** الخاص به مـن جهة ، **ومنهجه** الذي يلائم موضوعه هذا من جهة ثانية ، وتم اثبات بعض الحقائق في مجالات موضوعه من جهة ثالثة .

ومن هذا يتبين لنا ، باديء ذي بدء ، أهم شروط المنهاج هو ان يكون « موضوعيا Objective » أي منطلقا من موضوع العلم نفسه ، بصرف النظر عن أي ناحية ذاتية او شخصية Subjective تتعلق بالعالم . وبكلمة اخرى يكون كل علم علما بالفعل بقدر « إمكانية التجريد Abstraction » بين **الموضوع Objet** وبين **الذات Sujet** ، اي بين **موضوع** هذا العلم **وذات** العالم الذي يبحث فيه . وهذا ما حدث فعلا عند نشوء العلوم الحديثة واستقلالها ، حيث إن الفلسفة كانت تتضمن جميع العلوم ، ولهذا يقال لها « ام العلوم »(١) ، ثم اخذت هذه العلوم

تنفصل عنها واحدا فواحدا بحسب درجة التجريد التي هي عليها ، على اعتبار انه كلما زادت امكانية التجريد اكثر امكن تحقيق الموضوعية اكثر ، وهكذا انفصلت اول ما انفصلت العلوم الرياضية (الحساب والجبر والمثلثات والهندسة) لأنها اكثر العلوم تجريدا(٢) ، ثم انفصلت علوم المادة غير الحية (الفلك ـ الفيزياء ـ الكيمياء ...)(٣) . ثم علوم المادة الحية (الطب ـ علم التشريح ـ علم الحيوان ...) . وآخر ما انفصلت العلوم **الاجتماعية** او **الانسانية** لأنها اقل تجريدا واكثرها اتصالا بواقع الحياة العملية .

وهنا لابد من الاجابة على سؤال يطرح نفسه في هذا المجال وهو التالي : لقد قلناقبل قليل (العلوم الاجتماعية او الانسانية) فهل يعني ذلك ان هذين التعبيرين مترادفان ؟ الحقيقة هو ان الامر لا يزال بين اخذ ورد في اغلب الاوساط الاكاديمية في العالم ، حيث ان كثيراً من الجامعات ـ وخاصة الجامعات الفرانكوفونية لا تزال تميز بين المفهومين فتدرس **العلوم الاجتماعية** في كليات الحقوق ، **والعلوم الانسانية** في كليات الآداب ولكن هناك نزعة واضحة ومتنامية للتوحيد بينهما واعتبارهما مترادفين تماما .

والواقع انه بالرغم من امكانية وجود فوارق بسيطة بين (العلوم الانسانية Les Sciences Humaines) من جهة ، و (العلوم الاجتماعية، Les Sciences Sociales) من جهة ثانية ، على اساس ان الاولى تبحث في الانسان كفرد بمعزل عن المجتمع الذي يعيش فيه ، والثانية تبحث في علاقات الانسان بغيره وتصرفاته ككائن اجتماعي ، فان الفوارق بين التسميتين آخذ بالانكماش على اعتبار ان العلاقات **الاجتماعية** هي **انسانية** بالضرورة(٤) ، وان كل التصرفات التي يقوم بها بنو البشر يمكن ردها الى دوافع وتأثيرات اجتماعية ، الى درجة ان الغرائز الفطرية يتم ارواؤها ضمن الاطر والحدود التي يضعها المجتمع نفسه(٥) . ولهذا السبب نجد اليوم نفراً كبيرا من الفلاسفة وعلماء الاجتماع الفرنسيين ، مثل كلود ليفي شتراوس ، وجان بياجيه ، ومادلين جراڤيس ... اصبحوا يستخدمون التسميتين (العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية)

كمترادفتين ، في الوقت الذي تبنى فيه (المركز الوطني للبحث العلمي C.N.R.S) تعبيرا ثالثا أصح من التعبيرين السابقين معا ، وهو (علوم الانسان Les Sciences De L'homme) .

ـــ واذا اخذنا هذا الواقع بعين الاعتبار يصبح بوسعنا ان نعرف هذه العلوم بأنها : « هي التي تستهدف دراسة الظواهر التي تنعكس فيها النشاطات البشرية للفرد ضمن المجتمع الذي يعيش فيه » . ومن هذا التعريف يتبين لنا بأن كل علم من العلوم يتعلق بنشاط الانسان ضمن المجتمع يدخل في طائفة العلوم الاجتماعية ، وهي علوم واسعة وعديدة ، ولكن بوسعنا مبدئيا ان نصنفها ضمن زمرتين :

آ ـ **العلوم الاجتماعية القياسية** : وهي العلوم التي تستهدف الحصول على قوانين او علاقات كمية تحكم الظواهر والانظمة الاجتماعية ، وتضم عدة علوم اهمها : علم الاجتماع (بجميع فروعه) ، وعلم السكان (الديموغرافيا) ، وعلم الاعراف (الانتولوجيا) ، وعلم أصل السكان (الانتروبولوجيا) ، وعلم الالسنية (لانجويستيك) وعلم النفس الاجتماعي .

ب ـ **العلوم الاجتماعية الوصفية** : وهي علوم عامة لا نتمكن فيها من استخراج قوانين ثابتة تحكم الظواهر دائما لانه لا توجد فيها معلومات تنبني على معلومات اخرى اسبق منها ، ولـذا نكتفي فيها بالوصف Description ، بدون حاجة لاستخراج قوانين ثابتة .

واهم العلوم التي تندرج تحت هذه الفئة هي : العلوم القانونية ، والعلوم التاريخية ، والعلوم الجغرافية ، العلوم الاقتصادية ، علم السياسة(٦) .

وهناك من يعتبر ـ ومعه شيء من الحق في ذلك ـ العلوم الاقتصادية من العلوم القياسية ، لانه يمكن استخراج بعض القوانين فيها ، لـذا يصنفونها مع الفئة الاولى ، ويضعون العلوم الفلسفية مكانها في علوم الفئة الثانية (العلوم الوصفية) ، ولكننا نفضل ـ ونقولها بكل تواضع ـ

اعتبار الفلسفة اما لجميع العلوم ، وعدم انزالها الى مرتبة فرع من فروع العلوم الاجتماعية .

وتتصف العلوم الاجتماعية ، التي عددناها اعلاه ، ومهما كان نوعها، بخصائص مشتركة فيما بينها ، تميزها عن بقية العلوم ، واهم هذه الخصائص هي التالية :

اولا — هي علوم حديثة : فبالرغم من ان جذور هذه العلوم تمتد في التاريخ الى زمن ارسطو ، فانها لم تستعمل عن الفلسفة وتنفرد بموضوعها وبمنهج خاص بها الا على يد العالم الفرنسي اوغست كونت في اواسط القرن التاسع عشر(٥) .

وقد ساعد على تبلورها واستقلالها في اواسط القرن الماضي بالذات العوامل التالية :

١) تقدم العلوم الاخرى ، وخاصة الطب البشري على يد كلود برنار، وتطبيق المنهج التجريبي عليه .

٢) الميل نحو زيادة الاختصاص وتقسيم العمل .

٣) الهزات الاجتماعية التي عرفها العالم في نهاية القرن الثامن عشر والنصف الاول من القرن التاسع عشر

ثانيا : هي علوم قائمة بذاتها : اي انها علوم لها خصوصيتها وتميزها ويبدو ذلك مما يلي :

١) ان تقدمها لا يتعلق بتقدم الوسائل العلمية المادية مثل العلوم الطبيعية او التجريبية ، ولكنه يتعلق بتقدم الوسائل الذهنية (التخيل ، الفكر النقدي . .)

٢) اذا كانت العلوم الطبيعية كالفيزياء والكيمياء (علوما موضوعية Objectives محضة ، فان العلوم الاجتماعية علوم (موضوعية) و (ذاتية Subjectives) معا .

وبالنظر لاختلاط الصفة الذاتية بالصفة الموضوعية في هذه العلوم

فانها لا بد من ان تتأثر بايديولوجية اصحابها ، وهو أمر ليس له وجود في العلوم الطبيعية او العلوم الرياضية : وهكذا لا يمكن الحديث عن رياضيات فرنسية ورياضيات انجليزية ، أو فيزياء امريكية واخرى روسية ، ولكن يمكن لنا الحديث عن علم اجتماع امريكي ، وعلم اجتماع روسي ، وعلم اجتماع الماني ، وعلم اجتماع فرنسي .. الخ .

وهذا التأثر الايديولوجي ليس وحيد الاتجاه ، بل هو ذو صفة جدلية (ديالكتيكية) ، بمعنى ان العلوم الاجتماعية تتأثر بايديولوجيا أصحابها من جهة ، كما تؤثر في ايديولوجيتهم من جهة ثانية .

ثالثا) انها علوم ذات منهج متميز : ان اساليبها وتقنيتها تختلف عن بقية العلوم : فأسلوب (الملاحظة **Observation**) يختلف عن هذه الملاحظة في العلوم الطبيعية ، حيث أن العلوم الاجتماعية تأخذ بأسلوب الملاحظة غير المباشرة **Indirecte** وهي الملاحظة التوثيقية اللاحقة للظاهرة ، بدلا من الملاحظة الآنية او المباشرة المطبقة في العلوم الطبيعية .

ــ وبما أن موضوع العلوم الاجتماعية هو الانسان ، بكل ما يحمله هذا الانسان من عواطف وقيم ومثل وانفعالات وردود فعل قد تكون فردية ومتميزة، لذا فان مبدأ (الحتمية العلمية **Determinisme**)لا يلعب الدور الذي يلعبه هذا المبدأ ذاته في العلوم الطبيعية ، لأننا في العلوم الاجتماعية او الانسانية نتعامل مع (الانسان الحي) وليس مع (الطبيعة الميتة) كما هو الحال في العلوم الطبيعية .

ويؤكد الباحثان الفرنسيان المعاصران (روجيه بنتو) و (مادلين جرافيتس) في كتابهما الموسوم : « مناهج العلوم الاجتماعية »(٧) على هذه النقطة بالذات ، حيث يريان انه لا يمكن تطبيق مبدأ (الحتمية العلمية) على العلوم الاجتماعية ، وأن سبب ذلك يكمن في نقطتين :

١) موضوع الملاحظة هو الانسان .

٢) القائم بالملاحظة هو ايضا انسان ، والانسان يمكن أن يتأثر بعوامل سياسية واقتصادية وثقافية واجتماعية بسبب التأثير المتبادل بين

(الذات) و (الموضوع) . وهذا التفاعل بين الذات والموضوع يجعل عملية الملاحظة في العلوم الاجتماعية غير حيادية تماما وغير مضمونة الدقة

وبالفعل كيف يمكننا ان نضمن حياد باحث يدرس مثلا ظاهرة الطلاق اذا كان هو ثمرة بيت قد حطمه الطلاق ؟ بل كيف يمكن ان نضمن ان الانسان الملاحظ يتصرف بشكل طبيعي اذا عرف انه هناك من يلاحظ تصرفاته ويدرسها ؟

رابعا) هي علوم متعلقة ببعضها : بل ان بعضها يتداخل بالبعض الاخر كما هي الحال بالنسبة لعلم الاجتماع السياسي وعلم السياسة من جهة ، وعلم الاجتماع القانوني والعلوم القانونية من جهة ثانية ، وعلم السكان (الديموغرافيا) وعلم الجغرافيا البشرية من جهة ثالثة ، وقد ترك هذا التداخل أثره في الطرائق المنهجية لهذه العلوم حتما .

وبعد هذه المقدمة ـ التي لم يكن منها بد كما نعتقد ـ ندخل الان في موضوع بحثنا بحسب العنوان الذي اثبتناه اعلاه ، وهو تحديد المنهج العربي المقترح للعلوم الاجتماعية ، وهذا ما يطرح في رأينا ثلاث اشكاليات يجب التوصل الى حلول لها قبل تحديد هذا المنهج ، وهي :

ـ **الاشكالية الاولى** : هي تحديد ما اذا كان المنهج المطبق في العلوم الطبيعية (اي المنهج التجريبي) صالحا للتطبيق في العلوم الاجتماعية ام لا ؟ ليس من الممكن اعطاء حكم بات في هذا المجال ، حيث هناك اراء متضاربة حوله ، والتي يمكن اختصارها في رأيين : احدهما لانصار التطبيق والثاني لخصوم التطبيق .

١) انصار التطبيق : وهم اغلبية علماء الاجتماع الامريكان من اصحاب (النظرية الآمبيريكية L'empirisme) من امثال جورج لوندبرج ، ستيوارت شاپن ، جورج مورينو .... الخ . ويرى هؤلاء جميعا انه لا يوجد اي اختلاف بين (العلوم الطبيعية) و (العلوم الاجتماعية) ، وانما هناك فروق بينهما فقط ، وهذه الفروق هي فروق في الدرجة وليست فروقا في الجوهر ، لذلك فان المنهاج الذي يطبق على الاولى يمكن تطبيقه

على الثانية ، وبكلمة اخرى فان هؤلاء يطالبون باخضاع العلوم الاجتماعية للمنهج التجريبي الذي يطبق في العلوم الطبيعية .

٢) **خصوم التطبيق** : وهم اغلبية علماء الاجتماع الأوربيين من أصحاب (النظرية العقلانية Le Rationalisme) من امثال : دیلتي ، بوتومور ، وبندلباند ، ماكس ويبر ، سوروكين ، جورفيتش ...... الخ ، ويرى هؤلاء جميعا انه لا يمكن تطبيق منهج العلوم الطبيعية على العلوم الاجتماعية لعدة اسباب اهمها : تعقد الظواهر الاجتماعية ، صعوبة الحفاظ على الموضوعية في هذه العلوم ، استحالة اجراء التجارب المخبرية وتعذر استخراج قوانين ثابتة تنطبق على جميع الحالات .... الخ ، ولذا يعتقد هؤلاء ان أي منهج للعلوم الاجتماعية لا بد من ان يعتمد على «فهم الظاهرة» **من الداخل** وليس مجرد ملاحظتها ودراستها **من الخارج** .

ـ وقد انتقل هذا الخلاف الى الاوساط الاكاديمية العربية التي تعمل في دراسة وتدريس العلوم الاجتماعية ، حيث نجد **هنالك** عددا من انصار تطبيق منهج العلوم الطبيعية (المنهج التجريبي) على العلوم الاجتماعية ، كما نجد عددا من خصوم ذلك التطبيق فمن انصار تطبيق المنهج التجريبي على العلوم الاجتماعية شيخ الفلاسفة العرب المعاصرين الاستاذ زكي نجيب محمود ، ومما يقوله في سياق مقال له يحمل عنوان « لك الله يا علوم الانسان » العبارات التالية : « مسكينة هذه المجموعة البائسة من اسرة العلم ، فحتى رجال الاختصاص في تقسيم العلوم وتبويبها كثيرا ما اخذتهم الحيرة : ايجعلونها علوما قائمة وحدها ليكون لها منهج خاص في بحثها ، أم يضعونها **حيث ينبغي لها ان توضع مع سائر العلوم الطبيعية** ليكون بحثها قائما على المنهج ذاته الذي ينتهجه الباحثون في بقية العلوم الطبيعية التي من شأنها ان تبحث في الظواهر ـ اي فيما يظهر من الاشياء ـ اذا لا فرق بين ظاهر يظهر لنا من نبات او ضوء او هواء ، وظاهر آخر يظهر لنا في سلوك الانسان فردا كان أو مجتمعا مع انسان آخر »(٨) .

ـ ولا يعدم المعسكر الآخر ، أي خصوم التطبيق ، وجود مؤيدين له

في العالم العربي ، ويمكن ان نذكر منهم الدكتور حسن شحاتة سعفان ، الذي يقول في احد كتبه متبنياً رأي عالم الاجتماع الالماني ديلتي Dealty : « إن تطبيق المناهج العلمية على العلوم الاجتماعية ، وعلى علم الاجتماع بوجه خاص ، **مستحيل ولا يؤدي لنتيجة ،** لأن المناهج العلمية تجعلنا ندرس ظواهر خارجة عنا وهي ظواهر الطبيعة ، بينما تدرس العلوم الاجتماعية ظواهر مبثوثة فينا ، وهكذا فالفرق كبير بين مجال العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية » .

ــ واذا جاز لنا اعطاء رأي شخصي في هذا المجال ، فاننا نعتقد بانه من الممكن الاستفادة من بعض معطيات المنهج التجريبي ــ أي المنهج الاستقرائي المطبق في دراسة العلوم الطبيعية ــ لدراسة العلوم الاجتماعية ، ولكننا نعتقد بالمقابل بانه لا يمكن تطبيق هذا المنهج بحذافيره ــ كما يطالب الدكتور زكي نجيب محمود ــ فيها ، لأن مشكلة المشاكل هي تداخل (الذات) و (الموضوع) في هذا المجال ، او كما يقول « هوسيرل » : « كيف يمكننا أن نصل الى الحقيقة الموضوعية بصورة ذاتية او شخصية » ؟!

ــ **والإشكالية الثانية** التي يطرحها هذا الموضوع هي تحديد ما اذا كان هناك (منهاج واحد) لدراسة العلوم الاجتماعية ، أو (مناهج) متعددة حسب عددها كلها ؟ والحقيقة هي انه هناك بعض الوسائل المنهجية المشتركة بين العلوم الاجتماعية كافة ، ولكن المشكل يكمن في أن كلاً من هذه العلوم يستخدم هذه الوسائل المنهجية بطريقة خاصة به : وهكذا فكل العلوم الاجتماعية تستخدم طريقة (البحث L'enquête) كوسيلة ، ولكن كلاً منها يستخدمها بطريقة تختلف بحسب غاية البحث وموضوع العلم نفسه ، وهذا ما يسمح بوجود عدة **مناهج للعلوم الاجتماعية** في الوقت ذاته الذي يمكن فيه الحديث عن **منهج واحد للعلوم الاجتماعية** ايضاً .

وتأسيساً على ذلك يصح أن نقول « منهج العلوم الاجتماعية » بصيغة المفرد ، كما يصح أن نقول « مناهج العلوم الاجتماعية » بصيغة الجمع ،

لأننا في الحالة الاولى نركز على النواحي المشتركة في منهجية العلوم الاجتماعية ، وفي الحالة الثانية نركز على الطرائق المنهجية ، أو بالاحرى على (المقاربات Approaches) الخاصة بكل علم من هذه العلوم .

بلى إن التعدد قد يوجد حتى في مجال العلم الواحد ، وفي هذا يقول الدكتور علي عبد المعطي محمد : « اكثر من منهج يتعارض الواحد مع الآخر تعارضاً جذرياً كاتخاذ منهج التحليل النفسي والمنهج التجريبي والقياسي في علم النفس ، وكاعتماد علم التاريخ على المنهج الاستقرائي في الآثار المكتشفة لحقبة تاريخية ، وعلى المنهج الاستنباطي في اعادة تكوين الماضي ، وعلى المنهج الاستردادي وهكذا »(٩) .

ـ **والإشكالية الثالثة** تدور حول ما اذا كان من المستحسن ايجاد منهج عربي ، أو عربي ـ اسلامي متميز عن غيره ، في مجال دراسة العلوم الاجتماعية ، أم أن هناك منهجاً علمياً عاماً وشاملاً يطبق في جميع البلدان وجميع الثقافات ؟

وللجواب على هذا السؤال نذكر بأنه سبق أن أثبتنا ، في مكان آخر من هذا المقال ، أن العلوم الاجتماعية تتأثر بإيديولوجية اصحابها ، وأنه اذا كان لا يمكن الحديث عن وجود فيزياء نووية أمريكية وأخرى روسية فإنه يمكن الحديث بالتأكيد عن علم اجتماع امريكي وآخر روسي وثالث ألماني . . .

وطالما قبلنا بوجود علم اجتماعي أمريكي وعلم اجتماع روسي وثالث ألماني يجب أن نقبل أيضاً ، من باب اتساق الفكر مع نفسه ، بوجود علم اجتماع عربي ، بل وعلوم اجتماعية عربية ، وبالتالي منهج عربي لدراسة هذه العلوم .

لقد صدمت هذه الإشكالية عقول بعض المفكرين العرب الى درجة جعلوا منها عناوين لبحوث لهم ، ونجد هذا خاصة في المغرب العربي وذلك في مجال بحث العلاقة بين المنهج المقترح والتراث العربي ـ الاسلامي ، وهكذا نجد المفكر المغربي المعروف عبد الله العروي يكتب بحثاً بعنوان

« المنهجية بين الابداع والاتباع » ، بينما يكتب زميله محمد عابد الجابري بحثاً آخر بعنوان : « التراث ومشكلة المنهج » .

ولكن الحقيقة هي ان المطالبين بإيجاد منهج عربي ، او عربي ـ اسلامي يكون متسقاً مع التراث العربي ككل لا يشكلون حتى الآن اغلبية بين رجال الفكر العرب بسبب وجود تيار قوي يعارض هـذا الاتجاه ولعل ابرز المعارضين في ذلك هو الدكتور زكي نجيب محمود الذي يقول في احدى فقرات مقاله المشار اليه اعلاه ، وبالحرف : « هذه الكرة الحيرى بين أقدام اللاعبين لم تعد تعرف لنفسها والدا تنتمي اليه ، فكل يريدها لنفسه وكأنها قطعة الحلوى تنازعتها جماعة من صغار اللاعبين ، مع ان المسكينة تحمل معها شهادة ميلادها ، وتبين لمن اراد بياناً من هي والى اي اسرة تنتمي . باسمها (علوم) هي تنتمي الى أسرة (العلم) ، وأنا اعني تلك المجموعة من الدراسات العلمية التي يطلق عليها اسم (العلوم الانسانية). وحتى جاءتنا ايامنا هذه باعجب نعت من نعوتها وذلك حين تحركت في حياة الأمة العربية موجة تحرص على **الخصوصية** المتميزة **للمسلم العربي** فقال اصحابها عن مجموعة العلوم التي موضوعها الانسان إننا نريدها علوماً اسلامية قوامها مادة اسلامية ومنهج البحث فيها هو منهج السلف من المسلمين (....) تلك واحدة ، ومسألة اخرى نريد حذفها من قائمة ما يطالب به اصحاب الدعوة ، وهو وجوب أن تبنى الأبحاث العلمية في العلوم الانسانية على واقع الحياة في الامة العربية الاسلامية فذلك أمر مرفوض مقدماً وليس له بديل نخشاه »(١٠) .

ومع كل احترامنا لراي العلامة الجليل الدكتور زكي نجيب محمود فإننا لا نشاركه فيـه لسبب بسيط وهـو انه افترض في مقاله بعض المقبولات كحقائق ثابتة ، وقد جعلته هذه المقبولات يصل الى هذه النتيجة لكي يظل متسقاً مع نفسـه : لقد انطلق من ان العلوم الانسانية (وهي

مرادفة للعلوم الاجتماعية لديه) هي « علوم » بكل ما في الكلمة من معنى ؛ وان الروح الموضوعية ليست ممكنة فيها فحسب ؛ وانما هي موجودة في الواقع ، ولهذا السبب فإن كل نظرية علمية « لم يَعُدْ يجوز لها ان تتجنس بجنسية من كشف عنها وأذاعها لانها باتت ملكاً للجميع »(١١) .

ومن هذا يتبين لنا ان **المنهجية في العلوم الاجتماعية** ، وإن كانت امراً متفقا عليه بين جميع العلماء والمفكرين بمن فيهم علماء العرب ومفكروهم ، فإن **المنهج الواجب تطبيقه** في دراسة هذه العلوم لما يتفق عليه بعد ، ولا يزال يطرح من الاسئلة والاشكاليات الشيء الكثير ، وكلها تحتاج الى ايضاحات اذا لم نقل الى اجوبة دقيقة ، ولقد تعددت المناهج المقترحة سواء لدينا او في الغرب الى درجة جعلت العالم الفرنسي « بوانكاريه » يصف علم الاجتماع ــ وهو الأب الروحي لجميع العلوم الاجتماعية ــ بانه « العلم الذي يحوي اكبر عدد من المناهج وأقل قدر من النتائج » !

ونحن وإن كنا لا نشارك العالم بوانكاريه في رأيه المتشائم والساخر هذا ، فإنه لا يسعنا الا الاقرار بأن قضية اعتماد منهج لدراسة العلوم الاجتماعية ، والتوفيق بين هذا المنهج وبين معطيات التراث العربي الاسلامي ، هي احدى القضايا الفكرية والاكاديمية الملحة في مجتمعنا العربي المعاصر

ونحن ــ من جهتنا ــ اذا كنا قد اكتفينا بطرح الاشكاليات التي ينبغي حلها قبل اعتماد المنهج الافضل لدراسة هذه العلوم ، فإننا نترك الباب مفتوحاً لإجراء مزيد من الدراسة والحوار حول هذا الامر ، ثم لتقديم الخطوط العامة للمنهج الذي نقترحه في المستقبل القريب .

الحواشي :

(١) مما يدلنا على هـذا أن لقب « دكتور في الفلسفة » لا يزال التسمية المعتمدة لمن يحملون درجة التخصص في العلوم ، بما فيها العلوم التجريبية كالطب والعلوم البحتة ، في أغلب بلدان العالم .

(٢) لا وجود للرقم صفر ، أو للأرقام السالبة ، في الطبيعة فعلا .

(٣) ظلت الكيمياء جزءا من الفلسفة حتى مرحلة متأخرة من القرون الوسطى ، والدليل على ذلك أنهم كانوا يسمون المادة التي بوسعها أن تقلب النحاس الى ذهب باسم : (حجر الفلاسفة La Pierre Philosophale : Philosofers' Stone) .

(٤) ان (علم الاجتماع Sociologie) خاص بالانسان وأما العلم الذي يدرس سلوك الحيوان ضمن جماعته فيحمل اسما آخر .

(٥) تقل الرغبة للجنسية مثلا ، وأحيانا تنعدم ، تجاه المحارم ، لأن الانسان ينشأ اجتماعيا ويتلقى أفكار مجتمعه ومبادئه في هذا المجال ، ولهذا نجد أن الزواج موجود بين أبناء العمومة والخؤولة في مجتمع ما وغير موجود في مجتمع آخر .

(٦) تبنت منظمة اليونيسكو تعبير (علم السياسة La Science Politique) بالمفرد بدلا من (العلوم السياسية) بالجمع .

(٧) Roger Pinto , Madeleine Grawitz : « La Méthode Des Sciences Sociales » Ed . Dalloz - Paris , 1976 .

(٨) المقال منشور بالكامل في عدد يوم الثلاثاء ٢٣ ديسمبر ١٩٨٦ من جريدة « الاتحاد » الصادرة في أبو ظبي .

(٩) عن مقاله الموسوم : « نحو منهاج جديد للدراسات الانسانية » وهو منشور في جريدة (البيان) الصادرة في دبي – ١٩٨٦ .

(١٠) المرجع رقم ٨ .

(١١) المرجع نفسه .

○ ○ ○

في الذكرى المئوية الخامسة لاكتشاف أمريكا

ترجمة حسن سحلول

ا ـ عصر كريستوف كولومبو

آ ـ القرن الخامس عشر : قرن كبير ذو منعطف لم يعط حقه .

لقد استقطبت الاحتفالات التي قامت بمناسبة الذكرى المئوية الخامسة لاكتشاف امريكا باهتمام الناس وحصرته بشخص المكتشف ذاته ، او باشخاص اصحابه الذين رافقوه في مغامرته تلك او الذين قفوا على آثارهم . وفي بعض الأحيان اثارت هذه الاحتفالات اهتمام الناس « بالعالم الجديد » وبسكانه الأصليين وبمصيرهم المؤلم اثر هذا الإكتشاف .

ـ حسن سحلول : باحث واديب من سوريا ، له عدد من الابحاث في الدوريات العربية ، يعمل في مجال التدريس بجامعة ليون بفرنسا .

وعليه فإن الظروف التي مهدت لهذا الاكتشاف على نحو حتمي ظلت مهملة بعض الشيء وهي التقاء نهضة اقتصادية اوروبية كانت البورجوازية عنصراً منها مع ظهور انظمة ملكية كبيرة ومركزية قادت اليها النهضة الاقتصادية كما قاد اليها تقدم العلوم والفنون الصناعية .

فليس من بلاهة تضاهي تلك التي ترى في مغامرة عام ١٤٩٢ وفيما سبقها من حوادث في اسبانيا اموراً جاءت بمحض الصدفة والاتفاق . فلا شخص كريستوف كولومبو ولا الزمن الذي شهد اتحاد مملكتي قشطالة وارغونة ليفلتان من حتمية صارمة ولا تناقضاتهم كذلك .

فقد كانت اول الاشكال السياسية التي ظهرت فيها البورجوازية ، ثم تطورت ونعني شكل المدينة ــ الدولة (كالمدن الايطالية ومدن اوروبا الشمالية) قد ضاقت عليها حتى كادت تختنقها . وكان توسع البورجوازية يفرض فرضاً تمزيق هذه الاشكال التي لم تعد تسعها كما كان يفرض إزالة اسوار المدن الضيقة والتي يحكمها امراء يزيدون من تضييقها . وقد زاد من شدة هذا الخناق في ايطاليا ان فتح العثمانيون بلاد الشرق الأوسط . فكان ان راح رأس المال البورجوازي الايطالي ينتقل اكثر فاكثر الى الخارج الاوروبي .

وفي نفس الوقت كانت البورجوازية تتحالف بفطرتها مع الامراء ذوي النزعة ضد كبار الاقطاعيين المتخلفين واضعة بهذا التحالف اسس الدول الكبرى الحديثة ، امهات الدول المعاصرة . ولنا مثال بيّن عن ذلك النزاع في صراع لويس الحادي عشر الفرنسي (١٤٢٣ ــ ١٤٨٣م) ضد دوق بورغونيا شارل الملقب بالجسور (١٤٣٣ ــ ١٤٧٧ م)

كان الامر كله اذن مرهوناً بنفاذ بصيرة العواهل اصحاب السلطة او بقصر بصرهم ، وبقدرتهم على تحطيم نفوذ كبار الاقطاعيين واضعافهم .

وانه لما يلفت النظر ان نظام دخول الدول الاوربية في ساحة التوسع الاستعماري يتطابق مع نظام تحقيقها لسلطة مركزية ملكية . وهو على التوالي اسبانيا ثم انجلترا ففرنسا (مثال هولندا ، اول دولة بورجوازية، التي تبدأ مرحلة جديدة) .

ففي انجلترا مثلاً ، تسنم هنري السابع العرش عام ١٤٨٥ م . فكان

عليه أولا أن يضمد جروح انجلترا بعد الحرب الاهلية التي عصفت بهـا عامي ١٤٥٠ ــ ١٤٨٥ م والتي كانت حربا اقطاعية نموذجية ، وكان عليه أن ينظم شؤون المملكة ليعهد من ثم الى كابو البحار ذي الاصل الجنوي الفينيسي (١٤٥٠ ــ ١٤٩٨ م) بمهمة البحث عن اراض له في الغرب .

واما فرنسا ، فبعد الارتداد الى حكم اقطاعي في أيام شارل الثامن (١٤٧٠ ــ ١٤٩٨ م) ولويس الثاني عشر (١٤٦٢ ــ ١٥١٥ م) كان لابد من انتظار عهد فرانسوا الاول (١٤٩٤ ــ ١٥٤٧ م) كي تشرع فرنسا بأول ابحاثها البحرية ذات الاهداف الاستعمارية حتى مجيء ريشيليو في مطلع القرن السابع عشر (١٥٨٥ ــ ١٦٤٢) .

وهكذا فقد رفض هنري السابع (الانجليزي) كما رفض شارل الثامن (الفرنسي) والادق أن يقال رفضت آن البوجولية شقيقته ووصيته على العرش حين كان قاصرا ، أن يتبنيا مشروع كريستوف كولومبو الذي عرضه امامهما أخوه بارتيليمي .

لم يكن هذان الملكان مستعدين للتوسع الاستعماري لان دولتيهما لم تكونا جاهزتين .

ب ــ اسبانيا في الطليعة :

اما اسبانيا فانها مستعدة في عام ١٤٩٢ .

فليس تجزؤها بعد الا تجزؤا صوريا ، ولنموها البورجوازي ذي الطابع الاصيل حيوية فائقة .

كتب ماركس يقول « منذ القرن الرابع عشر كانت المدن من اقوى عناصر الكورتيس الذي كان يضم ممثلي المدن وممثلي الجهاز الكنسي وممثلي النبلاء . ويجب أن لا ننسى كذلك ان القرون الثمانية السابقة من النضال للتخلص من السيطرة العربية قد صبغت شبه الجزيرة الاسبانية صبغة مختلفة تماما عن بقية اوروبا آنذاك . فبينما كانت اوروبا تشرع في النهضة كانت العادات القوطية والفاندالية تسود في شمال اسبانيا بينما كانت تسود في جنوبها العادات والتقاليد العربية .

واما من جهة التنظيم الاداري فان مـدن أيطاليا ومدن البروفانس وشمال فرنسا وكذلك مدن بريطانيا وجزءا من المدن الالمانية كانت تشبه بما لا يدع مجالا للشك المدن الاسبانية ولكنه من الخطل بمكان ان نقارن مجلس الطبقات الفرنسية أو المجالس النيابية البريطانية السائدةبالقرون الوسطى بمجالس الكورتيس الاسبانية .

فلقد نشأت المملكة الاسبانية في ظروف مؤاتية جدا لاضعاف السلطة الملكية ولتضييق دائرة نفوذها . كما ان القرون الطويلة من الصراع ضد العرب قد ساهمت بظهور ممالك مستقلة على اجزاء من شبه الجزيرة الاسبانية انتزعت من ايدي المسلمين . فكان ان نشأت في ظل هذا الصراع عادات شعبية جديدة وكان أن سنت قوانين جديدة .

وهذه الانتصارات المتلاحقة ، والتي حققها النبلاء على وجه الخصوص ، قد ضاعفت كثيرا من سلطتهم كما اضعفت في الوقت نفسه من هيبة الملكية .

اما المدن فقد اصابت داخل البلاد اهمية ما فتئت تتزايد ، وكذلك مراكز المديريات : ذلك ان الناس كانوا مرغمين على الالتجاء الى الاماكن المحصنة وعلى التجمع فيها هربا من غارات العرب المستمرة .

هذه من ناحية ومن ناحية أخرى فان هيئة شبه الجزيرة الملائمة جغرافيا ، والاتصالات الدائمة مع منطقة البروفانس ومع ايطاليا قد انشأت بدورها مدنا تجارية واخرى بحرية هامة على سواحل اسبانيا . ا. هـ. ماركس(١) .

ان توازن المعطيات المتناقضة هذه سيؤدي الى ظهور الملكيةالاسبانية. وهذا النظام الملكي سيتخطى بسرعة كل مراحل التحديث السياسية ، ويحتل نصف القارة الامريكية ثم ، وبفضل ذهب امريكا سيقضي على نفوذ البورجوازية على يد شارل كنت (١٥٠٠ - ١٥٥٨) حفيد الملكين الكاثوليكيين ، ثم يحطم ديمقراطية مجالس الكورتيس .

فيبدأ فصل البؤس الاسباني الطويل .

ج – إيزابيلا القشطالية :

ان صفة غريبة تجمع بين الملكات العظيمات الثلاث اللواتي حكمن انظمة ملكية مطلقة ونعني ايزابيلا الكاثوليكية (١٤٥١ – ١٥٠٤) واليزابيت الانكليزية (١٥٣٣ – ١٦٠٣) والروسية كاترين (١٧٢٩ – ١٧٩٦) : ان الملكات الثلاث صعدن سدة الحكم بعد ان ولغن بالدماء ، وبفضل نجابتهن وبعد صراع ضد قوى شرسة وعمياء .

لم تعرف اسبانيا شريعة الافرنج التي تمنع النساء واولادهن من كرسي الملك والمعروفة بالشريعة السالية . ولكن إيزابيلا ليست الا اخت ملك اسبانيا هنري الرابع (١٤٢٥ – ١٤٧٤) وللملك بنت اسمها جان ترث العرش قانونا رغم الاقاويل التي تزعم بأنها نغلة . وجان هذه هي بنت اخت ملك البرتغال الفونسو الخامس (١٤٣٢ – ١٤٨١) الذي يطمع بتتويج ابنة اخته على عرش اسبانيا بعد موت ابيها عام ١٤٧٤ .

ولكن إيزابيلا تستغل ممارسة كبار الاقطاعيين وخوفهم من الفونسو وتوهمهم بانها ستكون اداة طيعة في ايديهم ضد جان واخوالها البرتغاليين. وقولة رئيس الاساقفة كاريللو تعبر تماما عن قناعات كبار النبلاء .

« حين توليت شؤونها لم تكن إيزابيلا الا صبية تلهو بالغزل ، فانا قمين بأن اعيدها الى مغزلها »(٢) .

وها هي إيزابيلا ينادي بها ملكة عقيب موت اخيها .

ولكن ذلك لم يكن اول مرة تظهر فيها إيزابيلا دهاءها السياسي . فقبل خمس سنوات مضت كانت قد اتخذت قرارها بنفسها بالزواج من ولي عهد مملكة ارغونة . وليس من شك في انها رات في ذلك الزواج وسيلة لتعزيز مستقبلها كملكة وذلك بخلق كتلة تواجه كتلة البرتغال .

وبعيد النداء بايزابيلا ملكة قشطالة واقرار انصارها بذلك ولكن بدون ان ينادى بزوجها ملكا بدوره اندلعت الحرب في ايار عام ١٤٧٥ م ضد البرتغال . وكانت حربا ماتزال لها كل سمات حروب الاسر الاقطاعية الحاكمة .

وهنا تنزع إيزابيلا عنها قناع الصبية التي تلهو بالغزل ـ ولكن أوضعته حقا يوما ما ؟ ـ وتقود الحرب مع زوجها ، وتحصد أول انتصاراتها بعد أقل من عام واحد ، وفي مطلع عام ١٤٧٩ كان الفونس ملك البرتغال يطلب الجلوس الى طاولة المفاوضات . ويتوصل الطرفان الى اتفاقية سلام حسنة رغم أنها تتضمن على اعتراف باحتكار البرتغال للملاحة على ساحل افريقيا وللاتجار فيه ، مما يغلق أمام اسبانياالطريق الى آسيا بالدوران حول افريقيا .

ومما يقرر ، فيما بعد ، مصير مشروع كولومبو عام ١٤٩٢ .

ماذا كان جرى لو ان حزب البرتغال الذي كان يناصر جان النغلة كان قد انتصر ؟ اذن لكان قد تغير مسار الحوادث على الاقل وربما لقرون عديدة ، فكانت سيطرة دولة واحدة فقط على كل امريكا الجنوبية ، ولما كانت تحققت امبراطورية جرمانية اسبانية ... الخ ولكننا نشك في ان هذه العوامل الاتفاقية التي تحدث صدفة في التاريخ كان بمستطاعها أن تغير مجراه العام .

وبعد هزيمة جان والبرتغاليين اخضعت إيزابيلا انصارهم من النبلاء ولكنها لم تقض عليهم قضاء مبرما فقد كانت تنقصها أسباب على ذلك . فاكتفت بقطع رؤوس بعض صغار الاعوان وبنكب بعض كبارهم ومن هؤلاء كبير الاساقفة كاريللو الذي كان يريد أن يعيد إيزابيلا الى مغزلها . فكان أن تحول النبلاء جميعا ، انصار جان السابقين او انصار الملكين الشابين الى أعوان في حاشية القصر .

وفي الوقت ذاته كانت إيزابيلا وفرديناند يعرفان كيف يعتمدان على القوى الشعبية فقد شجعا مثلا حركات عصيان انفجرت فوق اراض نبيل ظل مناوئا لهما وهو المركيز فيلينا ، فكان ان سقطت بعض اراضيه في حوزة الملكين .

كان الملكان الجديدان يظهران بمظهر المدافع عن التراث ـ ولم يكن ذلك خدعة ـ وكذلك بمظهر من يناوىء الارستقراطية الاقطاعية ـ وهذا امر يشك به تماما ولا يمكن الاخذ به بدون نقاش مفصل . ومهما كان

الأمر فقد كان هذا الابهام يخدم مصالح الملكين الكاثوليكيين . فبينما كانا يسعيان وراء سند طبقة النبلاء ، اذ كانا لا يستطيعان شيئا بدونها ، كانا يمثلان كذلك أمام اعين الفلاحين المستغلين ، وأمام المدن أملا في الخلاص . فقد كان يعول عليهما لانهاء غطرسة النبلاء الذين كانوا يحسبون منذ قرن ان كل شيء مباح لهم . وكان الناس يرون بهما ضمانا لنظام اجتماعي يولي اهتماما أكثر لمصالب الشعب ، وكان ينوه بقوة شعورهما بالعدالة .

ولقد عرف فرديناند وإيزابيللا كيف يجتذبان هذه الأحلام حول شخصيتهما ، واتخذا حيطتهما كي لا تخيب الظنون فيهما ، فكانا يجمعان هذه الآمال ويضمانها في خدمة مشروعهما(٢) .

د. محاكم التفتيش .

إن الحظوة التي كان يتمتع بها الملكان عند الشعب سوف يستخدمانها لصالحهما مستغلين في سبيل ذلك أدنا العصبيات الشعبية وأشنع اعتقادات الشعب الباطلة . وكان الملكان يرميان عصفورين بحجر واحد . فاول هدفيهما كان تعزيز سلطتهما بالتحالف مع جهاز الاكليروس بغية إصلاحه فيما بعد وكذلك إصلاح الجمعيات الرهبانية . وأما الهدف الثاني فكان التعاون مع جهاز الاكليروس لفرض الوحدة الدينية على مملكتيهما . وكانت هاتان المملكتان ، وحتى نهاية القرون الوسطى مملكتين تعيش فيهما الديانات الثلاثة .

لم تكن الحرب ضد البرتغال قد انتهت حين انشئت محاكم التفتيش عام ١٤٧٨ م بعد طلب قدّمه الملكان الشابان لحضرة البابا . وكان هدفها الأساسي اليهود الذين اعتنقوا المسيحية ظاهرا ولكنهم ظلوا على يهوديتهم في السر . ولكن لم تثر ثائرة محاكم التفتيش إلا في عام ١٤٨٠ م أي عقيب نهاية الحرب مباشرة وتحت رقابة سلطة الملكين السياسية الصارمة .

وعلى هذا فان طرد اليهود في عام ١٤٩٢ من اسبانيا لم يكن اذن امرا بدون سابقة فالارهاب الديني لم يتوقف إلا خلال فترة قصيرة من عام ١٤٨٣ والى عام ١٤٩٢ . وكانت فترة لازمة « للوحدة الوطنية » كي تنتصر على الاسلام بازالة آخر مملكة له في شبه الجزيرة الاسبانية .

إن تاريخ الأحداث على نحو ما قدمنا ذو دلالة . فهو يظهر خطة منسجمة وراسخة تشهد بدورها عن تصور حديث للدولة « المطلقة » لا مكان فيه لتسامح القرون الوسطى العملي ، فليست مظاهر هذا التصور الدينية المعروضة بالحاح إلا مذهبا عقائديا في خدمة السياسة .

ولذلك فان الحيلة لم تنطل على ماكيا فيللي ، كما انطلت على هؤلاء الذين يؤمنون باسطورة الملكين الكاثوليكيين ، والذين يعمل بعضهم في ايامنا هذه على دفع الفاتيكان على اعلان قداسة إيزابيلا القشطالية . فماكيا فيللي يطنب في كتابه الأمير(٤) بالحديث عن واقعية فرديناند السياسية والمجردة من الأخلاق (ان ماكيا فيللي يتجاهل ايزابيلا تماما ، وربما كان ذلك لأنها لم تكن معنية مباشرة بشؤون ايطاليا كما كان زوجها او ربما بداع من بغضه للنساء)(٥) .

هـ ـ عام ١٤٩٢ او الانتصارات الثلاثة :

إن الأحداث الثلاثة العظام التي تملأ هذا العام ذات عروة سياسية شديدة . فبعد ان استسلمت غرناطة اثر حرب دامت عشر سنوات شغلتها عمليات عسكرية ومباحثات ديبلوماسية ملتوية نصب الملكان امام اعينهما هدفين مزدوجين، اولهما كان يرمي الى طرد اليهود الذين يهددون وحدة المملكتين العقائدية وأما الثاني فكان يرمي الى الوصول الى بلاد الشرق الأقصى ، مصدر التوابل والذهب والأحجار الثمينة ، عن طريق مختصر .

ولم يكن الهدف الثاني يرمي الى شيء آخر . الذهب فقط .

كان الملكان في حيرة من امرهما بين قوم نجح كولومبو في اقناعهم بصواب أفكاره وبين آخرين كانوا يرون باستحالتها ، ولكن خزائن الملكين فارغة والملكان يتنفسان الصعداء بعد الحرب ، ويتمتعان بالحرية والسلام في دولة موحدة بالفعل (مؤقتا) .

ولكن لأنصار كولومبو حججا مقنعة .

ماذا عن كلفة الرحلة ؟.

إن لويس سانتانجل ، وهو أشبه بوزير دولة في مملكة ارغونه وامين مال منظمة سانتا هيرمانداد (الأخوة المقدسة) يلتزم بتسليف نصف الأموال اللازمة للايجار (مليون مرداوة) بينما يتدبر البحار شؤون النصف الثاني (سيستدين كولومبو جزءا من هذه الاموال من اصدقاء له في اشبيلية وجنوة ، ولكن الجزء الأكبر من المبلغ سيقدمه بيرازدي ، أحد رجال المصارف في فلورنسا) .

وماذا عن المراكب ؟.

ستزود مدينة بالوس الرحلة بمركبين ، وذلك عقابا لها لمخالفتها بعض شروط الاتفاق مع البرتغال .

وماذا عن مطالب كولومبو الباهظة ؟ فقد كان هذا يطالب بلقب اميرال مما يجعله في مرتبة واحدة مع دون فادريك عم الملك ويمنحه ميزات اقتصادية كبيرة مرتبطة باللقب ، وكان يطالب كذلك بان يصبح نائبا للملك وحاكما على كل الجزر والاراضي التي يكتشفها ، وكان يطالب كذلك بأن يكون له الحق بان يدعى دون كريستوبال كولون (أي ان يجعل اسمه اسبانيا .

وكان جواب أنصاره على هذه النقطة الاخيرة :

ـ فلندعه يحاول . فان اندثرت آثاره في البحر فخسارتنا محدودة . ولكن إن نجح فكسبنا اكبر بكثير من قيمة الرهان . وكذلك نكون قد عوضنا ما خسرناه امام البرتغال في افريقيا ...(٦)

و ـ الانتصارات التي تؤدي للمصائب :

لقد شهد عام ١٤٩٢ فعلا ولادة ما سيسمى بعد بضع عشرات من السنين الامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس . ولكن الدودة تلد مع الثمرة . بله دودات .

فلقد حولت محاكم التفتيش الكنيسة الى ابشع الوسائل ازهابا في خدمة الملكية المطلقة . وكان لانهيار اسبانيا في الميدانين السياسي والاجتماعي بعد عهد شارل كنت (١٥٠٠ ـ ١٥٥٨) نفس مظاهر التفسخ

البطيء المخجلة والمنفرة والتي تلاحظ في اسوأ مراحل الامبراطورية العثمانية انحطاطا .

لقد شيعت الحريات العتيقة الى مثواها الأخير بجنازة فاخرة .

فبينما كان نونيز (١٥٥٩ م) وكورتيز (١٤٨٥ – ١٥٤٧) م وبيزار (١٤٧٥ – ١٥٤١ م) ينصبون رايات قشطالة على السواحل الدارية وفي المكسيك والبيرو ، وبينما كان النفوذ الاسباني يسود اوروبا كلها ، وبينما كان خيال الاسبانيين يلوح امامهم بجنات الذهب في الايلدورادو ، وببطولات الفرسان الشجعان ، وبحلم الهيمنة على العالم كانت الحريات الاسبانية تغيب في صليل السلاح ، وتحت امطار من الذهب غزيرة ، وعلى ضوء المحارق المرعبة .

والسؤال المطروح الآن هو التالي : كيف نفسر ان المركزية لم تنجح حقا في توطين دعائمها في بلد ظهرت فيه الملكية المطلقة قبل ظهورها في بقية الدول الاقطاعية ، وعلى نحو غاية في الشراسة ؟

والحق فان الجواب ليس صعبا .

فحيثما ظهرت النظم الملكية العظمى في القرن السادس عشر الأوروبي كان ذلك على انقاض الطبقات الاقطاعية المتصارعة ، اي الارستقراطية والمدن . ولكن الملكية المطلقة في بقية الدول الأوروبية الكبرى كانت تظهر كمركز حضاري ، وكانت تحمل الوحدة الاجتماعية . وكانت الملكية المطلقة فيها مخبرا تختلط فيه مختلف العناصر الاجتماعية وتندمج فيه دمجا امكن معه للمدن أن تتخلى عن استقلالها الاداري ، او استقلالها الكامل الـذي كانت تتمتع به في القرون الوسـطى لتاخذ بنصيبها مـن تفوق البورجوازية العام ولتشارك بهيمنة المجتمع البورجوازي .

أما في اسبانيا ، فقد تم تقيض الأمر .

فلقد انحدرت الارستقراطية الى اسوأ مدارك الانحطاط دون ان تفقد شيئا من أشنع امتيازاتها ، بينما كانت المدن تفقد سلطتها التي ورثتها من القرون الوسطى ، دون ان تعوض عن ذلك باهمية حديثة .

وهكذا فان عبقرية الملكين الكاثوليكيين السياسية وعظمة احفادهما قد ظهرت ، بمنظور التاريخ على صـورة قصر نظر مرعب . فقد ادت جريمة طرد اليهود الى كوارث مباشرة او على مدى بعيد .

واما غزو امريكا نفسه ، فان كان من الصعب اعتباره جريمة دون الوقوع في خطل كبير فإنه ادى كذلك الى كوارث حقيقية واقعية .

ولكن ينبغي ان نلاحظ إن اسبانيا قد دفعت ثمن جرائمها الاستعمارية اكثر من ثلاثة قرون من التخلف الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ، نتيجة لم تكن بالحسبان للكنوز التي سرقتها في الهند الغربية ، والتي لم تغن إلا غنى عابرا بعض الطفيليين الاسبانيين قبل ان تمضي لتغذي اقتصاد اوروبا الشمالية . وبكلمة اخرى لتثري البورجوازية .

٢ ــ كريستوف كولومبو

ز ــ كريستوف كولومبو او دور الفرد في التاريخ :

لو كان انف كليوباترا اقصر بقليل ... إذن ...

ماذا .. لو ان كريستوف كولومبو لم يضع قدميه على الســاحل الامريكي عام ١٤٩٢ ؟ ... إذن لما كان وجه العالم قد تغير باقل مما تغير .. ربما كان تغييره قد طرأ متأخرا ولكنه كان سيتغير على نحو مماثل .

فان كان صحيحا أن لا شيء حتمي في التاريخ ، فانه من الصحيح كذلك ان تراكم بعض العوامل يقود الى اتجاه لا حيدة عنه ، وأنه يمكن تعديل بعض التفاصيل ، أو تغيير بعض الجزئيات ولكـن الاتجاه يبقى ضروريا والزاميا .

فلو لم يبحر كريستوف كولومبو في ذلك العام ١٤٩٢ ، فان التيارات البحرية والرياح كانت ستدفع بالضرورة ، في لحظة ما ، بعض المراكب البرتغالية التي تحاول اجتياز رأس الرجاء الصالح، حتى ساحل البرازيل الشرقي . ولكان الاستعمار اذن قد بدأ من هناك .

او ان دول شمال اوروبا ، على آثار صيادي المورة والحيتان كانت

ستصل الى لابرادور في شرق كندا كما كان الفيكنغ قد فعلوا في القرن العاشر أو القرن الحادي عشر ثم كانت تلك الدول تبلغ كندا ثم تهبط هبوطا تدريجيا ساحل أمريكا الشمالية الشرقي .

ان اوروبا الباحثة عن طريق نحو آسيا كانت « تكتشف » امريكا خلال السنوات العشرين الاولى من القرن السادس على ابعد تقدير .

ان الاساطير التي تمجد بكريستوف كولومبو فتجعل منه فارس بحار أو قديسا أو تلك التي تحط من شانه فتجعل منه عصاميا يكتشف امريكا بسبب جهله ، وبدون ان يدرك ماذا يفعل ، أو تجعل منه موظفا قديما عند شركات جنوه متعددة الجنسية » متعطشا للذهب او مريضا بالاعصاب او دمويا ... كلها سواء . فهي تقوم على جهل بالتاريخ ، وعلى خطأ بتاريخ الحوادث من الناحية النفسية . وكذلك فانها لعبة مرايا مشوهة تمثل مصالح لا علاقة لها بالحدث المؤسس نفسه .

ح ــ حجم الارض وبنية القارات

كان الاغريق القدماء قد اكتشفوا كروية الارض . وكان ايراتوسطين الاسكندراني (٢٨٤ ــ ١٩٢ ق.م) قد قدر محيط كرة الارض بـ ٣٧٨٠٠ كم وذلك بقياس قوس محيط الدائرة الارضية بين الاسكندرية وسيين (على مستوى اسوان حاليا) .

لم تحقق العرب من هذه المقاييس منذ القرن التاسع الميلادي منطلقين من نفس طريقة الحساب على اغلب الظن .

اما في اوروبا فقد ظل العلم بكروية الارض مجهولا مدة طويلة الا من عدد ضئيل من كبار العلماء ، ثم شاع بين الاوساط المتعلمة بفضل ترجمة ارسطو الى اللغات اللاتينية في القرن الثالث عشر على يد الدومينيكاني البير الكبير (١٢٠٠ ــ ١٢٨٠) وتلميذه توما الاكويني (١٢٢٥ ــ ١٢٧٤م)

ولكن المرجع الكبير في علم الفلك والكون في العصور الوسطى الاوروبية ونعني به كلود بطليموس الاسكندراني (١٦٧ م) كان بعيدا عن هذه الحسابات الصحيحة . فقد كان يقدر كروية الارض بـ (٣٢٠٠٠ كم) .

وأما اكبر المراجع اطلاقا في الفلسفة كما في العلوم ارسطو فقد كان يتخيل دون ان يلجأ الى الحساب ، كرة ارضية اصغر بكثير ، وفيها لا يفصل طرف آسيا الشرقي عن طرف اوروبا وافريقيا الغربيين الا « بحر محيط ضيق » .

ان مقدار سعة هذا البحر المحيط هي السؤال الاساسي المطروح على علماء القرن الخامس عشر الذي يشارف على نهايته . هذا السؤال يطرحه ارباب التجارة العالمية بعد ان اغلق العثمانيون امامهم طريق التوابل والمنتوجات الفاخرة الاسيوية في الشرق الاوسط .

وللاجابة على هذا السؤال كان على العلماء حل مشكلة حجم الارض والبت بمشكلة اتساع مجموع القارتين اوروبا واسيا . ولم يكن ذلك ممكنا باللجوء الى الرياضيات ولم يكن امام العلماء الا الاعتماد على تخمينات المسافرين ، وعلى ايام مسير قوافلهم ، واحيانا على معطيات الملاحة في البحر الاحمر وفي المحيط الهندي ، وكانت معطيات خاطئة في اغلب الاحيان .

كان بطليموس قد قدر ، لاسباب تتعلق بالتوافق الهندسي ، ان مجموع القارتين يساوي نصف الكرة الارضية اي ١٨٠ درجة من محيط الارض . وكانت اغلبية العلماء تأخذ برأيه . ولكن هذا الراي كان يجعل من المستحيل عبور ١٨٠° بحرية في ظروف تلك الايام

الا . .

الا ان كانت على الطريق جزر تسمح بقطع الرحلة على مراحل .

والحال ان جغرافية القرون الوسطى كانت تملأ « بحر الظلمات » بجزر تسمح بذلك . جزر خرافية خلقتها الاساطير القديمة والاساطير المسيحية كجزيرة سانت براندان او كجزيرة المدن السبع او جزيرة برازيل . . الخ .

ط ـ تجارب وحلول برتغالية :

كان صعود نجم الامبراطورية العثمانية يؤذن بغياب شمس المدن

التجارية الايطالية فراحت جنوة وفلورنسا توجهان نشاطهما نحو الغرب الاوروبي وتكثفان جهودهما بشكل متواصل في الميدان المصرفي .

وكان ذلك يعني ان حانت ساعة البرتغال .

فمنذ بداية القرن كان البرتغاليون قد بدؤوا يعززون مراكزهم في المغرب الأقصى بفضل الحروب التي كانوا يشنونها باسم الصليب ضد المسلمين . ثم راح البرنس هنري (١٣٩٤ ــ ١٤٦٠) المعروف باسم الامير البحار ، متعللا بقدسية قضيته ، بنصب شبكة من المراكز البرتغالية على طول ساحل افريقيا الغربي . ثم بدا يقيم فيه وكالات تجارية دائمة تتجر بالتوابل وبالذهب وبالعبيد وتقضي في الوقت نفسه على طريق الاتجار البري الذي كان يسلكه عرب المغرب .

لقد كان لهذه الملاحة في المياه الافريقية اهمية عظيمة في الميادين العملية والعلمية والسياسية . فمن الناحية التطبيقية أمكنت هذه الملاحة من صنع مراكب لا تغوص كثيرا في الماء مما يمكنها من الابحار في الانهار او في الخلجان الصغيرة وكذلك من صنع مراكب ذات قلوع تساعد على الملاحة بعكس اتجاه الريح . وهي ما يطلق عليها اسم مراكب كرافيل .

اما من الناحية العلمية فلقد ساهم هذا النشاط البحري بتطوير الملاحة الفلكية . واما من الناحية السياسية فقد تمكنت البرتغال من انتزاع اعتراف باحتكارها لاكتشاف كل منطقة جنوب الاطلسي واستثمارها من البابا كاليست الثالث (١٤٥٦ م) ثم من خلفه وتمكنت من بعد من انتزاع اعتراف من الملكة ايزابيلا القشطالية بحق البرتغاليين في ذلك الاحتكار .

ولقد كان لتلك الملاحة نتائج اخرى .

فقد كانت الرياح الشمالية السائدة تجعل من السهل هبوط الساحل الافريقي باتجاه الجنوب ولكن من اجل العودة كان لا بد من الابحار بفضل الرياح الجنوبية الشرقية الى عرض البحر والاستفادة من الرياح الغربية السائدة هناك للوصول الى اوروبا . وهكذا اكتشف البرتغاليون أثناء طريقهم هذا ارخبيل ماديرا ثم جزر اكور . .

ولقد عزز اكتشاف هذه الجزر من ايمان الناس بأن الجزر التي كانت الاساطير تتحدث عنها لا بد موجودة ، ولكن على مسافة اعمق بقليل في البحر . وعليه فقد جرت محاولات عديدة لاكتشافها . فانطلقت بعض السفن من أبعد الجزر في عرض البحر - اي جزر اكور ، وابحرت بحثا عن تلك الجزر . ولكنها فشلت جميعا .

لان الرياح السائدة غير مؤاتية .

ولانه ... لا توجد جزر اخرى

وهـذا الإخفـاق سيقرر مستقبل المشاريع البرتغاليـة . فيعزم البرتغاليون على الوصول الى الهند بلد التوابل عن طريق الدوران حول افريقيـا .

ففي بداية القرن الخامس عشر لم يكن طرف افريقيا الجنوبي معروفا. كما ان بطليموس كان يجعله يمتد نحو الشرق حتى يلتقي بالقارة الآسيوية في شرقها الاقصى على مستوى خط الاستواء تقريبا . فكان ذلك يغلق المحيط الهندي ويجعله بحرا داخليا . ومن جهة اخرى كان الراي السائد آنذاك هو ان المنطقة الاستوائية ذات حرارة محرقة وبالتالي غير قابلة للسكن .

وها ان البرتغاليين يقتربون من تلك المنطقة رويدا رويدا .

وها هم يجتازون خط الاستواء عام ١٤٧١ م ، ويبلغون مصب نهر الكونغو عام ١٤٨٢ م .

وها هو بارتو لوميو دياز (١٤٥٠ - ١٥٠٠ م) يجتاز طرف القارة عام ١٤٨٧ والذي سيطلق عليه ملك البرتغال جان الثاني (١٤٥٥ - ١٤٩٥ م) اسم راس الرجاء الصالح .

الرجاء الصالح . تيمناً بالوصول قريبا الى بلاد الهند .

ولكن لن يتحقق الا بعد عشر سنوات .

ي ـ طريقة كولومبو وعلم البحار :

للبحار الذي يستقر به المطاف عام ١٤٧٦ م في البرتغال ، والمدعو كريستوف كولومبو او كولوم خمسة وعشرون عاما وله خبرة كبيرة وذكاء حاد ووقار ، ويمتطي ظهر البحر مذ بلغ من العمر اربعة عشر عاما . وصار قائدا لمركب وله عشرون عاما . وسيتباهى بأنه يعرف كيف يشق عباب البحر المتوسط في كل فصول السنة وتحت كل الانواء وسيقدم براهينه على ذلك . وعلى ما يبدو فقد كان على علم كبير في انشاء الخرائط وربما كان اصاب ذلك في الاراضي الكاتالونية حيث سبقت له الاقامة برفقة اخيه الصغير بارتولومي طيلة ثمانية اعوام .

وليس من شك أن ما يشده الى ليشبونه ، وما يربطه على سطح المراكب البرتغالية هي مسألة الطريق نحو الغرب . فها هو يذهب من ايسلندا الى حصن المينا على شواطىء غانا حاليا يدرس بعناية البحر المحيط الذي يشق عبابه الاوروبيون ويدرس خصوصا نظام الرياح فيه ثم يتزوج كولومبو من بنت أول حاكم لجزيرة بورتو سانتو ويذهب يقيم فيها بعض الوقت برفقة زوجته . وفي هذه الجزيرة سيرزق بابنه دييغو . وكعادته خلال رحلاته فوق المحيط الاطلسي سيلتقط خلال اقامته في بورتو سانتو ما تحمله الامواج من اخشاب عائمة بعضها قد عملت به يد الانسان دون أي اثر لآلات معدنية ، أو نباتات تجهلها سواحل العالم القديم الغربية ، أو جثثاً من اجناس مجهولة كذلك .

لقد كان من عادة ملك البرتغال الفونس الخامس ١٤٣٢ ـ ١٤٨١ وخليفته جان الثاني اللذين نهجا على منوال عمهما العظيم هنري الأفيزي ان يحسنا استقبال رجال البحر الشجعان المهرة وخصوصا إن كانوا ذي نصيب من الثقافة . وهكذا ستتوطد معرفة جان الثاني بكولومبو .

في تلك الايام لم تكن قد جرت العادة بعد على حفظ الاسرار الجغرافية الكونية . فما كان معروفا كانت تتقاسمه كل النخبة المثقفة الاوروبية . وما لم يكن كذلك كانت تتنازعه كل الآراء الموروثة عن القدماء وتناقضاتها . وقد يكون لهذا السبب ان امكن لكولومبو الاطلاع على رسالة بعث بها

العالم الفلورنسي توسكا نيللي الى الراهب البرتغالي مارتينز وفيها يؤكد ان المحيط « ضيق » حقاً وان ملاحته سهلة .

اي ان توسكا نيللي يؤيد فرضية ارسطو .

ك – تصور عن بنية العالم :

واثناء اقامته في ليشبونه يشتري كولومبو كتبا حديثة في علم الكون فيقرؤها ويعلق عليها وقد وصل الينا بعضها بفضل ابنه فيردناند وبفضل آخرين حفظوها . ان كتابا منها يثير اهتمام كولومبو على نحو خاص اذ يجد فيه كل ما كان معروفا عن العالم في بداية القرن الخامس عشر وهو كتاب صورة العالم لمؤلفه الكاردينال الفرنسي دبلي (١٣٥٠ – ١٤٢٠) وقد وضعه عام ١٤١٠ م وهو كتاب شامل لكل شيء : للصحيح وللخاطىء ، ولكل قارىء ان ياخذ منه ما يشاء وها كولومبو ينتقي بدوره . ولكنه لا ياخذ اخذاً عشوائياً وانما يختار من الكتاب ما يطابق ما كان قد لاحظه بأم عينيه .

فلو كانت المسافة بين اوروبا وآسيا ١٨٠° درجة بحرية حسب جغرافية بطليموس اي ستة عشر الف كيلو متراً لكان من المستحيل ان تصل اليه التفاهات التي جمعها .

وفي عام ١٤٨٤ كانت فكرة كولومبو قد اختمرت وتبلورت .

فمن كتاب دبلي كان قد حفظ ان هناك اراض ما تزال مجهولة لم تكتشف في شتى بقاع الكرة الارضية ؛ وان هناك قارة تشغل ، على اغلب الظن ، نصف الكرة الارضية الجنوبية « فتوازن » على هذا النحو القارة الآسيوية مثلها مثل افريقيا التي « توازن » أوروبا .

هذا التصور كان قريبا من تصور بطليموس لبنية العالم . وقد وصلت الينا خرائط تمثل تصور العالم هذا . ولكنه من الصحيح ان هذه الخرائط تجعل من هذه الكتلة القارية امتدادا شرقيا لافريقيا .

اذن لا بد من تصحيح هذه الخرائط . وصار تصحيحها امراً ملحاً خصوصاً بعد أن اجتاز بارتولوميو دياز راس الرجاء الصالح عام ١٤٨٧ .

وقد صححت هذه الاخطاء فعلا ، كما يشهد على ذلك مسطح جرمانوس او كرة مارتان بهايم (١٤٥٩ – ١٥٠٧) .

ولكن هذه التصحيحات ليست بتصحيحات كريستوف كولومبو . ويمكننا معرفة هذه الاخيرة بقراءة رسالته التي يتحدث فيها عن رحلته الثالثة (١٤٩٨) فيعلق عليها وعلى احتكاكه بامريكا الجنوبية .

وهذه التصحيحات لا تبرهن وحسب على أن كولومبو قد قرأ ماركو بولو (١٢٥٤ – ١٣٢٤ م) وانما تبرهن كذلك على انه قد اخذه على محمل الجد وهو أمر لم يفعله بهايم ولا جرمانوس . فماركو بولو قد عاد من الصين عن طريق البحر وفي شمال خط الاستواء إذن فآسيا قارة شمالية مثلها مثل أوروبا . وبما أن افريقيا قارة غربية ، اذن تبقى قارة مجهولة يجب اكتشافها ، او حسب تعبير البحار الذي سيصبح اميرالا للبحر : بر ارضي شاسع يجهله القدماء ، (١٤٩٨) .

ولنا أن نتساءل : لماذا كان يحدس أنها قارة ؟ ولماذا كان يحددها في هذا المكان ؟.

ليس فقط بغاية تبرير بطليموس ، او بغاية الحفاظ على « توازن » العالم كما كانت تتصوره القرون الوسطى ، وانما كذلك لأن كولومبو كان قد عثر في التوراة ، وكان لها من السلطة العلمية ما يعادل سلطة أرسطو أو يزيد ، في حكاية نبي متواضع ما لبث كولومبو ان جعله من كبار الانبياء واسمه ايسداريس أو عزرا أن ستة اقسام من اقسام الارض السبعة تطفو على وجه الماء .

إن هذه القناعات الاساسية تدفع كولومبو الى اختيارات اخرى . فهو يختار فرضية ان مجموع أوروبا وآسيا اكبر مما كان يفترضه بطليموس . أي أن كولومبو يختار فرضية جغرافي اسكندراني ، كبطليموس ، ولكن عاش في القرن الاول وهو ماران الصوري . وكان هذا يقدر المجموع بـ ٢٢٥ درجة ، وبما أن ماران كان أقل علما من ماركو بولو ، فان كولومبو يضيف ٢٨ درجة قيمة ما اكتشفه الاخير ثم يضيف ٣٠ درجة قيمة اليابان فيكون المجموع ٢٨٣ درجة .

وهنا يصيغ كولومبو مشروعه .

إن ذهبنا من جزر الكناري الواقعة على بعد ٩ درجات من طرف اوروبا ، فانه لا يبقى امامنا الا ٦٨ درجة يجب اجتيازها . اذن فالرحلة ممكنة ، بل هي سهلة إن بدأنا بقصد اليابان اكثر الاراضي الشرقية تقدماً في البحر .

ل ـ بيع الفكرة :

إننا نجهل لماذا رفض جان الثاني ملك البرتغال مقترحات كولومبو ، ولكننا نستطيع ان نخمن ثلاثة منها تداخلت وأثر بعضها في بعض .

أولا ـ تقدم البرتغاليين على السواحل الافريقية ، فقد كان هذا التغلغل قد بلغ عام ١٤٨٤ حداً صار معه من المتوقع الوصول قريبا الى طرف القارة الجنوبي ، ورغم طوله فقد كان ذلك طريقا مأمونا الى الهند ، وسيبرهن فاسكو دي غاما على صحة هذا الحدس في عام ١٤٩٧ حين يصل الى كاليكوت في الهند .

وثانيا ـ فان كل المحاولات التي كانت قد جرت للعثور على جزر في المحيط تسمح بقطعه على مراحل قد فشلت ، وفي عام ١٤٨٧ على سبيل المثال ابحر فرناو دولمو ، وهو فلندري الاصل في رحلة لمدة اربعين يوما ، ولكنه لم يرجع منها ، وكذلك فان اصرار كولومبو على وجود هذه الجزر لم يكن يرتكز على اي برهان ، وكان العلماء الذين في خدمة الملك جان الثاني ينكرون وجودها ويعتبرونها من صنع الخيال .

واخيرا فان مطالب كولومبو كانت على ما يبدو هي نفس الشروط الباهظة التي يعلق بها ذهابه والتي نجح فيما بعد بفرضها على ملكي إسبانيا .

بعد هذا الرفض البرتغالي قصد كولومبو قشطالة .

وظل هناك طيلة سبعة اعوام دون ان يحرز اي تقدم ودون ان ينجح بتغيير قناعة اللجنة العلمية التي شكلتها الملكة برئاسة عرافها الاسقف تالافيرا . فهذه اللجنة كانت تقطع باستحالة فرضية كولومبو .

لم ؟ ولأية اسباب ؟ إننا لا نعرف والحق يقال .

ربما بسبب تأثير بطليموس مرة اخرى . اي ليس بسبب تصور صحيح لبنية العالم وانما بسبب خطأ كل ما فيه انه يختلف عن خطأ البحار ، وكان هناك سبب آخر سيفصح عنه تالافيرا فيما بعد عام ١٤٩٢ بعد ان اتخذ القرار بالقيام بالرحلة . فالإسقف كان يرى بانه من المعصية أن يريد الانسان اجتياز الحدود التي اقامها الله لسكناه .

ومع ذلك فسينجح كولومبو بكسب عدد من كبار شخصيات المملكة لمشروعه ، ليس رهبان رابيدا أو دوقا مدينة سيدونه ومدينة سالي وحسب وانما لويس دو سانتا نجيل وزير دولة مملكة ارغونة وامين مال البوليس الديني والضرائبي والمسمى بالاخوة المقدسة . وكذلك رجال دين منهم دييغو دينيزا الدومينكاني مربي الامير ولي العهد .

ومهما يكن الامر فقد ظل مشروع كولومبو من آخر ما يهتم به الملكان . إذ كان كل اهتمام صاحبي مملكتي قشطالة وارغونة المتحدتين منصباً على استعادة غرناطة ، ولكن بعيد سقوط آخر مملكة عربية اسلامية في شبه الجزيرة الاسبانية طرحت امامهما قضية فتح طرق التجارة الكبيرة مع آسيا أمام عظمتهما الجديدة . ولكن كان قد سبق لهما أن قبلا باحتكار البرتغال للملاحة على الشواطىء الغربية الافريقية . اي كانا قد رضيا في حقيقة الامر باستحالة وصول الاسبانيين الى آسيا عن هذا الطريق .

وهنا ، واعتبارا من هذه اللحظة بدا مشروع كولومبو يثير اهتمامهما . فان كان يمكن اجتياز اقصر الطرق وهو المحيط فهذا يعني الوصول الى الهدف قبل البرتغاليين .

لقد قيل وأكثر القول بان كريستوف كولومبو قد شوه كثيرا مشروعه بأن جعل له اهدافا خرافية .

فان كان المقصود من ذلك مسالة ماركو بولو ، فقد أصاب كولومبو باخذه على محمل الجد . وان كان المقصود ما يتهم به كولومبو من أنه اراد بلوغ الفردوس الارضي ، فقد كان الرجل ، ومهما ذهبت الظنون

ببعضهم ، أفطن من أن يتهور على هذا النحو ، وبرهاننا على ذلك هو اتجاه رحلته الاولى . فقد ابحر قدما باتجاه خط عرض اليابان المزعوم وهو يحمل في جيبه رسالة للخان الكبير ملك الصين المنغولي قبل قرنين من الزمان وسيقوده هذا الطريق الى الابتعاد عن هذا البلد كلما حسب انه واصله .

وان كان المقصود ان كولومبو يذكر اراض ذهبية اي الاراضي الاستوائية حيث تغير الشمس بنية المعادن حسب كيمياء القرون الوسطى ، بأن العلوم الجغرافية في القرون الوسطى كذلك ، بل وحتى نهاية القرن الخامس عشر تحدد مكان الفردوس الارضي في هذه النقطة من الشرق . اذن فالوصول اليها هو الوصول اليه .

لقد كان ذكر قصر الطريق الذي يقود الى الذهب والى التوابل حجة حسنة لكسب القوم لمشروعه ، ولكن العقبة الحقيقية الوحيدة فعلا ، ان تغاضينا عن الامتيازات التي كان يطلبها لنفسه كانت الخوف من فقدان الاموال المستثمرة هباء . ويبدو ان كولومبو قد تغلب عليها بصورة نهائية حين زعم مخادعا بانه قد سبق له الذهاب الى هناك .

م ـ تناسق المشروع وتناسق صاحب المشروع :

إن كل من كتب عن كولومبو او يكتب عنه او اغلبيتهم يفيضون في وصف تناقضاته . ولكن أهناك رجل ذو قيمة ما لا يتجلى بتوافق تناقضاته ؟.

ان طرح هذه التناقضات على انها صفة شخصية مميزة يعني اننا لا نفهم جدليتها ، ويعني بخصوص كولومبو اننا لا نفهم البنية الفكرية لرجل عاش في عصر نستطيع ان نصفه بانه مرحلة انتقال حضاري ، وهو ما يصفه مادارياجا على نحو حسن بقوله : خطأ بتأريخ الحوادث من الناحية البسيكولوجية .

فحين يكتب ريجيس دوبريه مثلا ان كولومبو لا يرى الا ما يؤمن به فانه يغرق حتى اذنيه في خطأ تاريخ الحوادث هذا ، فان كان كولومبو

يسافر وفي زوادته عدد من قناعات عصره ، ومنها الايمان بان كائنات مخيفة تسكن تلك الاراضي المجهولة ، وهو ايمان سنلتقي به كثيرا ، وحتى نهاية القرن السادس عشر ، فان ما يستحق ان نقف عنده ليس ان كولومبو كان يؤمن بانه سيلاقي اول ما يلاقي تلك الكائنات المرعبة ، ولكنه قدرته على تصحيح الموروث .

ومن هذا القبيل نقد تزفتيان تودوروف الذي يوبخ كولومبو لانه كان يحاول التوفيق بين الآراء الموروثة وبين الاكتشافات . ان تودوروف لا يرى ان كل رحالة ذلك العصر وكل رساميه وكل جغرافييه كانوا يسلكون مثل كولومبو ، وانهم كانوا يعدلون خطوة خطوة صورة الارض ، وانهم لم يطرحوا نهائيا فكرة الارض الشمالية الا في نهاية القرن الثامن عشر .

ان خطأ تاريخ الحوادث من الناحية البسكولوجية يملأ كل كتاب تودرون فتحامريكا، ونقدهالعلاقة معالآخر يقومعلى معاييرالقرن العشرين. وهو لا يدرك جانب الغرابة في تطبيق هذه المعايير على رجال القرن الخامس عشر في حين انه يعبر عن دهشته لان رجال القرن الخامس عشر يطبقون معاييرهم على الهنود الامريكيين .

ولنضرب مثلا على ذلك .

ان تودروف يعتبر ان ارادة نشر المسيحية في اوساط هنود امريكا كانت تتناقض مع بنية استعبادهم . وهو في ذلك يعبر عن تصور معاصر للمسيحية لا نعتقد ان كثيرين يشاطرونه اياه حتى في ايامنا هذه . فكيف في تلك الايام . فان اعتبر مسيحيو القرون الوسطى او مسيحيو النهضة ان الناس سواسية امام الله فانهم ما كانوا يعتبرون ذلك متناقضا مع ايمانهم بخلود هرمية الطبقات الاجتماعية وبالتالي بتعذر الصعود من طبقة سفلى الى طبقة عليا .

وانه لمن السذاجة بمكان ان نستنتج ، بخلط الازمنة التاريخية والعقيدة الدينية ان الاستعباد كان يعني حيوانية العبد .

فان كان هناك تناقض ما فهو قائم في ذهن المؤرخ وليس في رأس كولومبو أو رأس معاصريه الاقربين .

وانه لمن المقطوع به اننا نستطيع ان نميز في فكر كريستوف كولومبو، ان درسناه بكليته ، صفات تنتمي الى القرون الوسطى واخرى تتطلع نحو القرون الحديثة ، وان هذه الصفات جميعاً تتجلى على نحو غاية في الوضـوح .

فعلى سبيل المثال كان كولومبو يؤمن بأن نهاية العالم وشيكة ، وانها ستقع بعد مئة وخمسين عاماً ؛ وان المسيح الدجال سيظهر خلال هـذه المدة ويهزم ؛ وان الانجيل سيعم العالم . ولهذه الاسباب يجب ان يستخدم الذهب الذي سيكتشف في الاراضي المجهولة لتحرير القدس من ايدي المسلمين .. اننا نجد كل هذا في يوميات رحلته الاولى .

هل في هذا تناقض مع مطالبه بأن يعين أميرالا ونائباً للملك وحاكماً للاراضي الجديدة ؛ وان يقبض عمولة كبيرة على كل الخيرات التي ستأتي من هذه الاراضي ؟ هل في هذا تناقض مع الاستبداد في السلطة ومحاباة الاقارب والاستعباد ؟

نعم بالنسبة لانسان القرن العشرين .

لا . بدون اي شك بالنسبة لابن تلك الايام .

ان شخصية كولومبو الحسية تلائم بين كل هذه العناصر تلاؤماً يؤدي الى تناسق مشروعه فتتضافر كل مظاهره في نهاية المطاف وتؤدي بكولومبو الى النجاح والى الشهرة ..

وهذا ما فهمه ارنست بلوك وعبر عنه كما لم يفعله احد من قبل . فيقول :

« ان كان من البدهي ان كولومبو ما كان ليجد مركباً يقوده الى عدنه لو لم تكن هناك غايات اقتصادية مضمرة لمهمتـه ؛ فانـه مـن البداهة كذلك ان هذه المهمة ما كان لها ان تتحقق لو لم يكن صاحبها مدفوعاً بهوس ديني وصوفي نحو تحقيق هدفه . ارض الذهب في جنة عدن وجنة

عدن في ارض الذهب . لقد اتحد هذان المظهران وانصهرا في شخص كولومبو على نحو فريد لم يعرف أبداً من قبل ، ولن يعرف ابداً . فصاحب الحلم الديني المدفوع بطوباويته يزود بالشجاعة اللازمة أمير البحر ، والرياح التي كانت تدفع بالمراكب دفعا فوق امواج الاطلسي المرعبة نحو جنة عدن ، لم تكن تهب فقط باتجاه الحلم الفاضل ، وانما كانت تجذبه اليه كذلك . فلولا الدافع الاقتصادي الجديد ، ولولا سحر عدن ذو الجاذبية الهائلة لظل ادباً ساذجا ، كما كان من قبل ، ما كان قد خمنه القدماء مرات عديدة ، وخلال قرون طويلة ، من وجود قارة اخرى .

ان الايمان بوجود الفردوس على الارض ، والايمان فقط هو الـذي اثار حماس المكتشف في نهاية المطاف ودفعه ، وهو على بصيرة تامـة من الأمر ، الى الشروع برحلته نحو الغرب »(٧) .

ن ـ رجل السياسة يقتل رجل الحلم .

ليس انسجام الفرد التاريخي الاصلي الا لحظة من تاريخ يقتلعه ، وإلا اداة في يد هذا التاريخ يستخدمها قبل ان يحطمها .

كان ينبغي ان يصبح هذا البحار المغامر والافاق والمهووس اميرالا كي يفتح امام اسبانيا ابواب الامبراطورية . كان ينبغي ان يلوح هذا الحالم بمملكة خالدة امام الناظرين باراضي نعيم ذات انهار من ذهب كي يبدأ استعمار جهنمي .

ولكن صحوة كولومبو الحاكم ونائب الملك كانت شديدة الايلام .

فهذا الحالم والمكتشف ذو النزعة الطوباوية لم يكن من اهل السياسة ولم يكن كذلك ، كما كان اخوه ، من أهل الفتح . وقد كان مكره مكر التاجر اكثر منه دهاء الرجل السياسي .

ولكن مأزق كولومبو الحاكم كان من الصعوبة بمكان بحيث لا نرى كيف كان لمكيافللي نفسه ان يتخلص منه . فقد كان يحكم مستعمرة يملؤها اوغاد يرمون عنهم سلطته الشديدة لانه غريب ، وفيها يعيش بين البؤس والامراض والجوع وخيبة الآمال من جهة واحساس بالقوة والحرية بعيداً عن كل ضابط اجتماعي من جهة اخرى . فراح كولومبو

ينزلق وراء تنازلات في غير وقتها ، وبعضها مهين جداً لشخصه ، أو وراء القسوة الظالمة ، وترك لنفسه العنان فارتكبت ما لا يتفق مع نظامه نفسه .

ان ما نشهده هنا ليس صراعاً بين متناقضات الانسان كولومبو . وانما هو صراع بين الواقع والحلم المثالي . ان عوامل التوسع الاوروبي الاقتصادية والسياسية والاجتماعية قد سحقت الفرد الذي كان يحمل حلماً فاضلا . وعلى اية حال ، فقد كان ذلك الحلم رجعياً لانه كان يعتمد على كشف الغيب وليس على النضال البشري .

وعليه فان كولومبو يبدو امام اعيننا كواحد من هؤلاء الذين يجعل منهم عصرهم قادرين على حل المعضلات المطروحة ولكنه يستغني عنهم حال تنفيذ مهمتهم ، لانهم بحسناتهم وبسيئاتهم ، يفرطون بالانتماء اليه ولهذا فان وجهة النظر التي تجعل من شخصية كهذه مسؤولة عما نتج عن الحادثة التي كانت اداة تحقيقها هي وجهة نظر تكشف عن عقلية متخلفة(٨) .

الحواشـي :

1 — Karl Marx, Oeuvres politique, trad. Moliter, t, VIII, « La révolution espagnole » P, 119, A. ‹ostes, 1931.

2 — Jaseph Pérez, Iso-belle et Ferdinand, rais eotholiques d'Espagne, P, 102, Fayard

(٣) المرجع السابق ص ١١١

(٤) كتاب الامير . مكيافللي فصل كيف يكسب الامير اعجاب الناس .

5 — B. Vincent. 1492, l'Année admirable. chap 1 'la redition de Grenade» Aubier.

6 — Christophe Colomb, la Découverte de l'Amerique, La découverte. T. 3 Ecrits et documents. 1492-1506».

(٧) المرجع الاول . ص ١٢٢ ـ ١٢٤ .

(٨) هذه ترجمة كاملة لمقالتين ظهرتا في مجلة Critiques Communites الفرنسية ظهرت الاولى في عدد نيسان وأيار عام ١٩٩٢ ، ويطابق في الترجمة القسم الأول حتى نهاية الفقرة (و) وظهرت الثانية في عدد حزيران وتموز من نفس العام وتطابق هنا القسم الذي يحمل عنوانا ثانويا « كريستوف كولومبو » ، واضفت انا تاريخ الاسماء او الحوادث المذكورة .

* * *

الدراسات والبحوث

الأدب وعلم النفس
شخصية جبران في ضوء التحليل النفسي

محمد عبد الرحمن يونس

الى اي مدى يمكن ان تدرس النصوص الادبية والفكرية تحت ضوء معطيات علم النفس التحليلي ؟ وهل يمكن تطبيق معطيات هذا العلم على النصوص الادبية ، بحيث تبدو هذه المعطيات اطاراً مرجعياً ، وحقلا ثقافياً ، يمكن من خلاله ان تفهم هذه النصوص؟. لكل نص ادبي سياقه الاجتماعي والتاريخي والانساني والثقافي ، ولا يمكن لنص ادبي ان يتشكل بعيداً عن هذا السياق .

- محمد عبد الرحمن يونس : باحث واديب ، له عدد من الدراسات في الدوريات العربية ، يعمل مدرسا في مركز اللغات بجامعة صنعاء .

ولكن لا يعني هذا أن يفقد النص خصوصيته المتشكلة من بنيته الداخلية ، وتركيبته النصية ، التي تتأثر حكماً بالبنى الخارجية التي ترافق عملية تشكيل النص وولادته . ان العمل الادبي وحدة كلية وشمولية يمكن النظر اليها من اكثر من زاوية ، وكلما تعددت هذه الزوايا ، أضيئت جوانب النص الخفية ، والبعيدة الغور". الى أي مدى يمكن فهم البنية الداخلية للخطاب الادبي ، وفقا لمفاهيم ومصطلحات علم النفس بشتى مدارسه وتوجهاته المختلفة ؟ . هذا ما تحاول أن تجيب عنه دراسة الأستاذ الدكتور كمال حسن وهبي المهمة لنصوص جبران خليل جبران ، والمعنونة بـ : وجه أمي ، وجه أمتي ، شخصية جبران الأدبية في ضوء التحليل النفسي ـ دراسة تحليلة(١) . يقسم الاستاذ وهبي كتابه الى الاقسام الآتية :

آ ـ شخصية جبران الادبية في ضوء التحليل المنفسي ويمهدللموضوع بمدخل في علاقة علم النفس بالأدب والسوسيولوجيا ـ ب ـ شخصية جبران النرجسية ـ متغيرات الشخصية ـ تعريف النرجسية ـ نمط الشخصية المضادة للمجتمع جـ ـ متغيرات شخصية جبران النرجسية د ـ التقمص الجبراني . ثم تأتي قائمة المصادر والمراجع . وتحت تمهيد في علاقة علم النفس بالأدب والسوسيولوجيا يثبت د. وهبي نص تون أ. فان ديجك الآتي :

« إن النصوص وسياقاتها هي مادة ابحاث وتدريس في أكثر من ميدان علمي ، علاوة على اللسانيات والادب تدرس النصوص كذلك في علم النفس وعلم الاجتماع والفلسفة والانتروبولوجيا واللاهوت وفي العلوم القانونية والتاريخية ، ومن البديهي ان ثمة جوانب اخرى كالنص هي التي تؤلف موضوع الدرس في مختلف الميادين ، يضاف الى هذا ان الاهتمام قد يتناول بعض نماذج النصوص او بعض الخصائص النوعية للسياق النفسي الاجتماعي غير انه بالامكان دراسة النصوص بصورة مشتركة بين عدة ميادين «Intertextualine» (٢) . ثم يقوم بتحديدطبيعة العلاقة القائمة بين علم النفس كعلم يمكن الاتكاء عليه لفهم النصوص ، وبين الأدب كمادة للدرس التحليلي .

ويعرف علم النفس قائلا : « إن علم النفس « السيكولوجيا » هو العلم الذي يبحث في الظواهر النفسية ، ويمكن تصور هذا العلم على وجهين : ١ — الوجه الاول هو أن ندرس الظواهر النفسية فنستخرج منها بعض النماذج العامة ، والوجه الثاني كشف القوانين العامة التي تخضع لها الظواهر النفسية ، وباختصار : السيكولوجيا تشمل جميع الانواع الخلقية والسجايا العامة ، لانها تبحث في الوظائف النفسية والافاعيل الذهنية وتتوخى كشف قوانينها العامة(٣) .

ويرى د. وهبي أن ثمة علاقة بين الادب والفلسفة ، فالادب في صلب الفلسفة التي هي « منبع العلوم » . اذ كثيرا ما كان الادباء يتناولون نفس الموضوعات التي تناولها الفيلسوف ، فكثيرا ما يفزع الفيلسوف الى مخيلته لتعينه على تصور الامور الماورائية على نحو ما نرى عند افلاطون والمتصوفة ، وقد عزا الفارابي الى المخيلة دورا عظيما فهي في نظره تتصل بالعقل الفعال ، وتستمد منه العلم بالامور الجليلة والكليات . والادب من جهة أخرى يعمد الى فكره ليصوغ آراءه وخواطره وحكمه والفرق بين أفكار الاديب والفيلسوف هو أنها عند الاول جزئية سطحية غير معللة ومفصلة وغير مترابطة ، بينما تكون عند الثاني شاملة معللة مترابطة عميقة صادرة عن التفكير اكثر مما هي وليدة التجربة والمعاناة ، والاديب ذو حس مرهف بالجمال ، أما الفيلسوف فيهتم بالحقيقة ، وباختصار أن الاديب والفيلسوف صاحبا نظرة ذاتية للوجود ، والفرق بين الاديب والفيلسوف هو ان الاول ينظر الى العالم بمنظار عاطفته وخياله بينما ينظر الثاني بمنظار عمله فقط »(٤) .

ليس شرطا أساسيا أن تكون أفكار الاديب جزئية سطحية وغير معللة ، في حين هي عند الفيلسوف شاملة صادرة عن التفكير ، فالتفكير كينية معرفية وتخيلية ، تستمد مقوماتها من كافة المعارف والعلوم بمختلف توجهاتها ، بالاضافة الى أن الحدود الفاصلة بين العلوم الانسانية قد تقلصت ، نتيجة تبادل التأثير والتأثر بين هذه العلوم ، وما عاد هناك علم من العلوم الانسانية مستقلا بذاته ، وبعيدا عن بقية العلوم الاخرى ، فالتداخل

بين الفلسفة والادب ، وعلم النفس والادب بلغ أوجه في الفترة الاخيرة. ان تطور الدراسات والابحاث الفلسفية والنفسية أثر على التوجهات الفكرية والابداعية والادبية الى التطور المذهل في بقية العلوم النظرية ومداخلاتها الابستيمولوجية مع الادب والفن ، جعلت أفكار الاديب تتخلى عن رؤيتها الجزئية والسطحية وغير المعللة التي أشار اليها الدكتور وهبي . وهنا يمكن القول : « إن الفلسفة في تاريخها الطويل ، طالما تاقت الى حل الالغاز من اجل حكمة تحيلها او تهدف الى الكشف عنها ، الا ان الادب في ابداعه المستمر قد ادى الى وضع الانسان في مناخ البحث عن حكمة أو العثور عليها جاهزة . واذا كان للفلسفة الصرف فضل رسم حدود الحكمة وتقنيتها ، فان الادب هو الذي وزع الحكمة دون ضوابط او قوانين او اوامر . انه الوسط الكيميائي الذي تنفلش فيه الحكمة لتصيب الناس في كل اتجاه »(٥) . ثم يتطرق الى ظهور نظرية المحاكاة في القرن الرابع قبل الميلاد ، التي صاغ مبادئها أفلاطون ومن ثم تلميذه أرسطو من بعده . ويرى ان الاداب القديمة هي أولى المدارس التي عالجت مكونات النفس البشرية ، فتراثها الفني يزخر بنماذج لشخصيات وعلاقات ظلت لاهميتها موضوع بحث وتحليل الى يومنا هذا وليس ابلغ من قدرة الاداب القديمة على سبرها غور النفس البشرية من اعتماد عقدة اوديب(٦)

اذا كان أوديب قد تزوج أمه «جوكاست» دون ان يعرفها ، ثم بعد ان عرفها سمل عينيه ، وقتلت « جوكاست » نفسها كما تقول أسطورة اوديب . فان البنية العامة للاسطورة وتوالي أحداثها والظرف الماورائية التي ساهمت في تشكيل بعدها النفسي والاجتماعي والانساني لا تشكل رؤية كونية او شاملة يمكن الاعتماد عليها لفهم النصوص الادبية ذاتها ، ولاعتماد المقولة الآتية التي أثبتها د. وهبي « ان في نفس كل انسان عقدة اوديب ، تعود الى عشق الطفل لامه ، وخصومة أبيه في سبيل هذا العشق »(٧) .

ان تقدم الدراسات النقدية واعتمادها على العلوم الحديثة كالسيمياء، واللسانيات ، ولسانيات الخطاب والسبرنتيك ، والتفكيكية تؤكد ان

الخطاب الادبي المتنامي بنية معقدة ومتداخلة مع بنى معرفية وسيكولوجية واجتماعية يمكنها ان تتجاوز الاطار المعرفي الضيق الذي تفرزه عقدة اوديب . إذ من غير المعقول ان تفهم الخطابات الادبية ذات الابعاد الجنسية وفقا لعقدة أوديب فقط ، لان دراسة العقدة نفسها ستحيلنا الى واقع تخيلي ، واسطوري ، قد يكون مجرد اسطورة .

فعلاقة أوديب مع « جوكاست » علاقة جد طبيعية في مجتمع يقوم على الغزو والسلب والحروب ، وما كان اوديب بقاتل لابيه « لايوس » ملك طيبة ، لو انه عرف ان الرجل ابوه ، والمرأة امه . حتى ان الدراسات النفسية العميقة كدراسات كارل يونغ ، واريك فروم ، وماري لويزا فون فرانس ، التي اتت بعد فرويد أثبتت عدم فاعلية عقدة اوديب ، والانطلاق منها لفهم طبيعة النصوص الادبية ، ذات الايحاءات الجنسية والعاطفية . وبالرغم من اهمية العلاقة بين الأدب وعلم النفس ، فان اعتماد فرويد على الأساطير القديمة ومصطلحاتها غير كاف لتحديدطبيعة علاقة الأدب بعلم النفس ، فهناك « زاوية اساسية هي المنهج الذي يستعمله كل من الاديب والعالم النفسي ، فالاديب الذي يحلل الظواهر النفسية في روايته لا يستطيع ان يبتعد عن الحياة ، ولا قيمة لتحليله النفسي من الوجهة الادبية الا اذا نسب هذه الحالات النفسية العامة الى شخص يدور حوله في وصفه واستقرائه . فابطال الروايات يمثلون امام اعيننا بثوب الحياة المختلف الالوان وجمال الرواية هو في المحافظة على هذه الألوان المتشخصة وبايجاز »(٨) .

ومن خلال آثار جبران خليل جبران التي تمتد على مدى ربع قرن من الزمان ، والتي تشمل : اول مقال له بعنوان « رؤيا » في جريدة المهاجر لامين غريب وكتاب الموسيقى (١٩٠٥) وعرائس المروج (١٩٠٦) والارواح المتمردة (١٩٠٨) ،والاجنحة المتكسرة (١٩١٢) ودمعة وابتسامة (١٩١٤) والمجنون (١٩١٢) ، والمواكب والسابق والعواصف والنبي (١٩٢٣) ، والتائه الذي صدر بعد وفاته ، وحديقة النبي (١٩٣٣) التي انجزته بربارة يونغ ، يصل د. وهبي الى استنتاج ميخائيل نعيمة حينما قال عن جبران خليل جبران : « تاه جبران طويلا في المتناقضات : مفازة

الخير والشر ، وقد خيل اليه وهو يلمس طريقه للافلات من قبضةالشر ان في استطاعته القضاء عليه بتوجيه ضربة محكمة الى « يافوخه » فضرب وضرب ، ولكن الشر ما برح يجول ويصول في الارض ، فلا الظلم باد . ولا الدعارة امحقت ولا الرياء شل عرشه ولا البشاعة بشتى وجوهها اندثرت ولا أصبح الحب والحق والحرية والجمال اسيادا مطلقين في قلوب الناس وأفكارهم فأين المخرج من المازق »(٩) . ولم يستطع جبران ان يجد خروجا من هذا المازق ، او ان يطرح بديلا جماليا عن مجتمع التناقضات ، المجتمع الغابوي بكل شساعته وامتداده . الا برفضه لهذا المجتمع ، والدعوة الى هدم بناه الفاسدة عن طريق التمرد على قوانين هذا المجتمع والثورة رومانسيا عليها ، « ولقد عبر جبران بنفسه عن كرهه للشرائع البشرية والسلطات والتقاليد والعادات السائدة ، بل تمرد عليه ودعا الى هدمها لانها لا تعبر عن كينونة الانسان ووجوده ، ولا عن جوهر الأديان وتعاليمها وخطاباتها « شخصية جبران ص ١٩ » .

ويعلل جبران خليل جبران الاسباب الجوهرية التي دفعته الى ان يتمرد على السلطة القائمة ، وتقاليدها وشرائعها قائلا : « لانني بعد استفسار نفسي وجدتها تكره الشرائع التي سنها البشر للبشر ، وتبغض التقاليد التي تركها الاحفاد وهذا البغض هو ثمرة محبتي للعاطفةالروحية المقدسة التي يجب ان تكون بدء كل شريعة على الأرض لأنها ظل الله في ارواح سكان هذا العالم لأن الميل الى الاستقلال الروحي هو من حياتنا بمنزلة القلب من الجسد »(١٠) .

واذا كان جبران فرديا مشغولا بقضاياه الخاصة ، قضايا امه وصديقته ، وذاته كذات انسانية فردية ترفض ان تتصالح مع البنيةالعامة السوسيولوجية لمجتمعه وعاداته واعرافه ، فانه في آن لم يكن منفصلا عن مجتمعه ، فوعي الذات وادراك ما تريده الذات من محيطها وواقعها، الاجتماعي ، هو في المحصلة وعي جمعي . إن رهافة المشاعر الرومانسية التي يمتاز بها جبران خليل جبران هي التي تدفعه لاختيارات وتوجهات تفارق وتتجاوز اختيارات أمته ومجتمعه ، فعن لبنان الحلم والمستقبل يقول :

« لكم لبنانكم ولي لبناني ــ لكم لبنانكم ومعضلاته ولي لبناني وجماله ــ لكم لبنانكم بكل ما فيه من الأغراض والمنازع ، ولي لبناني بما فيه من الاحلام والأماني . لكم لبنانكم فاقنعوا به ، ولي لبناني وأنا لا اقنع بغير المجرد المطلق . لبنانكم عقيدة سياسية تحاول حلها الايام ، أما لبناني فتلول تتعالى بهيبة وجلال نحو ازرقاق السماء »(١١) .

ويعلن د. وهبي في تناوله لنصوص جبران الأدبية انه يعتمد منهجا مغايرا لكافة المناهج التي تناولت أدب جبران ، اذ ركزت المناهج السابقة على تناول شخصية جبران بالعودة الى سيرته الشخصية ، وطفولته ووضعه الاجتماعي وعلاقاته الاولى ، والمحن والشدائد الاجتماعية والنفسية والضغوطات التي عصفت بشخصيته في صباه . ومن هذه الدراسات دراسة بربارا يونغ في كتابها « رجل من لبنان » ، ودراسة د. غسان خالد التي تناولت جبران الفيلسوف من خلال اظهار المناحي الفلسفية في فكره(١٢) . ودراسة د. غازي براكس الذي قدم بحثا قيما اذدرس جبران بناء للمنطق النفسي ، لكن دراسته لم تكن كاملة ، خاصة من حيث الكشف على الجوانب الحقيقية لشخصية جبران « ص ٢١ ــ ٢٢ » .

إن جوهر الخطاب النقدي الذي اعتمده د. كمال وهبي يعود الى مراجعة آثار جبران بالتمحيص والدراسة ثم الجمع فيما بينها « ضمن اطار منهج محدد يقوم على التحليل لمختلف نماذج ادبياته لاظهار التداعيات اللاشعورية التي تساقطت بقصد أو بغير قصد من الكاتب الأديب ، الى جانب انماط الهواجس المتواجدة في نصوصه ودراسة سيكولوجية الابداع الأدبي التي يتميز بها هذا الادب » ص ٢٢ .

ويرى الباحث وهبي ان نصوص جبران من خلال دراسة بنيتها اللغوية ، تبرز ظاهرة مهمة جدا وهي « هاجسية الام » إذ تظهر هذه الهاجسية جلية واضحة في بعض النصوص ومبهمة مطوية ضمن نصوص أخرى أو رمزية اذا صح التعبير بشكل تداعيات لاشعورية (ص٢٤ــ٢٥) .

ويستشهد د. وهبي على تضخم هذا الهاجس عند جبران ويجد

علاقة بينه وبين « عقدة اوديب » من خلال عدة نصوص جبرانية ، ثم يربط بين هذا « الهاجس » ، وبين حب جبران العميق للموسيقى ، وتكرار مفرداتها وآلاتها ، وأعلامها في كتابيه رمل وزبد والموسيقى . يقول جبران : « كرّموا يا سكان الارض كهنتها وكاهناتها وعيدوا الذكر خدامها وشيدوا لهم التماثيل . صلي أيتها الأمم وسلمي على أورفيوس وداوود والموصلي ، وعظمي ذكر بتهوفن وفاغنر وموزار ، وغني ياسوريا باسم شاكر الحلبي ويامصر باسم عبده الحمولي »(١٣) .

ويرى الباحث « أن تثبيت مفهوم الهاجسية بالأم والذي يلتئم في النهاية مع أعراض الكآبة والقلق كاشارات أساسية لمنهج يبدو واضحا في تلك النصوص وغيرها ، لان في اختيار جبران للموسيقى الكلاسيكية الشرقية وغيرها عند شعوب الحضارات الشرقية المختلفة يعود بداية الى شوقه للماضي الطفلي البعيد والى أحضان امه » ص ٢٧ . ومن خلال البنية التركيبية للاستعادات والمفردات في كتاب الموسيقى يرى د. وهبي أن عقدة أوديب كانت منطلقا للعصاب النرجسي بأعراضه المختلفة عند جبران . إن الام عند جبران هي الموضوع الاول لحبه ، ويوم تصير الام موضوعا للحب تكون عملية الكبت قد بدأت لدى الطفل ، ويكون من نتيجة هذه العملية حجب جزء من أهدافه الجنسية عن وعيه ، ويرتبط بهذا الاختيار الذي يتخذ من الام موضوعا جنسيا ، كل ما اكتسب تحت اسم عقدة أوديب(١٤) .

الى جانب شخصية الام في أدب جبران ، تظهر شخصيات انثوية اخرى وخاصة في روايته « الأجنحة المتكسرة » فسلمى كرامي رومانسية شفافة ورقيقة . وكانت سلمى تمثل الحب الاول في حياة جبران : «كنت في الثامنة عشرة عندما فتح الحب عيني بأشعته ولمس نفسي لأول مرة بأصابعه النارية ، وكانت سلمى المرأة الاولى التي أيقظت روحي بمحاسنها »(١٥) كان حب جبران لسلمى حبا متساميا بعيدا عن أية رغبة مادية جنسية ، وهنا تختلط صورة الحبيبة بصورة الام ، ويرى د. وهبي إن هذا الحب هو طور غريب من أطوار الحب (ص ٣٠) .

الا يمكن القول ان النظر الى الحبيبة الانثى نظرة عفة وطهر لهودليل على ضعف جنسي بيولوجي ، او تأخر في نمو الهرمونات الذكورية عند الرجل ؟.

ان وضع الحبيبة كقيمة جمالية سامية بعيدا عن اية رغبة في التواصل معها ، جزء من بنية رومانسية غلفت حياة جبران وفكره وسلوكه ، وهي في آن خوف من المرأة الجسد ، او ربما خلل في الغدد الصمم التي تتحكم في فرز الهرمانات الذكورية .

المرأة المثال عند جبران تلمس بالطهر وتفهم بالمحبة ، فهي قديسة ينبغي الابتعاد عن التعامل معهاجسديا ؛ هي صورة الام في نقائها وطهرها. يقول جبران : « إن المرأة التي تمنحها الآلهة جمال النفس مشفوعا بجمال الجسد هي حقيقة ظاهرة غامضة نفهمها بالمحبة ونلمسها بالطهر »(١٦) .

عندما تقترب الحبيبة بمواصفاتها الجمالية والانسانية من صورة الأم عند جبران ، تصبح هي الحلم ، وهي الينبوع والعطاء المتجدد ، يقول جبران : « انت تعلمين بانني احبك محبة الام وحدها ، وهي المحبة التي علمتني ان احميك حتى ومن نفسي — هي المحبة المطهرة بالنار »(١٧) .

و« الام هي كل شيء في هذه الحياة ، هي التعزية في الحزن والرجاء في اليأس ، والقوة في الضعف ، هي ينبوع الحنو والرأفة والشفقة والغفران فالذي يفقد امه يفقد صدرا يسند اليه رأسه ويدا تباركه ، وعينا تحرسه ، كل شيء في الطبيعة يرمز ويتكلم الامومة »(١٨) . إن نشأة جبران الرومانسية ، وحياة الريف بكل ما فيه من براءة ونقاء صفاء خلقت فيه حسا بالوحدة والتأمل ، وعمقت نظرته الى الحبيبة ، وكانت هي المعادل الموضوعي للأم الغائبة ، « فالشعور بالوحدة عند الكائن الانساني هو الذي يدفعه الى البحث عن الآخر ، وهو إما ان يبحث عن الآخر مستأنسا ودودا دافئا فيكون بحثه للخروج من وحدته حبا ، او أن يبحث عنه مستأسدا لدودا منفجرا ، فيكون بحثه للخروج من وحشته جنسيا . الجنس ينبع من الوحشة ويصب في الوحشة ، والحب ينبع من الوحدة ويصب في الانس والالفة »(١٩) . لكن د. وهبي يرى ان الوحدة

التي استأثرت على جانب كبير من نصوص جبران حيث تبرز احاسيسه وعواطفه وانفعالاته عبر سيكولوجية لغوية خاصة تميز بها جبران عن غيره من ادباء النهضة ومعاصريه من الكتاب والمفكرين ، هذه الوحدة هي احدى الاعراض الرئيسية في العصاب النرجسي (ص ٢٢) . لنعد قليلا الى مفهوم العصاب . يعرف احد اساتذة علم النفس العصاب قائلا : « إنه اضطراب في السلوك يظهر لدى الشخص فيؤذيه ، ويجرح صحته النفسية ، وكفايته الانتاجية ، وفائدته في المحيط الذي يعيش فيه ، من غير ان يجعله عاجزا عن الانتاج ، او عدوا للمجتمع ، ومن غير ان يجعل الصلة المثمرة بينه وبين المحيط حوله منقطعة »(٢٠) .

إذن العصاب هو شكل من اشكال سوء التكيف مع الوسط الاجتماعي والسياسي والانساني والثقافي الذي يعيش فيه الفرد . وهنا تبرز أهمية العصاب في كونه مشكلا ومولدا لنص أدبي وفكري ابداعي ، متباين عن بقية النصوص السائدة والمألوفة . وهنا ايضا تبرز الثنائية الحادة بين الذات « الانا » والموضوع « الـ نحن » . ولم يكن جبران خليل جبران متصالحا مع مجتمعه الذي يصفه بالرياء والنفاق الاجتماعي والسطوة والجبروت ، المجتمع الغابوي بكل امتداده . ولذا كان نصه نصا صداميا مع الواقع والمجتمع بكل بناه الفاسدة . وإذا كان العصاب شكلا من اشكال سوء التكيف الاجتماعي ، فان جل الادباء والفنانين والشعراء والرسامين قلما يستطيعون التكيف مع اوساطهم الاجتماعية ، وتأتي اعمالهم صدامية وفاضحة ومعرية للبنيات المتردية ، فهل هم مصابون بالعصاب ؟. إن من يعايش المجتمعات العربية في ترديها الحضاري والانساني والاجتماعي ، وفي كل لوثاتها الفكرية والارهابية سيصاب بالذهول ، وطبيعي ان يفقد ثقته في مستقبله وحاضره ، ويلجأ الى الوحدة والتأمل ، ومن ثم سيدخل اطار العقدة النفسية المسماة بالعصاب « Psycho - NNeurosis » .

يرى غوستاف كارل يونغ انه « من الناس من لهم امزجة خاصة تخلق لهم المشاكل ، وهؤلاء في الغالب اناس معصوبون « مصابون بالعصاب » ، لكن من سوء الفهم الخطير خلط هذه المشاكل بالعصاب ، فثمة فرق كبير بين الاثنين : المعصوب مريض لانه يجهل مشاكله ولا يعرف بها ، بينما

صاحب المزاج يعاني من مشاكل يعرفها ويشعر بها ، لكن دون ان يكون مريضــا »(٢١) .

لقد كان جبران خليل جبران يعي مشاكل مجتمعه ، ويعرف الأبعاد العميقة لخفاياه الـداخلية . وعبر ثقة عميقة بدور الفن والادب اعلن جبران رفضه لشرائع الناس ومجتمعهم، ومذاهبهم الدينية ، وادان رجال الدين باعتبارهم بـؤرة المرض الحقيقية في المجتمع ، ودعا الى اصلاح النفس واصلاح المجتمع والناس عبر رومانسية شفيفة تتمثل الفضيلة والحق والخير والجمال موقفا وقيمة . فالنفس الانسانية لا تصفو إلا بالحب ، هذا الحب الذي ملأ حياته سواء اكان حبه لامه او لصديقته او للناس البسطاء ، وهنا يتساءل :

الا يمكن القول إن جبران كان صاحب مزاج ، اكثر من كونه عصابياً .
إن دراسة د. وهبي رأت أن حب جبران هو حب مَرَضي ـ بفتح الميم والراء ـ وهو دليل على اضطراب شخصيته الادبية، وحبه في الظهور من خلال نصوصه الادبية ، ومبالغة جبران في هذا الحب ما هو إلا نوع من تضخيم الذات النرجسي التعويضي ، هذا ما حاول د. وهبي ان يوضحه من خلال الفصل الثاني من كتابه ، الفصل المعنون بـ : شخصية جبران النرجسية « متغيرات الشخصية » . يبدأ الفصل الثاني بمدخل بعنوان : تعريف النرجسية ، ثم عنوان آخر : نمط الشخصية المضادة للمجتمع ، ثم : متغيرات شخصية جبران النرجسية . لا يضع د. وهبي تعريفا واضحا للنرجسية ، لان علماء النفس اختلفوا في تحديد مفهوم النرجسية ، ومن هنـا كانت الصعوبة في ايجاد تعريف شامل ومحدد (ص ٤٨) . لكنه يميل الى مصطلحات سيجموند فرويد ، لتحديد مفهوم النرجسية باعتبارها نزوعا الى الايروسية الذاتية ، فالايروسية الذاتية هي النشاط الجنسي للمرحلة النرجسية في تثبيت الليبيدو . وهذه الشحنات الليبيدية اذا استمرت مع الفرد رغم تخطيه التطور الليبيدي الطفولي ـ المراحل الفمية والشرجية (القضيبية) والاوديبية .... فان الفرد عندئذ يتسم بحب الذات المرضي وهـو مـا يسـمى بالنرجسية الباتولوجية او المرضية ص ٤٨ ـ ٤٩ . (٢٢) .

ويرى الباحث ان جبران خليل جبران مصاب بتضخيم الذات النرجسي التعويضي . وشخصيته شخصية نرجسية مضطربة ، لأنه حاول دائما ان يظهر طموحه العالي وأهدافه المثالية العالية وظهوره بمظهر المرشد والمصلح الاجتماعي والواعظ ، بل لديه رغبة حادة في ان يكون موضوعا للاعجاب من قبل جميع الأدباء والمفكرين والمثقفين وكل الناس ، ولا يتقبل الاحباط والفشل ، والنقد الذي يظهر العيوب ، الى جانب نمط شخصيته العدائي لكل انماط السلطات في الحياة الاجتماعية (ص ٤٩) .

وتحت عنوان نمط الشخصية المضادة للمجتمع يعلل د. وهبي رفض جبران لشرائع البشر وتقاليدهم وقوانينهم بأنه ثمرة الضغوطات الاجتماعية والمحن والشدائد التي صادفها والتي تركت بدورها آثارا نفسية انعكست في كتاباته ومواضيعه الاجتماعية المختلفة فرفضه للواقع هو ذرع بل عمل وقائي لحماية نفسه من بيئته بكافة سلطاتها » (ص ٥٠) .

ويمكن تلخيص مظاهر هذا الرفض للسلطات الدينية بما يلي :

١ ـ كره جبران خليل جبران لرجال الدين المسيحي ، فالمطران شخصية دينية يأتلف في شخصه الطمع بالرياء والخبث والدهاء .

٢ ـ سرقة المطران لأموال الأرامل واليتامى وبسطاء القلب .

٣ ـ الرهبان يعظون الناس بالمحبة ، ولا يعرفون عنها شيئا . يقول عن الراهب : « كيف يستطيع ان يحدثنا حديث الألفة والحب ، في وقت لا يعرف به شيئا عنهما »(٢٣) .

٤ ـ عداوة رهبان الدير للناس البسطاء ، وابتزازهم لأموالهم عن طريق الرشوى .

٥ ـ ابتعاد الرهبان عن جوهر الدين الحقيقي ، وتمجيدهم للطقس الديني بالزخارف والذهب والبخور ، ولهيب الشموع .

٦ ـ ابتعاد الكنيسة عن جوهر الانجيل ورسالة السيد المسيح .

وبعد أن يدين كافة ممارسات سلطة الكنيسة ورهبانها يضع تصورة

الرؤيوي للدين منطلقا من بنيته الرومانسية الشفيفة التي تسم كافة أعماله الأدبية ، وبالتالي رؤيته للحياة والكون . يقول : « الدين هو الحرية بلا خوف وبلا وجل وبلا تسلط وبلا قهر ، إنه من اجل سعادة الانسان لا من اجل شقائه والتقرب من الله هو تقرب من الحرية الجميلة، بل هو تنزه عن المادة ، والحرية الروحية هي المقدمة الاولى لبلوغ السرور والسعادة »(٢٤) .

وبقدر ما كان جبران ينفر من شخصيات رجال الدين ، بقدر ما كان شغوفا بشخصية السيد المسيح وبرسالته السماوية السمحاء وتعاليمه. فالمسيح عليه السلام عنده رمز للمساواة والعدل والحق والخير والجمال بعكس رجال الدين والكنيسة التي حولت الدين عن مساره الانساني الصحيح ليصبح مجرد طقوس وترانيم وتهاليل ، تبتعد في بنيتها العميقة عن جوهر الرسالة السماوية في جانبها الروحي العظيم .

في حين : « ان الهدف الحقيقي من التعليم الديني بدءا من الحض على التخلص من (آدم القديم) رجوعا في الزمان الى طقوس الولادة الجديدة لدى الأقوام البدائية ، انما هو تحويل الكائن البشري الى انسان مستقبلي جديد، وتهيئة فرص الانقراض أمام أشكال الحياة القديمة»(٢٥). ولقد كان جبران مؤمنا بمستقبل الفقراء والمسحوقين عبر رؤية تفاؤلية بتحقيق العدل والمساواة ، انطلاقا من العدالة السماوية ، ومن تعاليم السيد المسيح. يقول جبران : «إن القوة التي زرعتها أيها الفقير واستغلها الغني القوي سوف تعود اليك لان الاشياء ترجع الى مصادرها بحكم الطبيعة ، والأسى الذي عانيته أيها الحزين ينقلب فرحا بحكم السماء ، سوف تتعلم الأجيال الآتية المساواة من الفقر والمحبة والأحزان »(٢٦) .

ونلاحظ ان د. وهبي يتخلى عن منهج التحليل النفسي احيانا ليتكىء على معطيات خطاب التحليل الايديولوجي احيانا اخرى « ص ٥٧ — ٥٨ — ٥٩ » .

لأن خطاب جبران الأدبي يمتح من نسق الايديولوجيا حينما يتعرض الى العلاقات الانسانية القائمة بين بني البشر ، والى الثنائيات الضدية

التي تتحكم في سياق هـذه العلاقات : الخير والشر ، العدل والظلم ، الجمال والقبح ، الفقراء والاغنياء ، السلطة الكهنوتية مقابل القرويين المساكين .. الخ .

وعموما يتميز الفنان او الأديب عن غيره بمدى حسه ورهافته بتشكيل المفردات والصور تشكيلا جماليا ، وبمدى رؤيته وقدرته على التخيل ، والتعامل مع الواقع ، واحداث خلل في بنياته ، وتكون هذه الرؤية ذات ابعاد انسانية وحضارية ، وهنا يبرز دور الفن والادب كمغير ومحرض وباحث عن بديل وافق أكثر اضاءة . وهنا لا يقل دور الناقد والمحلل للنصوص الادبية اهميـة عـن دور مبدع النص نفسـه ، لان تحليـل النصـوص يكشـف عـن خفايا النص الداخلية ، ويبرز العالم الجمالي ، وهيكلية هذا العالم ، الذي يقوم النص عليها . وفي احيان كثيرة يفوق النص النقدي النص الابداعي من حيث قدرته على طرح قضايا فكرية وجمالية ، تتعلق ببنية النص الابداعي نفسه على مسـتوى الاضاءة والتحليل والرؤية .

وتحت فصل بعنوان : متغيرات شخصية جبران النرجسية يرى الباحث أن نمط شخصية جبران هو نمط الشخصية النرجسية المتمردة المضادة المجتمع ، وتتصف هذه الشخصية بالغش والخداع مع نقص في مشاعر الذنب ، ومن صفاتهم النرجسية أيضا عدم احترام الآخرين والميل الى تمجيد انفسهم وتقدير ذواتهم والميل كذلك الى توضيح غرورهم للسلطة ، وتقليل قيمة الآباء غير القادرين على العطاء (ص ٦٨) .

ركزت دراسة د. وهبي على تقصي خصائص شخصية جبران على المستوى النفسي ، وعلاقة هذه الشخصية بوسطها الاجتماعي والانساني والسلطوي . وقد لاحظ د. وهبي نفور شخصية جبران من الشرائع والقوانين الدينية والسياسية والاجتماعية وتقليله من قيمتها واعتبارها قوانين جائرة ، غير انسانية . واعتبر د. وهبي أن الوحدة والاكتئاب في حياة جبران وشعوره بالكراهية للآخرين من قومه ومجتمعه ، ونكرانه لهم بعد ان تنكروا له هي اهم اعراض المرض النرجسي الذي رافق ابداع جبران ، وقد عمد الى دراسة الجانب السيكولوجي للغة في الخطاب الجبراني ، فرأى انه تعبير عن مضامين الوحدة والاكتئاب ص ٧٠ .

يقول جبران : « فلم أذهب الى البرية إلا وعدت منها كئيبا جاهلا أسباب الكآبة ، ولا نظرت مساء الى الغيوم الملونة بأشعة الشمس إلا وشعرت بانقباض متلف ينمو لجهلي معاني الانقباض »(٢٧) .

لاشك أن دراسة د. كمال وهبي تتميز بجهد علمي منظم ، أثبت من خلاله ثقافته الأكاديمية الواسعة وخبرته العميقة في تعامله مع معطيات دروس علم النفس التحليلي ، وتطبيقها على بنيات النص الأدبي

لكني أرى ـــ من وجهة نظر شخصية ولا أدعي أنني مصيب في ذلك ـــ أن اعتماد الخطاب النقدي على مفاهيم اجرائية مسبقة وموجهة ، سيضع هذا الخطاب أسيرا لهذه المفاهيم ،وبالتالي قد تغيب كثيرا من خصوصيات النص الأدبي كنص جمالي منفتح على حقول ثقافية مرجعية متعددة ونامية ؛ فكما ثبت أن التحليل الايديولوجي للنصوص الأدبية يفترض وجود خطاب « الأطروحة » المسبق ، وبالتالي يسمد المحلل نفسه الى فرض رؤيته الايديولوجية على النص نفسه ، فإن خطاب التحليل النفسي هو الآخر لا يستطيع التخلص من مفاهيم اجرائية مطروحة كنسق ابستيمولوجي سيفرض رؤيته على بنيات الخطاب الأدبي ، ويطوعها لصالحه .

لم يستطع جبران أن يتآلف والزيف الكامن في العلاقات البشرية ، والمآسي الانسانية ، حيث التفاوت الطبقي ودوره في تقزيم المضطهدين ، فركز على مآسي الفقراء كمآس فردية وجماعية تحت وطأة الحرمان والبؤس ، وتحت وطأة خطاب السلطة الكهنوتية والسياسية ودور هذه السلطة في افساد كافة العلاقات بين بني البشر . وعندما تفسد الأزمنة والأمكنة المحيطة بجبران ، بكل بنياتها الثقافية والسياسية والدينية والسلطوية ، فانه يلجأ الى الحب لخلق فضاء زماني ومكاني جديدين ، كبديل انساني لهذه الامكنة بالتسامي على بنية الزمان الفاسد ، والمكان المتلبد بالسواد والفواجع ، يؤنس جبران الحياة ويدعو الى المحبة والطهارة والفضيلة ، واذا لم يجدها فانه يلجأ الى الوحدة ، لكن د. وهبي يرى أن هذه الوحدة هي أولى أعراض المرض النرجسي ، فـ « عندما تفشل دفاعات الفرد بأن ذاته الحقيقية غير محبوبة تجعله منغلقا في وحدته لأن

الخوف من الرفض يقـوده الى الاصرار على الظهور بالمظهر الاجتماعي الكاذب وذلك لاستمرار الشعور بالفـراغ »(٢٨) . ويقول د. وهبي « وجبران خليل جبران يتميز بالاعلان عن الوحدة في أكثـر نصوصه : من مظاهر الوحدة هذه التي تمثل أولى اعراض النرجسية عنده ، حالة الاكتئاب والحزن وفقدان السعادة وبأنه منفصل عن الجماعة وعن كل البشر ومنعزلا بل منسحبا عنهم الى جانب شعوره بالغضب واتسامه بجنون العظمة الى جانب كونه هادئا ومتمعنا وحـذرا حينا وهائجا حينا آخر كما يظهر في كتابي المجنون والعواصف »ص ٧٠ .

وأمام احساس جبران بفساد الامكنة حوله ، يصبح المكان الحلم عنده هو الوطن السحري الخارج عن حدود الزمان والمكان ، إنه مكان تخيلي قصي لا يحد ، لكنه يظل مشبعا بالاماني والرؤى ، يشكله من خلال تأملاته ووحدته ، وشعوره بالغربة ، يقول :

« وفي الغربة وحدة قاسية ووحشة موجعة غير انها تجعلني افكر ابدا بوطـن سـحري لا اعرفه وتملأ احلامي باشباح ارض قصية ما رأتها عيني »(٢٩) .

حتى أن مفهوم الجنون عند جبران يرتبط بالوحدة ، فالجنون عنده يعني مزيدا من الحرية ، حرية الوحـدة والانفراد وصولا الى النجاة ، يقول : « هكذا صرت مجنونا ولكني قد وجـدت بجنوني هذه الحرية والنجاة ، من أن يـدرك الناس كياني لان الـذين يدركون كياننا إنما يستعبدون بعض ما فينا »(٣٠) .

وفي الفصل الأخير تحت عنوان التقمص الجبراني ، يعرض د. وهبي لمفهوم التقمص ويعرفه باعتباره مصدرا للفعل تقمص ، اي لبس القميص، وفاعل هذا الفعل هـو الروح أو العقل الفسال على حد قول ارسـطو طاليـس .

وفي مفهوم عقيدة التقمص أن الروح جوهر خالد وهي أزلية باقية أما الجسـد فهو قميصها الذي يبلى ويغرق فتستبدله عندئذ بقميص آخر تنتقل اليه،وفي اللغةالانكليزية يعبرعن التقمصبعبارة « Reincarnation »

و «Rebirth »، فالعبارة الاولى تعني ـ لغة وبالمعنى الضيق ـ التجلي ثانية ؛ لان تفسير عبارة « Incarnation » هو فعل الله عندما يجعل من نفسه بشرا وذلك بأن يجمع الطبيعة الالهية الى الطبيعة البشرية اي يتجسد ؛ أما العبارة الثانية فهي من كلمة (Birth) ومعناها الولادة (الولادة ثانية) . اما الناطقون بالفرنسية فيعبرون عن التقمص بعبارة (Métempsychose) بانها رحلة النفس من جسد الى جسد(٢١) . وعموما يرتبط مفهوم التقمص بشكل أو باخر بمفهوم التناسخ الذي يتقارب معه ويتباين في آن ، فاذا كانت فكرة التقمص تتحدد بانتقال الروح من جسد انساني الى جسد انساني اخر . فان التناسخ يصبح اكثر شمولية ، ليعني انتقال الروح من جسد انساني الى جسد انساني اخر قد يكون هذا الاخير اعلى مرتبة أو ادنى مرتبة من الجسد الانساني الاصل ، الذي انتقلت روحه بعد أن فني الى جسد اخر . ولمزيد من الايضاح نثبت التعريف الاتي :

« التناسخ في الفرنسية Métempsychose وفي الانكليزية Métempsychose وتناسخ الشيئان نسخ احدهما الاخر ، وتناسخوا الشيء تداولوه ، وتناسخت الازمنة تتابعت ، وفي الحديث ؛ لم تكن نبوة الا تناسخت اي تحولت من حال الى حال . والتناسخ انتقال النفس الناطقة من بدن الى بدن اخر من غير تخلل زمان ، بين تعلقها بالاول ، وتعلقها بالثاني ؛ للتعشق الذي بين الروح والجسد ، والتناسخ عقيدة شاعت بين الهنود وغيرهم من الامم القديمة مؤداها ان روح الميت تنتقل الى موجود اعلى أو ادنى لتنعم او تعذب جزاء على سلوك صاحبها الذي مات . ومعنى ذلك عندهم ان نفساواحدة تتناسخها ابدان مختلفة انسانية كانت ، او حيوانية او نباتية . والغرض من هذا التناسخ امتحان النفس حتى تكتسب بذلك ما ينقصها من الكمال ، وتصبح مجردة من التعلق بالابدان . واذا قيل ان من مقتضيات هذه العقيدة القول بخلود النفس قلنا ان انتقال النفس من بدن الى بدن لا يوجب خلودها اضطرارا ؛ لانها قد تنتقل من بدن اعلى الى بدن ادنى حتى تنتهي الى العدم . أو تنتقل من بدن أدنى الى بدن اعلى حتى تفارق جميع الابدان ، وتتحد بحقيقة روحية كلية تفقد معها فرديتها »(٢٢) .

ويرى د. وهبي ان جبران خليل جبران كان يعتقد بالتقمص ،ويظهر اعتقاده من خلال نصوصه المبثوثة في كتبه : عرائس المروج ، والمجنون ، والبدائع والطرائف ، ففي مدينة الشمس (بعلبك) نجد أن ناثان ابن الكاهن حيرام يعود الى الحياة الثانية من خلال التقمص اذ انه بعد تبدل الزمن ، ومرور الاجيال يتمثل في شخصية الراعي علي الحسيني الذي اشرق الحب في نفسه .... انها دورة الحياة التي يقول بها أصحاب مذهب التقمص ص (١٠٢ ــ ١٠٣) ، ويلجأ جبران الى استعمال الرقم (سبعة) في نصوصه باعتباره رقما مقدسا ورد في التوراة والانجيل والقرآن الكريم ، ودلالته عند جبران ان الانسان يولد ويموت سبع مرات (ص ١٠٤).

والطريق الثاني الذي سلكه جبران هو التصوف باعتباره طريقا للتحقيق الروحاني وبلوغ مقام الولاية والعرفان ، ولذا فهو يشكل جانبا جوهريا من الوحي الاسلامي ص (١٠٤) .

يعرف م. روزنتال و ب. يودين التصوف : Mysticisme ; Mysticism بأنه نظرة دينية ــ مثالية للعالم ــ ويرجع أصل التصوف الى الطقوس السرية (الاسرار) التي كانت تؤديها الجمعيات الدينية في الشرق والغرب قديما ، والصفة المتضمنة في هذه الطقوس هي الاتصال بين الانسان والله . والاتحاد بالله مفروض فيه أن يتحقق بالوجد او الكشف . وعناصر التصوف من الخصائص الموجودة في عديد من العقائد الفلسفية الدينية القديمة مثل الكونفوشيه والبراهمانية والاورفية والفيثاغورية والافلاطونية ، والافلاطونية الجديدة ... ويعتبر الفلاسفة المتصوفون الكشف ، وهو نوع من الحدس الصوفي ، اسمى شكل للمعرفة ، فيه يتم ادراك الشخص للوجود بشكل مباشر(٢٣)

ويتضح اسلوب جبران الصوفي في قصة له بعنوان (ارم ذات العماد) اذ يبرز في النص ثلاث شخصيات هي زين العابدين النهاوندي ، ونجيب رحمة وآمنة العلوية(٢٤) .

ونلاحظ من خلال حوار هذه الشخصيات كيف يجسد جبران الفكر

الصوفي ، بمفرداته ولغته الخاصة ، ومفاهيمه حول المعرفة ، والتشوق والاشراق ، والمجرد ، والظاهر ، والبقاء والخلود ، والتصور المعرفي .الخ

مع ملاحظة ان حوار هذه الشخصيات في بنيته العميقة هو دعوة الى المحبة ، ونبذ الفكر الطائفي ، وبالتالي التآخي بين المذاهب الدينية في لبنان والعالم العربي ، ف « دلالات هذه الحوارات التي ابتدعها جبران انها تخدم مجتمعه المتعدد الطوائف والمذاهب ، لذلك اراد ان يجرد مجتمعه من داء التعصب الديني وتعددية المذاهب والاديان ... اراد ان يقوض دعائم افكاره الدينية التقليدية باضفاء وحدة الاديان انطلاقا من وحدة الايمان والمعتقد اي وحدة الله الى وحدة الكون والوجود » ص ١٠٩ ان نزوع جبران نحو الفكر الصوفي جزء من بنيته النفسية العميقة فجبران كان يحب السيد المسيح حبا ملأ عليه حياته وادبه ، وهو جزء من بنيته الرومانسية ، ودعوته الاصلاحية ، لاصلاح الدين والمجتمع والنفس الانسانية ، ويرى د. وهبي « ان النزوع نحو الافكار الصوفية والباطنية له اسباب نفسية واجتماعية ، وبالدرجة الاولى هو صراع المثقف مع سلطات المجتمع ، ومن قال ان الموضوعات الادبية هي خيال فقط منقطع عن جسد الارض او غيمة منقطعة عن السماء عن الارض ! ... الا يعرفون ان الخيال هو ظل الواقع على الارض ؟ . اذ ليس هناك من ابداع ادبي خارج موقف سياسي واجتماعي ، حتى وان عبر عنه من خلال زاوية الرؤيا الذاتية » ص ١١١ .

ان الموقف الصوفي كبنية دينية تعمل بفعل مؤثراتها العميقة في النفس البشرية ، هو محاولة لاستحضار البنيات الجمالية ، فاذا كان المكان الذي يحاصر الصوفي مكانا قاتما وتضيق الرؤية فيه ، ويتحد الخيال ، فان النزعة الصوفية هي انطلاق نحو مزيد من الافق المفتوح والحرية والانخطاف . والصوفي قدرة عجيبة على التخيل والحدس ، وتمثل حالات الانخطاف والوجد في اعلى مراحلها . قد يكون للصوفي موقف خطير من السلطات الاجتماعية والسياسية ، وهذا هو الأغلب . وعموما تثبت الدراسات التاريخية ان اصحاب النزعة الصوفية هم الد اعداء

السلطان ، من السهروردي ومحي الدين بن عربي ، الى الحلاج ، وأذكر ان صوفياً قال قديماً : « اذا رأيت عالما يلوذ بباب سلطان فاعلم انه لص»

ان نزعة جبران نحو التصوف الاسلامي تعني مزيدا من الحرية ، ومزيدا من رفض سلطات مجتمعه ، ومزيدا من الدعوة الى الحب بين المذاهب . ويربط د. وهبي بين بنية حكايات المتصوفة وبين بنية الاساطير والمعتقدات والقصص : « وفي هذا المجال يأخذ المتصوفة في حكاياهم سائر ما نجده في التراث الشعبي من أساطير ومعتقدات وقصص ، تجر التمنيات السحرية والتخيلات الى خلق ظاهرة (الهاتف) والصوت الخفي الهادف لازالة الخوف ــ او للمساعدة في محنة ، أو للارشاد الى قضية وحل ، وكان النموذج للهاتف ، وهو صورة أخرى للرؤيا ، هو كون الصوفي تحقيقا لرغبة في تمثل النبوءة أو معالجتها وتخطيها ، وبإيجاز : الهاتف خاص بالصوفي ويميزه ، ويجعله متفوقا ويمتص به ما ينسب من ميزات رفيعة للانبياء المعروفين : انه هلوسة أو ظن ، او ضعف في الاحاسيس ينجم عن التخيل والاجهاد ، كما قد يكون أيضا صدى نفسيا لاعتقاد متين بتفوق ذاتي كاذب ، ولشعور حاد بالنرجسية وعبادة الانا المتضخم مرضيا »(٣٥) . وعموما يبقى الموقف الصوفي موقفا دينيا وموقفا رؤيويا ، يحاول الصوفي من خلاله أن يتلمس خيط العلاقة القائمة بينه وبين الاله ، قد يكون موقفا نرجسيا ، لكنه بالنسبة للصوفي حل جمالي يساعده على تخطي احساسه بالفاجع والقتامة التي تحاصره من داخل بنية مكانه السياسي والاجتماعي . وهو في النهاية موقف دني :

« وحتى لو صح ان الموقف الديني موقف طفولة ، فمن الجائز جدا ان يكون هذا احسن موقف ، بل ربما كان الموقف الوحيد الذي يمكننا أن نتخذه عندما تواجهنا معضلات الوجود المجهولة »(٣٦) .

ان كتاب د. كمال وهبي : شخصية جبران الادبية في ضوء التحليل النفسي ، الذي حاولت أن أعرض له في هذه الدراسة ، يبقى عملا اكاديميا مهماً ، اذ أضاء كثيرا من نصوص جبران ، بالتحليل والدراسة وفق معطيات علم النفس التحليلي ، فقد اتخذ الباحث منهج الدراسة

النفسية ، واستفاد من بعض معطيات المنهج الايديولوجي ، وبالرغم من الكتب الكثيرة والدراسات العميقة التي تناولت ادب جبران وحياته ، فان هذا الادب يظل بحاجة الى مزيد من الدراسات الجادة التي تكشف عن خفاياه ، وبنياته الداخلية ، ووفقاً لاكثر من منهج. ودراسة د. كمال وهبي واحدة من هذه الدراسات التي يحتاج اليها متذوقو ادب جبران الانساني ، ومن الملاحظ ان المصطلح النفسي في تعامله مع النص الادبي وفق عملية نقدية تحليلية ، يبدو احيانا غامضا لكثير من القراء ، خاصة ان الباحث لم يضع معجما للمصطلحات النفسية التي استخدمها كما تفعل معظم الدراسات النفسية .

ان وجود هذا المعجم ضروري جدا للقارىء والدارس الادبي ، فثمة الكثير من القرىء والنقاد والدارسين لا يستطيعون فك استغلاقات المصطلح النفسي باعتباره مصطلحا اكاديميا ، اعتاد على فهمه والتعامل معه علماء النفس ، واساتذة الفلسفة اكثر من غيرهم .

هوامش الدراسة ومراجعها :

(١) وجه امي ، وجه امتي ، شخصية جبران الادبية في ضوء التحليل النفسي ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الاولى ، ١٩٩١ .

(٢) مجلة العرب والفكر العالمي ، مركز الانماء القومي ، باريس ، شتاء ١٩٨٩ ، ص ٦٣ — ٦٤.

(٣) عن د. جميل صليبا ، علم النفس ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٢ ، ص ٦٢ — ٦٣.

(٤) د. وهبي ، وجه امي ، ص ٧ — ٨ .

(٥) وليد اخلاصي ، التعة الاخيرة ، دار طلاس ، دمشق ، الطبعة الاولى ، ١٩٨٦ ، ص ١٢٣.

(٦) د. وهبي ، وجه امي ، ص ٩ .

وأيضا رينيه ويليك ، اوستن وارين ، نظرية الادب ، ترجمة محي الدين صبحي ، ومراجعة د. حسام الخطيب ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ص ٨٣ .

←

(٧) د. اسحق رمزي ، علم النفس الفردي ، دار المعارف بمصر ١٩٦١ ، ص ٣٩ ، وايضا د. وهبي ص ١٠ .

(٨) وجه امي ، وجه امتي ، ص ١١ ، وجميع الشواهد المأخوذة من الكتاب ستوضع في متن الدراسة بعد الآن .

(٩) ميخائيل نعيمة ، المجلة التربوية ، المركز التربوي للبحوث والانماء ، سن الفيل ، طباعة المركز ، العدد الثاني ، عدد خاص بجبران خليل جبران ، بيروت ١٩٨٢ ، ص ٨ — ٩ .

(١٠) جبران خليل جبران ، رسائل حب ، المجموعة الكاملة ترجمها واختارها وحققها اميل خليل بيدس ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، طبعة ١٩٨٢ ، ص ١٢ .

(١١) نستخدم احيانا طبعات لدور نشر مغايرة لتلك الطبعات التي استخدمها د. كمال وهبي ، البدائع والطرائف ، من المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران ، قدم لها ونسقها ميخائيل نعيمة ، دار صادر بيروت ، دون رقم الطبعة ، ودون تاريخها ، ص ٥٢٠ .

(١٢) د. غسان خالد ، جبران في شخصيته وادبه ، مؤسسة نوفل ، بيروت ، الطبعة الاولى ، ١٩٨٣ .

(١٣) الموسيقى ، ص ٥٧ — ٥٨ — ٨٦٠٠٠ .

(١٤) سيجموند فرويد ، النظرية العامة للامراض العصابية ، ترجمة جورج طرابيشي ، دار الطليعة ، بيروت ، طبعة ١٩٨٦ ، ص ١١٣ .

(١٥) الاجنحة المتكسرة ، ص ٢٧ . و د. وهبي ص ٣٠ .

(١٦) الاجنحة المتكسرة ، ص ١٠١ .

(١٧) نفسه ، ص ٧١ .

(١٨) نفسه ، ص ٧٠ .

(١٩) محي الدين صبحي ، الادب والموقف القومي ، دار الانوار للطباعة والنشر ، دمشق ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٦ ، ص ٢١٨ .

(٢٠) نعيم الرفاعي ، الصحة النفسية ، دراسة في سيكولوجية التكيف ، مطبعة رياض ، دمشق ، طبعة ١٩٨٢ ، ص ٢٦١ .

←

(٢١) ك. غ. يونغ ، دروس في علم النفس التحليلي ، ترجمة نهاد خياطة ، مجلة المعرفة ، دمشق ، العددان ٢٩٨ ــ ٢٩٩ ، ديسمبر ، يناير ١٩٨٦ ، ١٩٨٧ ، ص ١٢٧ .

(٢٢) وأيضا ، د. عبد الرقيب أحمد البحيري ، الشخصية النرجسية ، دراسة في ضوء التحليل النفسي ، دار المعارف بمصر ، ١٩٨٧ ، ص ١٨ .

(٢٣) التائه ، ص ١٠ .

(٢٤) جبران خليل جبران ، يسوع ابن الانسان ، ص ٣٠ ــ ٣١ .

(٢٥) ك. غ. يونغ ، مجلة المعرفة ، مرجع مذكور ، ص ١٢٨ .

(٢٦) جبران خليل جبران ، دمعة وابتسامة ، ص ١١٢ ــ ١١٣ .

(٢٧) جبران ، مناجاة أرواح ، ص ١١ ــ ١٢ .

(٢٨) د. عبد الرقيب البحيري ، مرجع مذكور ، ص ٧٤ ــ ٧٥ .

(٢٩) جبران ، كلمات ، ص ٤٨ .

(٣٠) المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران المعربة عن الانكليزية ، تعريب الارشمندريت انطونيوس بشير ، دار صادر ، بيروت ، دون تاريخ ، ص ٩ .

(٣١) د. وهبي ، ص ١١٤ ، عن أمين طليع ، التقمص ، منشورات عويدات ، بيروت ، باريس ، طبعة ١٩٨٠ ، ص ١١ ــ ١٢ .

(٣٢) د. جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، الجزء الاول ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، طبعة ١٩٨٢ ، ص ٣٤٦ ــ ٣٤٧ .

(٣٣) م. روزنتال ، يب. يودين ، الموسوعة الفلسفية ، ترجمة سمير كرم ، دار الطليعة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة السادسة ، اكتوبر ١٩٨٧ ، ص ١٢٨ .

(٣٤) جبران ، البدائع والطرائف ، ص ١١١ ــ ١١٢ .

(٣٥) د. وهبي ، ص ١١٢ ــ ١١٣ ، عن د. علي زيعور ، التحليل النفسي والاناسي للذات العربية : الكرامة والصوفية ، والاسطورة والحلم ، دار الاندلس ، بيروت ، ١٩٨٤ ، ص ١٣١ ــ ١٣٢ .

(٣٦) سيرل برت ، علم النفس الديني ، دار دمشق للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، دون تاريخ ، ص ٩ . والمزيد من الايضاح يراجع الفصل الاول ، من ص ٢ الى ص ١٥ .

* * *

الدراسات والبحوث

مابعد البنيويّة
حول مفهوم التناص

د. شكري الماضي

١ ـ إضاءة :

شغل النقد الادبي عبر تاريخه الطويل بالاجابة عن اسئلة هامة تتصل بمصدر النص وماهيته وتفاعلاته الذاتية والموضوعية وكيفية تناول النص الادبي، وسبل إصدار الحكم النقدي ... الخ ويبدو ان الانجازات التي تمت في هذا المجال غير ذات معنى بالنسبة للنقد الجديد .

ـ د. شكري الماضي : باحث واديب ، عميد مركز اللغات بجامعة صنعاء ، له عدد من الابحاث في الدوريات العربية ، من اعماله « في نظرية الادب » ، « طه حسين » ، « اثر التحولات الاجتماعية في الرواية العربية الحديثة في سورية » .

فالنقد الجديد لا يعتني بالبحث عن اجابات بمقدار ما يهتم باثارة الاسئلة والتساؤلات التي تدور في معظمها حول « النص » . وتدور بعض أسئلة النقد الجديد حول أمور تبدو وكأنها بديهية او مسلم بها . ولكن من الهام أن نعرف أن النقد الجديد لا يعترف بوجود مسلمات او بديهيات في ميدان النقد .

فالنقد الجديد يهتم بسؤال محوري هو : ما النص الادبي ؟! وهو يقدم مفاهيم متعددة ، فالنص : جملة ـ كتاب ـ ممارسة دالة ـ جهاز لغوي ـ جهاز للنقل الالسني ـ شبكة من المعطيات الالسنية والبنيوية والايديولوجية ـ وعاء لدلالات متجددة ـ حيز لغوي متعدد المعاني ـ وحدة لغوية ـ وحدة بلاغية ـ حقل منهاجي ـ قطعة لغوية ذات طابع كلي ـ نسيج لغوي ـ النص الناجية (اي ليس منتَجاً) ـ ثم هناك النص الظاهر ، والنص المنجب ، والنص الجامع(١) .

وقد يقبل المرء بعض هذه المقولات كما قد يرفض بعضها او كلها . لكن الامر الهام هنا هو أن هذه الاسئلة وتلك المقولات جزء من المحاولات الحثيثة لعلمنة النص (علم النص) أو إرساء ما يسمى بنظرية النص!! .

ومن هذه الزاوية يبرز مفهوم جديد يتصل بالنص لا بد من الوقوف عنده والاعتناء بأبعاده وأصوله ، والاهتمام بالتحولات التي قد تتم من خلاله في ميدان النقد الادبي . وعلة هـذا كله انه مفهوم جديد تماما . [يعتبره البعض بمثابة نظرية جديدة] سواء بالفلسفة التي يستند اليها في رؤية النص وكيفية تشكله ، او بأبعاده الادبية والنقدية والفكرية ، او باستخدامه اداة تأويلية نقدية [مع انه يقر بأن من مقومات وجود النص قبوله لتأويلات متناقضة كما سنرى] قد تتحول الى اكثر من كونها اداة فيما لو أتيح لهذا المفهوم أن يستمر وينمى ويغذى بتطبيقات يغلب عليها طابع الابداع النقدي الحقيقي اكثر من الطابع النقدي التقني .

هذا المفهوم هو « التناص » « Intertextuality » ويبدو ان هناك اتفاقا يكاد ان يكون عاما بأن « التناص » كمصطلح قد ظهر للمرة الاولى على يد « جوليا كريستيفا » في أبحاث عديدة لها ظهرت بين عامي ١٩٦٦

و ١٩٦٧ في مجلتي «Tel-Quel» , «Critique» . (٢) . وهذا المصطلح بدا واسع الانتشار ـ رغم حداثته ـ لدى العديد من النقاد الاوربيين والامريكيين والعرب ايضا . بل إن نقادنا توسلوا به كصيغة معرفية نقدية في سبيل إرساء منهج نقدي جديد ، وهو ما استندت اليه ثلاث دراسات هامة : الاولى بعنوان « تحليل الخطاب الشعري ؛ استراتيجية التناص » للدكتور محمد مفتاح من المغرب العربي ، وقد صدرت عام ١٩٨٥ . والثانية بعنوان « الخطيئة والتكفير ؛ من البنيوية الى التشريحية ؛ قراءة نقدية لنموذج انساني معاصر » للدكتور عبد الله محمد الغذامي من السعودية وقد صدرت عام ١٩٨٥ ايضا . اما عنوان الثالثة فهو « في البحث عن لؤلؤة المستحيل ؛ دراسة لقصيدة امل دنقل : مقابلة خاصة مع ابن نوح » وهذه الدراسة تحمل عنوانا فرعيا آخر هو « مع فصل تمهيدي؛ نحو منهج علمي لدراسة النص الادبي » وهي للدكتور « سيد البحراوي » من مصر وقد صدرت عام ١٩٨٨ .

ومهما يكن نصيب هذه التجارب النقدية الهامة من النجاح فإن ذكرها هنا يأتي لتأكيد ما لهذا المفهوم من انتشار وإثراء . ولا شك أن القارىء المنصف لهذه التجارب النقدية سيحكم عليها بالجدية والذكاء . غير ان هذا يجب الا يمنعه من تأكيد التباين الكبير فيما بينها في استخدام مفهوم التناص . واحسب أن التباين في التطبيق يعود الى تمايز المنهجية في كل تجربة . فمفتاح ينهل من اللسانيات والسيميائيات ، والغذامي من البنيوية والتفكيكية اما البحراوي فيحاول تطويع المفهوم ليصبح اداة محورية في منهجه الاجتماعي .

وكل هذا يؤكد بأن مفهوم التناص يتضمن معاني متعددة كما قد يوحي بغموضه وتعقيده وشموليته ايضاً .

٢ ـ التناص :

ولتبديد بعض غموضه لا بد من الحديث عن بعض المفاهيم الجديدة حول النص والتمييز بين الاثر الأدبي والنص الادبي . وهنا يمكن القول بأن التناص مفهوم يطمح الى ترسيخ المحاولات الحثيثة لايجاد « علم

النص » . وهو علم جديد بلا شك لان موضوعه جديد وهو النص . فالفلسفات والعلوم السابقة تناولت النص ودرسته وتفحصته كوسيلة لتأكيد موضوعاتها ونظرياتها . ولكن النص هنا هو المادة الرئيسية لعلم النص . فالنص – كموضوع – لا ينسب بحال الى تلك الفلسفات والعلوم . وهو بهذا المعنى حقل منهجي ، ولا وجود له الا داخل خطاب / لغوي / مكتوب . واللغة (عكسَ ما تراه البنيوية) منظومة لا نهاية لها ولا مركز فالكلمة ليست مغلقة ولا مكتفية بذاتها بل هي مجموعة /حزمة من الكلمات والمفهومات المتعددة القابلة – ليس فقط – لاستعمالات عديدة بل للدخول ايضاً مع مفردات اخرى في تركيبات عنقودية لا نهاية لها . فاللغة الأدبية عموماً تحتل مكاناً خارج جميع اللغات الاخرى ، وانها تتعالى عليها كما لو انها حصيلة تلك اللغات والتركيب فيما بينها . لهذا فإنَّ ما يميز العمل الأدبي هو انه يقوم بما يمكن ان نطلق عليه « محاكاة اللغات » مما يتولد عن ذلك ان الادب او الرواية مثلا عندما تقدم نفسها ككتابة ادبية فإنها تنسخ الكتابة الادبية السابقة عليها . فالممارسة الأدبية ليست ممارسة تعبير وانعكاس وانما ممارسة محاكاة واستنساخ لا متناه (المحاكاة والنسخ ليس للاعمال والآثار وانما للغات) .

والنص يتميز عن الأثر الادبي ، النص نسيج من العلامات(٢) اما الأثر الأدبي فينحصر في المدلول . وهذا المدلول له نوعان من الدلالة : ظاهرة (وحينئذ يكون الأثر موضوعاً لعلم يهتم بالمعنى الحرفي كفقه اللغة) او مضمرة (وحينئذ ينبغي التنقيب عنه ويصبح الأثر موضوعاً لتاويل) . لكن النص – لكونه كتابة متعددة – فانه لا يقبل التنقيب او التأويل فهو لا يتطلب الا الفرز والتوضيح . فالنص تمددي ، مجاله هو مجال الدال . لكن التوليد الدائم للدال داخل مجال النص (او لنقل الذي مجاله النص) لا يتم وفق النمو العضوي او حسب طريق تاويلي ، وانما وفق حركة تسلسلية للتداخل والتغير . فالصورة المجازية للأثر توحي بصورة الكائن العضوي الذي ينمو بفعل التكاثر الحيوي ، اما الصورة المجازية للنص فتوحي بالشبكة . الاثر الأدبي (في افضل الأحوال) رمزي بدرجة وضيعة (رمزيته قصيرة النفس اي سرعان ما

تتوقف) اما النص فطاقته الرمزية مطلقة . لهذا فإن النص لا يمكن ان يكون هو ذاته الا في اختلافه (الأمر الذي يعني عدم تفرده او تحدده).

واذا كانت حركة النص المكونة هي العبور والاختراق (عبور الآثار الادبية العديدة) فإن النص يطرح مشكلة التصنيف وتجربة الحدود . فما يحدده هو قدرته على خلخلة التصنيفات القديمة ، وعدم الخضوع ـ بل التمرد على التقسيمات المألوفة للاجناس . فهل هذا الكاتب قصاص ، شاعر ، كاتب مقالة ، فيلسوف ، رجل اقتصاد ، متصوف ؟ اذا كانت الإجابة عسيرة فهو كاتب نص والا فهو كاتب أثر . فالأثر الذي يوجد على الحدود (حدود الاجناس الادبية المعروفة) هو نص . فالنص / كتابة يضع نفسه وراء الراي السائد إنه بدعة وخروج عن حدود الراي السائد . والكتابة لا تعني رسم الأصوات اللغوية ولا مجرد الربط بين العبارات بل تعني ـ على حد تعبير رولان بارت ـ أن نضع أنفسنا فيما يطلق عليه اليوم التناص ، أي أن نضع لغتنا وانتاجنا الخاص للغة ضمن لا نهائية اللغة ، أي ضرورة الاختفاء ـ اختفاء الذات الفاعلة / الكاتبة ـ في اللغة . والأدب عنده ـ وهو يفضل أن يسميه كتابة ـ هو دوماً خلخلة ، اي ممارسة تهدف الى زعزعة الذات الفاعلة وتشتيتها في ذات الصفحة . فلا وجود للمؤلف الا لحظة الانتاج / الكتابة وليس فقط لحظة ينتهي الانتاج . فالكاتب بعد ان ينتهي ينفصل عن النص(٤) ولكن ما التناص ؟ وما الظروف التي احاطت بظهور هذا المفهوم الجديد؟ وما معناه او معانيه ؟ وما ابعاده ؟ وكيف يتعامل القارىء / الناقد مع النص من خلاله ؟ وما الذي يميزه عن الأدب المقارن ، والنقد البنيوي ، والماركسي ، والتعبيري ، والاسطوري ، ونظرية المحاكاة ، ونظرية الخلق ؟

يمكن القول بأن مفهوم التناص قد ظهر في معرض الشك بجدوى الأسس الفكرية والفلسفية التي استندت اليها البنيوية الوصفية التي انتهت مع احداث مايو (مظاهرات الطلاب في فرنسا) عام ١٩٦٨ كما ترى اديث كيرزويل(٥) . فدراسة النص كموضوع لغوي أكد وجود بنية لكنها بنية لا مركز لها ولا تعرف الانغلاق . ولهذا اظهرت اسئلة جديدة حول النص مثل : ما النص ؟ وكيف يتكون ؟ وما الذي يجعل من النص

نصاً ؟ وهل للنص حدود ؟ وما علاقة النص بالنصوص الاخرى (النصوص المتكونة او التي في طور التكون ؟ وما طبيعة هذه العلاقة ؟ .

وفي معرض الاجابة على هذه الاسئلة قدمت مفاهيم جديدة تتصل بالنص . « فجوليا كريستيفا » ترى ان « كـل نص عبارة عن لوحة فسيفسائية من الاقتباسات ، وكل نص هو تشرب وتحويل النصوص اخرى »(٦) اما « ليتش Leitch » فيرى ان « النص ليس ذاتاً مستقلة او مادة موحدة ولكنه سلسلة من العلاقات مع نصوص اخرى . ونظامه اللغوي ، ومع قواعده ومعجمه ، جميعاً تسحب إليها كما من الآثار والمقتطفات من التاريخ ولهذا فان النص يشبه في معطاه جيش خلاص ثقافي بمجموعات لا تحصى من الأفكار والمعتقدات والإرجاعات التي لا تتآلف . إن شجرة نسب النص حتماً شبكة غير تامة من المقتطفات المستعارة شعورياً او لا شعورياً . والموروث يبرز في حالة تهيج . وكل نص حتماً نص متداخل»(٧) ويؤكد«روبرت شولز»بان معنى التناص يختلف من ناقد لآخر ، وهو يرى ان التناص « اصطلاح اخذ به السيميولوجيون مثل بارت وجينيه وكريستيفا وريفاتير . وهو اصطلاح يحمل معاني وثيقة الخصوصية ، تختلف بين ناقد وآخر . والمبدأ العام فيه هو ان النصوص تشير الى نصوص اخرى مثلما ان الإشارات تشير الى اشارات اخرى ، وليس الى الاشياء المعنية مباشرة . والفنان يكتب ويرسم لا من الطبيعة ، وانما من وسائل اسلافه في تحويل الطبيعة الى نص . لذا فإنّ النص المتداخل هو : نص يتسرب الى داخل نص آخر ، ليجسد المدلولات سواء وعى الكاتب بذلك او لم يع »(٨) .

من خلال هذه الاقوال وغيرها يمكن للمرء أن يشير إلى ان التناص يعني :

- توالد النص من نصوص اخرى .
- تداخل النص مع نصوص اخرى .
- النص خلاصة لما لا يحصى من النصوص .

- انبثاق النص عن نصوص اخرى(٩) .

- اعتماد النص على نص آخر او نصوص اخرى (١٠) .

- تعالق النص (اي الدخول في علاقة) مع نصوص اخرى (١١) .

- لا حدود النص ، او لا حدود بين نص وآخر .

ورغم أن هذه المعاني تبدو في الظاهر متشابهة او متماثلة ، اي تبدو وكأنها تعبر عن فكرة واحدة بالفاظ مختلفة فإنها في نهاية الأمر متباينة . وقد لا يعنينا هنا توضيح هذا التباين ومناقشته قدر ما يعنينا في هذا المقام محاولة التوصل الى روح المفهوم وتمايزه ، وهنا يمكن القول :

اولا : إن النص (اي نص) محكوم حتما بالتناص (اي بالتداخل مع نصوص اخرى) .

ثانياً : إن النص يتوالد عن نصوص اخرى (اي ان المرجعية الوحيدة للنص هي النصوص) .

ثالثا : ان النص حين ينبثق او يتداخل او يتعالق مع نصوص اخرى فان هذا لا يعني الاعتماد عليها أو محاكاتها . بل ان التناص يتجسد من خلال المخالفة او المعارضة او التنافس مع نصوص اخرى ، وهذا يعني ان التناص يتجسد من خلال صراع النص مع نصوص اخرى.

رابعا - إن النص لا يتداخل مع نصوص قديمة بل قد يتم ذلك من خلال نص يتضمن ما يجعله قادراً على التداخل او التنافس مع نصوص آتية اي مع نصوص مستقبلية(١٢) . ويمكن توضيح ذلك بالقول بان اليوم الاول في حياتنا هو اليوم الأول في الاتجاه الى الموت في آن واحد . وهذا ما يفسر مقولة جاك دريدا « في البدء كان الاختلاف »(١٣) . وبهذا المعنى فان التناص لا يرادف - بحال - فكرة السرقات الادبية(١٤) .

خامساً : إن النص لا يأخذ من نصوص سابقة بل يأخذ ويعطي في آن واحد وبالتالي فان النص الآني قد يمنح النصوص القديمة «تفسيرات» جديدة أو يظهرها بحلة جديدة كانت خافية او لم يكن من الممكن رؤيتها لولا التناص(١٥) .

سادساً : إن آلية التناص تتحدد من خلال مفهومين اساسيين هما :

الاستدعاء ، والتحويل . اي ان النص الادبي لا يتم إبداعه [الادق هنا ان نقول لا تتم كتابته] من خلال رؤية الكاتب / الفنان ، بل تتم ولادته / تكونه من خلال نصوص ادبية / فنية اخرى . مما يجعل التناص يشكل من مجموع استدعاءات خارج نصية ، يتم ادماجها وفق شروط بنيوية خاضعة النص الجديد . ثم ان النص المدمج يخضع من جهة ثانية لعملية تحويلية لان التناص ليس مجرد تجميع مبهم وعجيب للتأثيرات . فداخل الكتابة تقوم عملية جد معقدة في صهر واذابة مختلف النصوص والحقول المدمجة مع النص المتشكل(١٦) .

سابعاً : استنادا الى هذين المفهومين : الاستدعاء / والتحويل ، لا ينبغي النظر الى لغة العمل الادبي كلغة تواصل ، بل كلغة انتاجية منفتحة على (مراجع) خارج ـ نصية (نصوص ادبية ، فكرية ، دينية ، فنية ، ايديولوجية .. الخ) وهذه الانتاجية لا يمكن ادراكها الا في مستوى التناص ، اي في تقاطع التغير المتبادل للوحدات المنتمية لنصوص مختلفة وفي مستوى آخر .

فان النصوص المتناصة تدخل في نوع خاص من العلاقات السيميائية التي نسميها الحوارية «Diologisme» كما يرى « تو دوروف » ذلك لان اهمية العلاقات بين النصوص (الملفوظات) ترجع الى كونها علاقات حوارية(١٧) .

فالنص وفق مفهوم التناص بلا حدود . انه حيوي ديناميكي متجدد متغير من خلال تشابكاته مع النصوص الاخرى وتوالده من خلالها فالنص لا تحده قراءة واحدة ولا ينطوي على دلالة واحدة ووحيدة . بل ولا يتضمن بؤرة مركزية او بنية محددة ، وربما الاصح ان نقول انالنص يتضمن دلالات لا حصر لها وبؤرا لا يمكن ان تعد وبنياتلا نهاية لها . فالنص منداح باستمرار ، متدفق دائما وبالتالي فهو بلا نهاية . والتدليل على ذلك يمكن القول : ان هناك قراءات متعددة لنص واحد من قبل قراء عديدين . بل ان القارىء الواحد اذا ما قرا نصا واحدا من فترتين زمنيتين

متباعدتين او متقاربتين فانه سيخرج بانطباعات متباينة وبمعان مختلفة . ثم هناك القراءات المتعددة لنص ما من عصر الى عصر . فالنص يتدفق بالمعاني والدلالات المتعددة المتنوعة بل المتناقضة . أو هو منتج لها بلا توقف . وخير دليل على ذلك ان النص لا يتوقف بموت كاتبه كما يرى جاك دريدا(١٨) واذا كان النص لا يكتمل الا بقراءته ، واذا كانت قراءات النص مستمرة متواصلة فإن النص « غير منجز الا في مستواه الملفوظ ، اي في التمظهر الخطي الذي قوامه ، الدوال »(١٩) فالنص حي متحرك متطور متغير مفتوح على نصوص ماضية ونصوص آتية في آن واحد .

ولعل المرء يستطيع القول بان النص لا يتداخل مع الكلمات والجمل والتيمات والاطر والتقنيات فحسب بل يتفاعل ويتوالد من (كما يسهم في توليد) نصوص أدبية وفنية شفهية ومكتوبة ، تاريخية وإجتماعية وسياسية وايديولوجية .. الخ وبهذا المعنى فان النص لا يمتلك بناء محددا أو بنية واحدة لانه يتداخل مع نصوص اخرى لا نهاية لها . ان هذه النصوص تتداخل وتتكاثر (تتوالد) وتمتد لتشمل العالم بأسره الذي يصبح في هذه الحالة نصا . ولهذا يمكن القول بان التناص صيغة معرفية تهدف الى تحطيم فكرة المركز والنظام والبنية والشكل والمضمون والوحدة الموضوعية المتوهمة . فالنص ينطوي على ابنية متعددة متنوعة متجددة متوالدة بلا توقف ولهذا يقول « كولر » :

« أنه من التضليل ان نتحدث عن القصيدة على انها كل متجانس او وحدة عضوية مستقلة ، تامة في نفسها وتحمل معاني ثرية فائضة . ان التناول السيميولوجي يقترح نقيض ذلك ، بأن نفكر في القصيدة على انها قول لا دلالة له الا ضمن الانظمة المعرفية التي اكتسبها القارىء ولو اطلقنا انظمة اخرى غيرها ، فان امكانات الدلالة عندئذ ستتغير »(٢٠) ويوحي كلام « كولر » بأن الاعراف الادبية والتقاليد الموروثة لا تتيح الموضوعية في قراءة القصيدة فان التناص كصيغة معرفة تهدف ــ ايضا ــ الى تحطيم المواصفات المعروفة مثل الشعر والنثر والقصة القصيرة والرواية والمسرحية .. الخ اي لا تعترف بما يسمى نظرية الانواع الادبية .

٣ ـ التناص والنقـد :

ان التسليم بما تقدم يفضي بنا الى اسئلة عديدة منها : كيف ننقد النص وفق مفهوم التناص ؟ وعم يبحث الناقد ؟ وهل من مهمته ان يحكم بالجودة والرداءة ؟ وبعبارة اخرى ما الذي يميز نصا عن نص آخـر ؟ ثم هل التناص اداة نقدية تنطوي على قيمة ام انها ـ بيد الناقد ـ مجرد مفهوم نقـدي محايد ؟ اي هل تكمن مهمة الناقـد فقط في البحث عن التفاعلات بين النص وغيره من النصوص ؟ لابد من القول بان الناقـد ـ او بكلمة ادق القارىء ـ لابد له من عدة كبيرة مـن معرفة النصوص المتنوعة ومعايشتها حتى يستطيع ان يكشف عن النصوص الفعالـة او المؤثرة في توليد النص . ولابد له من دراية كبيرة وخبرة واسعة بالكيفية التي تمت خلالها تداخلات النصوص وتشابكاتها . وهذا يعني ان قراءة نقد النص تبدأ وتنتهي ـ وربما تبدأ فقط ـ من خلال النصوص .

« فالاطار المرجعي » للقارىء ـ بعد ولوجه عالم النص يكمن فقط في النصوص المتوالدة بعضها من البعض الآخر . ومن العبث ان نعير اهتماما للأطر الاجتماعية او الحضارية او النفسية او الشخصية (سيرة الكاتب وبيئته) لأن هذه الاطر لا علاقة لها بالنص . فادوات القارىء / الناقد ـ إن صح استخدام كلمة ادوات في هذا المجال ـ تتمثل في النصوص لا غير . وتتحدد مهمة القارىء ـ ويجب الا ننسى أن هناك قـراء لا حصر لهم للنص ـ في قدرته علـى اكتشاف العـلاقات القائمة بـين « النص » والنصوص . وبعدها قد يتساءل عن مدى اسهام النصوص الموروثة في توليد النص او عن مدى اسهام النص في ابراز النصوص القديمة واظهار ما كان خافيا منهـا . وربما يتساءل عـن قدرة النص علـى توليـد نصوص آتية .

ولكن اذا سلم المرء بعدم جدوى ربط النص بحياة مؤلفه ولوحته النفسية وعصره وسيرته بشكل عام فلا بد له بعد ذلك من أن يتساءل ـ بحق ـ عن دور الكاتب في ابداع النص ، وعن اسباب تمايز عدة نصوص لكاتب واحد او تمايز هذه النصوص عن نصوص اخرى لكتاب آخرين !!

وللاجابة عن دور الكاتب لا بد من القول بان القائلين بالتناص يحاولون « ربط النص الادبي بالنص الاسطوري على منهج ليفي شتراوس حيث يقرر بهذا الصدد « لوسيان صباث » ان الاسطورة هي الكلمة التي تبدو وكانها بدون باث حقيقي يأخذ على عاتقه ان يستخلص منها المضمون ويستنتج المعنى . ومثل هذا السلوك يجعل من النص الاسطوري ذا صفة لغزية . وقياسا على ذلك فان النقد الجديد لما اراد ان يتخذ من النص حقيقة موضوعية بحيث لا يكون البحث عن هذه الحقيقة الا عبر النص الادبي نفسه ، انما جاء ذلك من اجل ان يرفض انتمائية النص الى باثه »(٢١) واحسب ان هذا الكلام يفرض أسئلة جديدة من نوع آخر : فاذا كان النص يتوالد من نصوص اخرى فهل هو عبارة عن مجموعة من الكلمات والجمل والتيمات والاجزاء الآتية من نصوص اخرى ؟ اي هل تتجاور هذه الاجزاء والوحدات دون اية درجة من التناغم والائتلاف ؟ أو هل يفتقد النص (لكونه مفتوحا دائما) الى اية درجة من الانسجام ؟ واذا كان الجواب بالنفي (حسب اعتقادي لا يجرؤ احد على الجواب بالايجاب) فما الشيء الذي يجعل من هذه الاجزاء « المبعثرة » نصا ؟ اي كيف يتشكل النص ؟ وما الذي يجعل من النص نصا ؟ وهنا الا نجد انفسنا عند نقطة البداية اي عند الاسئلة التي قلنا عنها ان مفهوم التناص قد جاء للاجابة عنها ؟!.

لكن المرء لا بد ان يشير هنا الى ما اكدناه في البداية من ان النقد الجديد يهدف الى اثارة اسئلة بالدرجة الاولى ، كما لا بد له وان ينبه بان التناص ينطوي على معنى التداخل والتوالد والتفاعل ايضا . وقد اشرت قبل قليل الى مفهومي الاستدعاء / والتحويل . وقد تبين من خلالهما ان الكاتب — يبدو إنه لا يجوز ان نستخدم كلمة مبدع هنا — يقوم بتحويل هذه الاستدعاءات وصهرها واذابتها في النص الجديد . لكن عملية الصهر والاذابة لا تتم وفق منطق الكاتب بل وفق منطق النص الجديد نفسه . لهذا فالكاتب لا يبدع ولا اثر لرؤيته الفنية لانه يقوم بدمج مواد معطاة سابقا . واذا كان هذا يتصل بمستوى تشكل النص فانه يتصل ايضا بمستوى آخر هو التأويل النقدي استنادا الى مفهوم التناص. وهنا

يمكن القول بأن آفاق الدلالة غير منظورة بسبب إلغاء الفواصل بين النصوص ، أي لان النص مجرد حلقة في سلسلة متواصلة من الدالات (النصوص) غير المقترنة بمرجع . ولهذا فان القارىء / الناقد لا يستطيع حصر النصوص المتداخلة كما أنه لا يستطيع حصر دلالاتها .

ويقوم « ليتش Leitch » بتنظيم التكرارية ضمن نظرية طريفة فيقول إن تاريخ كل كلمة في النص مضروبا في عدد كلمات ذلك النص يساوي مجموع النصوص المتداخلة مع النص الاخير ، قيد القراءة ، ولتعذر تحديد تاريخ كل كلمة في النصوص السابقة ، فان النصوص المتداخلة لا حصر لها ، ومن ثم فان دلالاتها لا يمكن الوقوف عليها لسعتها وتعددها »(٢٢) . ويمكن تأكيد تعذر حصر الدلالات استنادا الى مستوى آخر (غير مستوى التشكل) هو مستوى القراءة . فاستنادا الى التناص فان النص « غير منجز ما دامت قراءاته متواصلة ، بل إنه في دلالاته يتضاعف مثل المتوالية الرياضية ، تبعا لتعدد القراءات »(٢٣) لهذا يرفض بعض القائلين بالتناص قضية التأويل برمتها فـ « التأويل هذيان محموم كهذيان الفصاميين أو الفارين من حرب مدمرة »(٢٤) . ويشعر المرء بضرورة عدم الاستهانة بمثل هذا الكلام لان اصحابه يهدفون من ورائه الى بذر الشك وعدم اليقين في كل شيء . وهم لا يقولون بالشك طريقا للوصول الى الحقيقة فهذه مسالة قديمة معروفة ، لكن الجديد هنا هو أنهم يرون بأن هوية الحقيقة هي الشك وعدم اليقين . ولهذا فالدلالة الواحدة (الادبية وغير الادبية) لا وجود لها ، لان الدلالة رمزية دائما . لهذا يرى جاك دريردا رائد الفلسفة التفكيكية ان (« هوية المعنى ضمن « الاختلاف » تتمثل في تعريفه ، حتى أن امكانية معانيه « الاخرى » في أماكن أخرى وأزمنة أخرى ، تصبح شرط هوية المعنى والآفاق التي يستند اليها المعنى »(٢٥) .

ومهما تعددت الآراء في مجال التأويل النقدي وفق التناص او في مجال البحث عن العلاقة بين المعنى الرمزي / الدلالات المتعددة والنص / البنية / الحدث ، فان المنطلق الاساسي هنا هو قبول النص « تأويلات

متناقضة يلغي بعضها بعضا »(٣٦) وينتج عن هذا المبدأ العام ــ كما يرى الدكتور محمد مفتاح ــ عدة تعاليم يمكن إجمالها فيما يلي :

اولا ــ يجب ان يهدم النص حتى يتهاوى نسيجه التعبيري .

ثانيا ــ إن النص لا يتحدث عن خارجه (مرجعه) بل إنه لا يتحدث عن نفسه ، وانما تجربتنا في القراءة هي التي تحدثنا عنه .

ثالثا ــ إن النص يمكن أن يقرأ بتجاوز لمعناه التواضعي والاصطلاحي وهذه القراءة هي نوع من اللعب الحر . وعلى هذا الاساس فان تأويلات النص وتعدداتها متعلقة اساسا بمؤهلات القارىء فالنص بمثابة بصلة ضخمة لا ينتهي تقشيرها »(٣٧) .

٤ ــ التناص والأدب المقارن :

لا شك ان هناك فروقا كبيرة بين التناص والادب المقارن من حيث المنطلقات والاهداف ، وان بدا للوهلة الاولى ان هناك تداخلا بين هذين المجالين . فالادب المقارن يهتم ببيان مواطن التأثير والتأثر بين النصوص الادبية التي تنتمي الى أمم متباينة وتكتب بلغات مختلفة ، ولهذا فالادب المقارن يهتم بالزمان والمكان وثقافة الكاتب وسيرته واللغات التي يتقنها كما يهتم بوجود صلة او وسيط بين النصوص المقارنة . كما ان الادب المقارن يبحث عن « تفاعل » النصوص من اجل الوصول الى اصول الافكار ومن ثم الى تجسيد القاسم الانساني المشترك في التحليل الاخير .

٥ ــ التناص والنقد البنيوي :

اشرت في البداية الى ان مفهوم التناص قد تكوّن أثناء رحلة الشك بفعالية الاسس الفكرية والفلسفية التي تستند اليها البنيوية وفي كفاءتها في تفحص النص ودراسته . وسواء عدّ بمثابة ثورة على البنيوية او بمثابة ثورة البنيوية على نفسها (لأن اعلام البنيوية هم في الاغلب اعلام ما بعد البنيوية) فان النتيجة واحدة وهي ان مفهوم التناص نتاج لصراع الحركات المنهجية المتحددة باستمرار . وهو ينتمي الى ما سمي بحركة

« ما بعد البنيوية » وبالتحديد الى النقد اللابنائي «Deconstruction» الذي عرف عندنا بالنقد التفكيكي .

ويكفي أن يشير المرء هنا الى أن البنيوية تنطلق من وجود بنية للنص تجعل من العمل الادبي عملا ادبيا ، وسواء اكانت هذه البنية خفية او تحتية أو تتمثل في نظام النص ، فان التناص ـ كما تقدم ـ يهدف الى تحطيم فكرة بنية النص او المركز او النظام او الحدود . وبينما ترى البنيوية ان النص كيان منته في الزمان والمكان اي تزامني ومغلق وثابت وساكن فان النص وفق التناص تعاقبي متحرك مفتوح متغير متجدد .

واذا كانت البنيوية تركز على ثنائية الكتابة / القراءة وترى أن النص يقرأ القارىء وأن الكاتب الفعلي للنص هو القارىء فان التناص لا يعترف بكل الثنائيات المتداولة . وهو إذ يركز على الكتابة / القراءة فانه ينظر الى أطراف هذه المعادلة على أنها حلقات متتابعة (لا متقابلة) في سلسلة طويلة لا نهاية لها ، اي ينظر الى تواصل فعل القراءة واستمراره ، هذا التواصل يؤكد أن النص يتضمن تأويلات متباينة متناقضة وهو ما ينفي ـ مرة أخرى فكرة البنية او النظام أو المركز او الشكل او الفواصل بين نص وآخر .

٦ ـ التناص والنقد الماركسي :

ولا شك ان التناص حين ينظر الى ولادة النص وقراءته / نقده من خلال « مرجعية وحيدة » (وإن تكن غير محدودة) هي النصوص وتفاعلاتها فانه لا يلتقي البتة ـ بل يحطم ـ اسس النقد الماركسي بتياراته المتعددة . فالتناص لا يهتم ولا يستند الى مقولات البناء التحتي والبناء الفوقي إذ هو ضد فكرة البناء اصلا . واذا كان النقد الماركسي ينفي فكرة انغلاق النص وثباته وتزامنيته ويرى ان النص متحرك متجدد متغير بتغير البناء الاجتماعي فان التناص يلغي اي اثر للعلاقات الاجتماعية في تشكيل النص وفهمه وتحليله ونقده .

وإذا اعتبرنا البنيوية التوليدية (لوسيان جولدمان) ضمن تلك التيارات فان التناص لا يقيم وزنا لهذه المنهجية التي تهتم اهتماما محوريا

بـ « رؤيا العالم » وأثرها في تشكيل النص وتعتمد على تفاعل بنية النص والبنية الاجتماعية المحيطة اي تركز على تاريخية النصوص .

٧ ــ التناص ونظرية المحاكاة :

وبالطبع فان مفهوم التناص لا يلتقي البتة مع مفهوم المحاكاة سواء المحاكاة المرآوية التي قال بها افلاطون او محاكاة المعاني الكونية العامة التي قال بها ارسطو . لان مفاهيم افلاطون وارسطو تنسج صلة ما بين النص والخارج [الخـارج هنا الأفكار النقية وعالم المثل « افلاطون » والمعاني الكونية الثابتة « ارسطو »] وترى ان النص والعالم ثابت . ولان الكاتب وفق التناص لا يكتب من خلال قوانين الصنعة الادبية (معروف ان نظرية المحاكاة لا تشير الى رؤية الكاتب او خياله) بل يكتب وفق منطق النص المتداخل ، فهو يكتب « لغة استمدها من مخزون معجمي له وجود في اعماق الكاتب ، وهو مخزون تكون من خلال نصوص متعاقبة على ذهن الكاتب . وهـذا يمثل وجودا كليا للكتابة (وليس للأشياء المحكية) . فالنص يصنع من نصوص متضاعفة التعاقب على الذهن ، منسحبة من ثقافات متعددة ، ومتداخلة في علاقات متشابكة من المحاورة والتعارض والتنافس »(٢٨) واذا كان ارسطو يدعو الى صفاء النوع الادبي فان التناص يهدف الى الغاء الفواصل وتدمير الحدود بين الانواع الادبية وغير الادبية اي الى تحطيم نظرية الانواع الادبية برمتها .

٨ ــ التناص والنقد السيَري «Autobiography» :

واذا كان التناص يرى ان النص يتوالد من النصوص الاخرى ويهدف الى اظهار النص وكأنه بدون باث فمن الطبيعي الا يهتم ــ بل هو يهدف في الحقيقة الى الغاء الاهتمام ــ بالبحث عن سيرة الكاتب وثقافته وعصره وايديولوجيته ولوحته النفسية ونواياه ومقاصده . فكل هـذه الامور لا تمت الى النص بصلة .

ولهـذا يمكن القول بان التناص لا يلتقي مع مقولة « الشعر فيض تلقائي لمشاعر قوية » (ووردزورث) او مقولة الخيال الاولي والخيال

الثانوي (كوليردج) . أي ان التناص يلغي مقولات نظرية التعبير برمتها كما يدمر مقولات النقد السيري كلها .

٩ ـ التناص ونظرية الخلق :

أسهمت نظرية الخلق إسهاما كبيرا في التأكيد على النص الادبي وصياغته وسموه الفني ، ولفتت الانظار الى ضرورة التركيز على علاقات النص الداخلية وعلى عدم استخدام معايير غير فنية ، ورغم ذلك كله فانها تتباين كلية عن مفهوم التناص .

فاذا كانت نظرية الخلق ترى ان النص كائن خلقه الاديب من ذاته ووسيلته في الخلق هي اللغة ، فان النص وفق التناص قد خلقته النصوص السابقة .

واذا كان النص وفق نظرية الخلق معادلا موضوعيا لعواطف الفنان وافكاره وتجاربه ، فان التناص لا يهتم ـ كما تقدم ـ بهذه العواطف والافكار والتجارب ، لانه يرى ان النص « مركب جديد » من النصوص المتعاقبة .

واذا كانت نظرية الخلق ترى ان جوهر النص هو الصياغة او التكنيك أو التشكيل فان « جوهر » النص وفق التناص لوحة فسيفسائية من الاقتباسات (جوليا كريستيفا) أو سلسلة من العلاقات والتفاعلات مع نصوص أخرى (ليتش) .

١٠ ـ التناص والنقد الأسطوري :

تذكر آلية التناص النقدية ـ في مستوى من مستوياتها ـ بالنقد الاسطوري الذي يعيد النصوص الادبية الى رحمها الاول ـ الاساطير . فكما يتم تفسير النص الادبي من خلال مرجعية وحيدة هي الاساطير ، فان قراءة / نقد النص تتم من خلال مرجعية وحيدة هي النصوص (لكن هذه المرجعية غير محدودة ولا نهاية لها كما تقدم) ويجب الا ننسى بالطبع ان مفهوم النصوص يتسع ليشمل الاساطير على اعتبار انها نصوص سواء عبر عنها بالرقص أو بالرسم او اتخذت شكلا لغويا .

وقد اشرت سابقا الى أن القائلين بالتناص يحاولون ربط النص الادبي بالنص الاسطوري لان الاسطورة هي الكلمة التي تبدو وكانها بدون باث حقيقي . اي انهم يرفضون انتمائية النص الى بائه / الكاتب . فكأن الكاتب أسير النصوص المتعاقبة المتداخلة المتفاعلة .

ومع أن النقد الاسطوري يرى أن الكاتب اسير الاساطير اي لا اثر له في تغيير وظيفة الصورة الادبية ، فان الفارق بين التناص والنقدالاسطوري كبير جدا . فالنقد الاسطوري يستند الى فكرة الصورة المركزية والتناص يهدف الى تحطيم هذه الفكرة ، والنقد الاسطوري يعتمد على مقولة البنية الاساسية (الاسطورة الاولى) والتناص يهدف الى تدمير البنية . وبينما يقول التناص بالتفاعل والتداخل والولادة يقول النقد الاسطوري بالتكرار .

واذا كانت آلية التناص النقدية تستند الى مقولة التفاعلات التي لا حصر لها بين النص وغيره من النصوص ، فان النقد الاسطوري يستند الى فكرة الانزياح Displacement ويرى أن الادب « هو اسطورة منزاحة عن الاسطورة الاولية التي هي الاساس وهي البنية وكل صورة في الادب مهما تراءت لنا جديدة ، لا تعدو كونها تكرارا لصورة مركزية مع بعض الانزياح ومع مطابقة كاملة احيانا اخرى »(٢٩) فهناك فرق كبير بين التداخل والتفاعل والتوليد وبين الانزياح .

١١ ــ كلمة أخيرة :

يتضح مما تقدم ان التناص مفهوم جديد كل الجدة ، سواء برؤيته الجديدة للنص أو بالفلسفة النقدية التي يستند اليها . وهو إذ يذكر ببعض الآراء او الافكار (العامة العائمة المتناثرة) القائلة بالتداخل والتفاعل (الاقتباس ، التضمين ، المعارضة ، السرقات الادبية ، الاشارة ..... الخ) فانه يبتعد عنها شاقا طريقا جديدة تماما .

وهو يثير تساؤلات اكثر مما يجيب على تساؤلات اخرى سابقة . فهل النص مفتوح دائما ؟ وهل هو بلا بداية ولا نهاية ؟! وما منطق النص ــ قيد الكتابة ــ ؟ وهل هناك نصوص ادبية متنوعة (لا من حيث الصياغة

أو الصورة العامة او الحدود المتفق عليها وانما ــ وهذا انسجاما مع منطق التناص نفسـه ــ من حيث درجة التداخل والتفاعل والقدرة على التوليد؟؟ وكيف تتنوع هذه النصوص؟ وما اسباب هذا التنوع؟ وهل نستطيع ان ننقل أثر رؤية الكاتب / الاديب في تشكيل النص؟ وكيف يمكن ان نقتنع بأن الكاتب / الاديب يكتب وفق منطق النص لا وفق منطقـه هو؟ ثم ما الدافع الى الكتابة عموما؟.

كل هذه الاسئلة وغيرها قد تدل بان مفهوم التناص غامض ومحير. ولعل هذا ما يفسر تنوع معانيه وتعدد استخداماته. لكنه رغم كل هذا قد حظي بالانتشار.

ويبدو أن من اسباب ذيوع هذا المفهوم والاهتمام به:

اولا ــ جدته.

ثانيا ــ انه يهدف الى تقديم تصورات جديدة بالمقام الاول اكثر مما يهتم بدحض التصورات الراسية في ميداني الادب والنقد.

واذا كان هذا من عوامل قوة هذه الصيغة المعرفية النقدية الجديدة فان من عوامل ضعفها في رأيي ــ اضافة الى غموضها ــ انها تلغي القيمة التي يتضمنها النص او القيمة التي يتسلح بها الناقد، وبالتالي فانها تنفي الاعتراف بقيم النص وقيم المتلقي / القارىء / الناقد / في علاقتهما الجدلية بقيم العصر او المستقبل. كما تلغي تاريخية النص وتعيده الى منابع لا حد لها ولا حدود اي شبه مجهولة أو غير «ملموسة» بالتحليل الاخير. وهو ما يذكرنا مرة أخرى بالنقد الاسطوري الذي يعيد النص الى مصادر مجهولـة (الاساطير) وبالنقـد النفسي الذي يعيد النص الى اللاشعور الفردي (فرويد) أو اللاشعور الجمعي (يونغ)».

لهذا يمكن القول بأن مفهوم التناص من تجليات الفلسفة المثالية التي تحاول أن تفسر الفكرة بالفكرة والمفهوم بالمفهوم والشعر بالشعر والنص بالنص دون الاهتمام بأثر الواقع الاجتماعي في تشكيل المفاهيم والتصورات والافكار والنصوص.

←

الهوامش :

(١) انظر تفصيل ذلك في « نظرية النص » : رولان بارت ، ترجمة منجي الشملي وعبد الله صولة ومحمد القاضي ، حولية الجامعة التونسية ، عدد ٢٧ ، ١٩٨٨ ص ٦٩ وما بعدها .

(٢) انظر في « الخطاب النقدي الجديد » مقالة « مارك انجينو » ضمن كتاب « اصول الخطاب النقدي الجديد » : ترجمة أحمد المديني ، بغداد ، دار الشؤون الثقافية العامة ، ط١ ١٩٨٧ ص ١٠١ وما بعدها .

(٣) يعتبر « بارت » ان العلامة تحيل بالضرورة على علاقة بين متعالقين ، وهذه العلاقة مباشرة وغير مباشرة . انظر تفصيل ذلك في « دروس في السيميائيات » : د/ حنون مبارك ، دار توبقال ، ط١ ١٩٨٧ ص ٣٨ .

(٤) استفدت ـ بتصرف ـ في عرض الآراء السابقة من :

ـ درس السيميولوجيا : رولان بارت ، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي ، دار توبقال ، ط٢ ١٩٨٦ .

ـ الكتابة والاختلاف : جاك دريدا ، ترجمة كاظم جهاد ، دار توبقال ، ط ١ ١٩٨٨

(٥) انظر تفصيل ذلك في كتاب « عصر البنيوية ؛ من ليفي شتراوس الى فوكو » تأليف اديث كرزويل ، ت د / جابر عصفور ، دار آفاق ١٩٨٥ .

(٦) الخطيئة والتكفير ؛ من البنيوية الى التشريحية (Deconstruction) : / عبد الله محمد الغذامي ، جدة النادي الأدبي الثقافي ط ١ ١٩٨٥ ص ٣٢٢ .

(٧) المرجع نفسه : ص ٣٢١ .

(٨) المرجع نفسه : ص ٣٢٠ ، ٣٢١ .

(٩) استند الى هذا المعنى د / عبد الله محمد الغذامي في كتابه المشار اليه ص ١٤ .

(١٠) استند الى هذا المعنى د. سعيد البحراوي في كتابه «في البحث عن لؤلؤة المستحيل» بيروت ، دار الفكر الجديد ط ١ ، ١٩٨٨ ص ١٤٠ .

(١١) استند الى هذا المعنى د/ محمد مفتاح في كتابه « تحليل الخطاب الشعري ؛ استراتيجية التناص » بيروت ، دار التنوير ط١ ، ١٩٨٥ ص ١٢١ .

(١٢) انظر تفصيل ذلك في « الخطيئة والتكفير » صفحات متفرقة في الفصلين الاول والسادس .

←

(١٣) الكتابة والاختلاف : مرجع سبق ذكره ، ص ٣١ .

(١٤) انظر في الدراسة التي صاغها الدكتور « عبد الملك مرتاض » بعنوان : « فكرة السرقات الأدبية ونظرية التناص » في مجلة « علامات » جدة ، المجلد الاول ، مايو / ايار ١٩٩١ انظر ص ٨٤ بشكل خاص .

(١٥) انظر تفصيل ذلك في « الخطيئة والتكفير » صفحات متفرقة في الفصلين الاول والسادس .

(١٦) آلية التناص : زهور لحزام ، مجلة الناقد ، عدد ٣٠ ديسمبر ١٩٩٠ ص ٥٩ .

(١٧) آلية التناص : ص ٥٩ أيضاً .

(١٨) معرفة الآخر ؛ مدخل الى المناهج النقدية الحديثة : عبد الله ابراهيم وسعيد الغانمي وعواد علي ، بيروت / الدار البيضاء ، المركز الثقافي العربي ط١ يونيو / حزيران ١٩٩٠ ص ١١٥ .

(١٩) المرجع نفسه : ص ١٥ أيضاً .

(٢٠) الخطيئة والتكفير : ص ٣٢٢ .

(٢١) في نظرية النص الأدبي : د/ عبد الملك مرتاض ، بحث غير منشور قدم في ندوة « النقد العربي المعاصر » بجامعة صنعاء ، ديسمبر ١٩٨٦ ، ص ٢٤ .

(٢٢) معرفة الآخر : ص ١٣١ .

(٢٣) المرجع نفسه : ص ٢٦ .

(٢٤) مجهول البيان : د/ محمد مفتاح ، دار توبقال ط١ ١٩٩٠ ص ١٠٢ .

(٢٥) المعنى الأدبي ؛ من الظاهراتية الى التفكيكية : وليم راي ، ترجمة يوئيل يوسف عزيز ، بغداد ، دار المأمون للترجمة والنشر ١٩٨٧ ص ١٦١ .

(٢٦) مجهول البيان : ١٠٢ .

(٢٧) المرجع نفسه : ص ١٠٢ أيضاً .

(٢٨) الخطيئة والتكفير : ص ٣٢٢ .

(٢٩) نظرية الاساطير في النقد الادبي : نورثروب فراي ، ت حنا عبود ، دار المعارف . بحمص / سورية ط١ ١٩٨٧ ص ١٧ .

* * *

ابـــــداع

شعـر

قصـائـد

نزار بـريك هـنيـدي

فاتحة

وكلمـات تبددت سحابه*
وفاض نهر الروح
بالكآبـة
أخرج من قوقعتي
مُستَمْطِراً
وشـاهراً
منـاجل الكتابه*

– نزار بريك هنيدي : طبيب وشاعر من سورية ، ينشر في الدوريات العربية والمحلية ، من اعماله « ضفاف المستحيل » ، « جدلية الموت والالتصاق » .

رسم النبض

طالع من زبد الموج المسجى

في سراديب الحنين

طالــع

من غبش الآفاق

من إوهم السنين

طالــع

من حشرجات الشجر

من رؤى المــوت

على صفحة وجه القمر

طالــع

من جســـدي

من تخوم الذكريات

طالــع

ابحث

عن مرآة روحي

اتهجى

رسم نبضي

في ظلال الكلمات

* * *

التابوت

كان يلعب بالطين
يخلق احلامه
ويَسرّحها في المراعي
ســدى
حين قرّر
ان يتحرّر
من ملكوت الصدى
فكّ ازرار تابوته
وانطلقْ
عارياً
يقتفي
خطوات الشبقْ .

* * *

الحياة

مرّةً
ضاق بالارض
كيف استحالت مكوّرةً
كيف يحملها بيديه اذن
مثل بطيخةٍ
عندما ستلاعبه السلحفاة

وتطلب منه الوقوف
بديــلاً لهــا
ريثما تستحم!
وتلبس
ثوب رياضتها
وإذا سقطت من يديه
وراحت تنطُّ
على السفح
كيف سيرجعها
ثــمَّ
ماذا يقول
إذا هشَّمتها الصخور
وهــل
ستصدقهُ السلحفاة.
مرَّةً
ضاق بالأرض
والسلحفاة
فرمى بهما
وتوجَّهَ
نحــو
الحياة .

* * *

بحــر

قال لي البحرُ

وقد صادفته يوماً

شريداً

في زقاقٍ موحل

سدّت الآفاق

لا تتعب

ولا تبحث

كفارٍ

عن ملاذٍ

آمنٍ

بين جحور الجبل

غير اني

لم اصغ سمعاً

وتابعت طريقي

حاملاً

بين ضلوعي

منجلي

* * *

لو كان لي

لو كان لي
ان اجمع الاشياء
في جرّة فخّار
اواريها التراب
لو كان لي
ان انفخ الريح
فتنهدَ السماء
لو كان لي
ان اشرب البحر
وان اقيئه
حبرا
على شاهدة القبر الذي
يحوي
بقايا الكون
كي أخمدَ
ما يطلقُ
من روائح العفنْ
لو كان لي
اعيد تشكيل الوجود والزمنْ
بلمســة
من فنّ

o o o

ابـــــــداع

قصـــــة

تلك الليلة :

جـمال سعـيد

كانت ريح تلك الليلة مثل ميادة .

وميادة لمن يحب جمع الشهادات عنها ـ هي التي فرضت علي هذا التشبيه ، انوثة ميادة تطغى على الاشياء التي تمر قربها . وان شئتم فإن اي شيء يختفي عندما تمر ميادة قربه !

تستطيع انوثـة ميادة ان ترتدي اي جزء من جسـدها وتمارس طغيانها . انوثتها تبدو صارخة اكثر مما استطيع ان احتمل لاحافظ على رصانتي كذكر موقر . انوثتها تبقى متألقة سواء عندما يهتز نهداها وهي تمشي ، او عندما يتوقفان عن الاهتزاز حين تتـوقف . ميادة تمارس

ـ جمال سعيد : اديب وقاص من سورية ، ينشر في الدوريات العربية والمحلية ، لـه مجموعة قصصية ستصدر قريبا عن وزارة الثقافة السورية .

أنوثتها وجمالها في مشيتها في التفاتتها الفاجئة عندما (تنتر) راسها لترد خصلة شعر الى الوراء ، في ابتسامتها في هدوئها .... ما يحيرني هو هل تفعل ميادة ذلك بعفوية وتصبح عفويتها جزءا من جمالها المقلق ذاك ، أم أنها تفعل ذلك عامدة لمعرفتها بأنها جميلة .. وتصبح حركات جسدها امتدادا لصراخ انوثتها .

يروق لي الحديث عن ميادة كثيرا . ولكن ميادة ليست القصة (اظن أن القارىء سيتفهم استطرادي وخروجي عن القصة لو عرف هذه الميادة) ..

لم تكن ريح تلك الليلة مثل ميادة تماما ، كانت ريحا باردة تحمل على صدرها ثلجا وصفيرا وعتمة ، وميادة لا تشبه البرد والصفير والعتمة في شيء ! طغيان تلك الريح وصوتها يختلفان كثيرا عن طغيان ميادة الحلو الى حد ان القلب يصاب بالصرع ويرفرف تائها ومتعبا مثل العصفور الذي كان يطير في تلك الليلة .

العصفور الذي عذبته تلك الليلة كان عصفور دوري صغيرا وعاديا من ذلك النوع الذي نشاهده أمام بيوتنا على أشجار قرانا فوق أسطحة مدننا .. نراه اينما ذهبنا .

في تلك الليلة كان يطير ليسبق الريح ويتخلص منها فيجدها أمامه ، واذا عاد يجدها وراءه ... ريح تفيض ريحا مثلما تفيض ميادة .. ميادة .. ريح في كل الجهات ، ريح كيفما طار : ريح تحمل ثلجا وتذروه في كل الجهات والثلج يبلل الاجنحة في كل الجهات برد ، والبرد ينخر العظام ... وفي كل الجهات عتم (والعتم) يخبيء صفير الريح ، والريح تصفر كثيرا ، العصفور الصغير يطير ، وكيفما طار : برد وعتم وريح وثلج ... كان يقول بقهر : كلكم ضدي ، ويتابع طيرانه باحثا عن احد ما غير اولئك الذين يخاطبهم بـ « كلكم » هذه ...

قالت نثرات الثلج التي نزلت عن جناحه : (لم اكن اظن ان الارض صغيرة هكذا ولم اكن اعرف انها سترتعش وتنفضني عن ظهرها ، لقد كتب علي أن ابقى سابحة في فضاء لا ينتهي ثم هممت شيئا ما عن ريح مجنونة صحبة الذئاب افضل من صحبتها .. ولكن تلك الليلة اعطت

جسدها للريح التي ابتلعت كل الهمس والهمهمات ، اختلط ما تقوله الكائنات وذاب على سفح الريح التى ضفرت روحها ابواقا للصفير اللاهي العابث البارد لقد عرفتم عصفور الدوري بالتاكيد .. لقد شاهدتموه في الربيع الماضي ينتقي مكانا بارزا .. سلك الهاتف بالضبط ، لينط على زوجته غير عابىء بكم ، ويكرر ذلك أكثر من مرة غير مهتم بما تظنونه ـ ان كنتم تظنونه عيبا ـ ، وتلصقون اعينكم به لكي تروه اكثر ثم يطير عن سرير زواجه الضيق طيرانا متقطعا حذرا .. ولكن لا علاقة لهذا كله بتلك الليلة التي جمحت ريحها . ففي تلك الليلة لاذ العصفور الوحيد المحاصر بالريح بكوة بيت قديم ، وعندما عبر الكوة وجد نفسه في سماء ضيقة . ولكنها على ضيقها أكثر اتساعا من سماء تفيض ريحها ريحا وعتمتها عتمة، مثلما يفيض دفء سماء البيت الضيق دفئاوضوءه ضوءا .

لم يكن البيت القديم مهتما بما تفعله الريح ، ولم يكن صمته القاسي يشي باحلامه او همومه . كان وجهه وجه مقامر محترف لا يشي بشيء (لا يزال، وجهه كذلك) عاش البيت القديم سني حياته مثل جيب مقامر محترف ، يمتلىء احيانا ويخلو في احيان اخرى . حتى تلك الليلة مر على راسه الكثير ولكنه بقي في مكانه صامتا منتظرا (هذه هي حال البيوت تبقى في امكنتها صامتة منتظرة ولا احد يعرف ما الذي تنتظره في قلب صمتها الطويل) .

قبل ان يدخل العصفور كان يضطجع قرب الموقد عجوزان : رجل وامراة اعينهما مغمضة يسمعان ما تقوله الريح مرة اخرى ، ومرة اخرى لا يصغيان الى آلاف الأرواح التي تنوح وتتشاكس على صدر العاصفة لقد عرفا أكثر من ريح كهذه ولم يفهما شيئا من جلبة الارواح تلك . كانا يستمتعان بما تهمسه النار بصوت دافىء لم يكن يخطر لهما ان الريح مجنونة وتريد دائما ان تقول بآلاف الالسنة :

« انا مثل ميادة اطفى على الاشياء ... » ولكنها لا تستطيع ان تكون مثل ميادة .

(يبدو انه مهم ان اتخلص من ميادة لكي اعرف كيف اتحدث عن تلك الليلة لاحظوا مثلا انني ارغب في ان استطرد مرة اخرى لأقول ساخرا من

نفسي : هل يمكن أن تفسد ميادة حديثك عن تلك الليلة ؟ وهل لقصتك كل هذه الاهمية ؟ ارم قصتك ايها الغبي وتأمل ميادة .. ميادة ليست اللعنة ، بل الكتابة او القــول أو اي شيء يلهي عنها هو اللعنة ! اتقبل مبتسما ما قاله الرجل الذي يجلدني من داخلي بسخرياته الفظة احيانا.. ولكن .. مهما يكن رأيه سأتابع حديثي عن تلك الليلة معتذرا .. او لا داعي للاعتذار فأنا شخصية استطرادية خصوصا عندما يتعلق الأمر بمي ... لقد طال استطرادي كثيرا) .

عندما دخل العصفــور البيت ايقظ صوت اجنحته العجوزين من استغراقهما (الأجنحة كما تعرفون تقول كلاما سريعا مضطربا لا يمكن فهمه ، احرفه موصولة ببعضها وتشبه بعضها كثيرا) ..

كان العجوزان يجتران هادئين صورا لأناس وأمكنة واحداث يملكان تاريخهما البسيط الخالي من الفتوحات والامجاد والمغامرات المعقدة والكبيرة .. كانا يغمضان اعينهما على تاريخهما ــ كما هو ــ وعندما دخل العصفور من الكوة فتحا اعينهما معا نهضا على مرفقيهما معا ، نظرا الى العصفور معا ومعا اتضح لهما انهما لم يموتا بعد !

لم يكونا ينتظران الموت ، ولم يكونا ينتظران تحقيق فتح ما في ميدان ما ، كانا ينتظران عودة خالد (وخالد هو ابنهما الاصغر الذي اعتقل في ليلة غير الليلة التي اكتب عنها) . لم يعرفا لماذا اعتقل وبعد ان عرفا من اخوته الكبار انه يقرأ من تلك الكتب التي ... لم يعرفا التي ماذا ؟ ! حاولا ولم يستطيعا رؤيته ، لم يقتنعا انه بقي طوال هذه الفترة بعيدا ــ خالد كان لا يزال بعيدا حتى تلك الليلة (او حتى هذه اللحظة) .

وخالد خطب ميادة ، وميادة فسخت خطوبتها بعد سنتين من غيابه لأنه : من يدري قد لا يعود ! ولا احــد يعرف كم سيبقى في السجن ! « سمعت أمه العجوز كلمات ميادة وكانت مفهومة اكثر من الكلمات التي تقولها ريح تلك الليلة وقاسية اكثر بكثير ورغم أن ميادة تبدو قوية قالت لي أنها لا تستطيع أن تنظر في وجه تلك العجوز وتتمنى لو أن العجوز تسمح لها ــ كما كانت تفعل من قبل ــ أن تساعدها في غســل الثياب وتحضير الطعام وكنس البيت » .....

في تلك الليلة قالت لي ميادة انهـا تتمنى لو تموت ! ضحكت مخبأ وراء ضحكتي حزنا استوطنني في تلك الليلة ، قلت لها انها لا تزال تفكر بأسلوب مراهق ! نظرت الي لائمة وانصرفت بعد ان بدأت تبكي ظانة انني لست الا رقما في مجموعة البشر الكبيرة التي لا تفهمها !! رأيت وجه خالد في سماء غرفتي يقول هادئا : ارحموها ! ووجدت انا الآخر لبرهة ان احدا لا يفهمني ، حتى الاشباح التي تخرج من راسي وتستوطن سماء غرفتي لا تفهمني ، ثم حدقت في كل ذلك ، وراق لي ان اقول دونمـا قناعة : لا احد يفهم احدا .

هذه المرة اعتذر عن استطرادي حقيقة ما يهم هنا هو العجوزان في تلك الليلة فبعد ان ايقظهمـا العصفور الصغير من استسلامهما لأحلام يقظـة ، ورؤى متكررة ، دار في سماء البيت الضيقـة ، وعندما اتعبه الطيران حط على طرف السرير العجوز الذي يقف في احدى زوايا البيت القديم ، والذي استمرت بياضاته رغم ان احدا لم ينم فوقه بعد ان قتلت القطة بطلق ناري من بندقية محاوب لم يجد من يطلق عليه النار فاطلق على القطـة .

عندما حط العصفور نظر في الاتجاهات كلها فلقد ورث الحذر عن آبائه (هذا الميراث افضل على اية حال من ان لا يرث شيئا كعصفور ابي الحناء الذي توقعه براءته في الشرك دائما) . رغم حذره استطاعت المرأة العجوز ان تقترب منه برشاقة بعد ان راقبت مع زوجها بصمت كيف وقف على طرف السرير وكيف نفض ريشه وكيف هدأ بعد ذلك .

كان الرجل يراقب زوجته ، ناسيا كل شيء ونظر الى العصفور .. لم يعد صوت الريح مسموعا ؛ لم يعد في الغرفة همس نار .. محاالعصفور كل الاصوات ؛ ومحا البشر والامكنة والاحداث التي كانت تملأ راسي العجوزين منذ قليل .. والان اصبحت العجوز تحت العصفور وصـار الرجل يراقب المباراة المقبلة اثاره منظرها وهي تحاول ان تصير في المكان المناسب .. لفتت انتباهه رشاقتها وهي تتأهب للامساك بالطائر لقـد استطاعت ان تتحرك حركة مناسبة فعلا .. المنظر اشد اثارة وهي تتهيأ لمد يدها ... من سينتصر ؟ هل ستمسك به ام انه سيطير ؟ .. اداؤها

مثير بحد ذاته بغض النظر عن النتيجة .. كل ذلك جعل الرجل يفتح عينيه قدر ما يستطيع دون ان يدري ... استطاعت العجوز ان تمسك الدوري الصغير بمهارة هرة ؛ عندها ضحك الرجل كان ينقصه بعض الحماس ايضا لكي يصفق ويصرخ مثل مدمني مباريات كرة القدم عندما يسجل الفريق الذي يناصرونه هدفا ؟ . ولكنه خبا حماسه لانتصارهـا وعلق مشاكسا عجوزة . ما شاء الله رشيقة مثل ابنة الرابعة عشرة ومثل ابنة الرابعة عشرة قليلة عقل .. قالت : وهي تمسح على ظهر العصفور الخائف الذي لم يهرب من العاصفة ليصبح رهينة في يد تمنع الاجنحة حتى من اعلان خوفها : « لا تخف .. اهدا ! .. » ثم نظرت الى زوجها وقالت : تظنني عجوزا مثلك ؟ . اشار الزوج بيده اشارة ماجنة وقال :

« الليلة سنرى » ابتسمت المراة وقالت : شاطر بها لشغله ثم جلست في مكانها تداعب الدوري الصغير وتسأله لماذا خرج من بيته في يوم كهذا ، تمسح برؤوس اصابعها خفق قلبه الصغير الذي يشي بالخوف وتقول له : لا تخف يا بني .

كان الرجل ينظر الى العصفور في يد المراة ويراقب عينه المدورة الصافية وحركات رأسه القلقة ، قال الرجل : انه ذكر وافقت المراة وهي تنظر الى البقعة الداكنة على عنق الطائر . بدا للرجل ملمس الريش الناعم مغريا فقال للمراة (اعطني هذا الازعر) مدت المراة يدها التي تحمل العصفور باتجاه الرجل وقالت « انتبه » عندما افلتت العصفور لم تكن يد الرجل قد وصلت تماما ، طار العصفور ودار في سماء الغرفة مستعجلا . مرة اخرى وقفت المراة وخاطبته وهي ترى طيرانه الغاضب اهدأ يا مجنون ولكنه لم يهدأ ظل يطير طيرانا غاضبا حتى خرج من الكوة عندها بدا لها صوت العاصفة شديد الوضوح اتجهت الى الكوة وقالت : عد يا بني من يخرج في ليلة كهذه ؟! .

ضحك الزوج : هل تظنين انه سيفهم عليك ؟ .

نظرت الى زوجها غاضبة وقالت : الم اقل لك انتبه !

رد الزوج : « لقد افلته قبل ان تصل يدي ... »

قالت بغضب : انت دائما هكذا لا تستطيع ان تفعل شيئا في وقته .

بدات المحاججات بينهما ، وكادت الزوجة تنبش تاريخا طويلا لولا انه اعادها الى العصفور الذي طار عندما قال ساخرا : « هل تخافين عليه ان يصاب بالرشح ؟.

عندها بدات المراة بالبكاء .. حاول الرجل العجوز ان يطيب خاطرها فقال بابتسامة متوددة : هل جننت ! عصفور غط وطار ! .. ولكنها تابعت بكاءها قالت وهي تبكي ماذا حدث له ؟ سيكون البرد قد اكل
حاول الرجل طمأنتها قدر
خالد : انا اعرف السجون
مىء وبطانيات واسرة وثياب ..
خبرني احدهم ، لقد دخل السجن منذ زمن بعيد .. منذ ايام فرنسا .. انه يعرف كل شيء .. وقد قال لي .. لا تخافي .. لا تخافي عليه .. انه غر ! .

كرر ذلك وقال اشياء اخرى وكررها الى ان توقفت عن البكاء .. استطاع ان يطلب منها ان تمد الفراش قرب الموقد . وعندما استلقى بجانبها على الفراش جاهد كثيرا لكي لا يشعر المراة العجوز بانه رجل له قلب : وله عيون ، ولكي يجعلها لا تحس بان عيونه تدمع .. وانه لا يستطيع ان يوقف دموعه وليس لديه من يكذب عليه او يطمئنه .

في تلك الليلة تأخر العجوزان عن موعد نومهما المعتاد بقيا صامتين اغلقا اجفانهما على كوابيس يبدو فيهاخالد مرتجفا مستغيثا . كانت الريح تمر من فوق البيت القديم وتدور حوله حاملة الثلج على صدرها ، تصفر وتفور وتمضي غير عابئة بسواد عتم تلك الليلة .. وكان (العتم) متكتما صامتا غير عابىء بالريح ، والعصفور مربكا يقول : « كلهم ضدي » كانت نافذة ميادة معتمة ، لقد اطفأت ميادة الضوء ونامت ، كان النوم سعيدا باحتضان ميادة . يستحم بخلاياها المغلقة عليه . البيت القديم كان صامتا ينظر الى البرد والعتم والريح والثلج والعصفور ويقول : « انهم لا يفهمون شيئا ثم يتابع احتضانه للعجوزين اللذين يعرفهما منذ زمن طويل .. طويل ..

كانت ريح تلك الليلة مثل ميادة ...

□ □ □

ظافر جمال الدين عبد الواحد

في الذكرى السنوية الأولى لوفاة فقيد الكلمة والادب المرحوم ظافر عبد الواحد ، تقوم هيئة تحرير المعرفة ، عرفانا منها بالجميل ووفاء لذكرى من بذل كل جهده لنشر نور العلم والمعرفة ، بنشر الكلمات التي القيت في حفل تابينه ، وكلها رجاء أن تفيه بعض حقه .

بطاقة

- ولد في مدينة دمشق عام ١٩٣١ .
- حصل على الاجازة في الفلسفة من جامعة دمشق عام ١٩٥٥ .
- مارس العمل الصحفي بين عامي ١٩٥٢ ـ ١٩٥٩ في عدد من صحف دمشق هي : الايام ، الراي العام ، الشام .
- وضع عام ١٩٥٧ مرجعا موسوعيا عن سورية « الرائد السوري » مكونا من ٤٢٠ . صفحة ، وذلك بتكليف من صحف : بردى ، الشام ، الاخبار .
- أدى خدمة العلم وشارك في حربي ١٩٦٧ و ١٩٧٣ .
- وضع وترجم عدة كتب هي : علم النفس الحربي ، الاتمتة ، قصص صينية ، جنات أبي .
- بدأ عمله في وزارة الثقافة عام ١٩٥٩ مديرا للمكتب الصحفي تنقل في اعمال عديدة : دائرة العلاقات العامة ، مكافحة الامية ، مديرا لمكتب معاون الوزير وأخيرا امينا لمجلة المعرفة .

كلمة ممثل اتحاد الكتاب العرب

هـذا جناه ابي علي

انطون المقدسي

عرفته طالباً ، زميلاً وصديقاً ، درب واحدة جمعتنا ، عليها سرنا معاً ومعاً عملنا طوال عشرين عاماً ، مرة تباعد بيننا واخرى تقرب . تلك درب الثقافة التي جعلتنا نلتقي طوال عشرين عاماً اخرى في ادارة واحدة من ادارات وزارة الثقافة . مرة حول مشروع واحـد ، وغيرهـا لكل منا مشروعة ، وفي الحالتين كنا نتذاكر ، كل منا يركن الى الآخر ، يثق به ، يسعفه بما لديه من معلومات . وهكذا توثقت عرى الصداقة بيننا وصارت تعاوناً مستمراً على عقبات حياة كلها عقبات .

متقن لعمله مخلص لوظيفته ، متماسك مع ذاته ، يعرف حدوده فلا يتجاوزها . اذا سئل اجاب بكلام منطقي واضح ، لا ادعاء فيه ولا غرور. فكنت منذ بداياتي في وزارة الثقافة اثق بجوابه : انه يعرف المسائل التي يعالج ، يعرف ملابساتها ، اسبابها ونتائجها . واذا اربكته مسألة اسرع الى المراجع المتوافرة لديه يسائلها ويسال من يعتقد انهم اكثر علماً منه ؛ يصغي الى اجوبتهم ، يستوضح النقاط الغامضة ثم ينصرف شاكراً .

هو من قلة قليلة ـ قد لا يتجاوز عددها عدد أصابع اليد الواحدة ـ عرفتها في هذا البلد الكريم ، افرادها يؤثرون حقاً المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، ومصلحة الناس على مصلحتهم الشخصية . فاذا اوكلت اليه مهمة ما انصرف اليها بكليته ، وما يزال حتى ينجزها بالشكل الذي يرضى عنه ضميره . شعوره بالمسؤولية حاد . فلم اره يوماً ناسياً او متناسياً عمله ومتسكعاً في اروقـة الوزارة . لم اسمعه يوماً يردد الشعارات الفضفاضة يختبىء وراءها المقصرون في اعمالهم ، ويرضى عنها بعض المسؤولين . فالواقع هو الواقع وعلينا ان نواجه مشكلاته الكثيرة بجرأة وإخلاص عسى ان نتمكن من حل بعض منها .

تلك كانت قوميته : أن يخدم بلده ومواطنيه في الموقع الذي حددته له ثقافته ، مواهبه ، وأولو الأمر . فلم يكن متمردا ولا ثوريا . أو يمكن لانسان نذر نفسه تلقائيا لخدمة البشر ان يكون عنيفا او ان يمارس العنف . فالتقدم هو العمل المستمر ، والتبديل هو تبديل النفوس لا تبديل نظام سياسي بآخر ولا ايديولوجيا بغيرها .

شعاره المضمر : عليك واجبات وليست لك حقوق . تلك انسانيته عاشها بكل كيانه : ان يحب الناس ، يخدمهم ، يعمل من اجل اسعادهم . والاقربون اولى بالمعروف . ومن اقرب الينا من اهلنا وذوينا وابناء وطننا ؟.

ذلك ايمانه الديني : ان تعمل لمرضاته تعالى فيرضى عنك ، يلي رضى البشر هبة وفضلاً . فالشعائر الدينية ـ وكان يمارسها بمعزل عن عيون البشر ـ اذا امكن لم تكن في نظره الا سبلاً بها نتقرب الى الله تعالى نطلب مغفرته ورحمته وهو يلهمنا العمل الصالح . فلم يكن متزمتاً .

كان طيب القلب ، صافي النية ، نظيف السريرة . فلم اسمعه يوما يتذمر من احد او يشكو احداً او يتهم احداً . الله اعلم بالسرائر ، هكذا كان يقول . زملاؤه في الوظيفة يعرفون ذلك . فقد كان يؤثرهم على نفسه . فاذا مرض احدهم او غاب لسبب ما ينوب عنه بكل طيبة خاطر . ولهذا لما مرض واضطر للتغيب تبرعوا كلهم للعمل محله .

هوايته الوحيدة الثقافة . فهو دوما في موقع الطالب ، يقرا ، يصغي الى كلام من هم اعلم منه ، يسألهم ، يجهد كي يستمع الى المحاضرات التي تنظمها وزارة الثقافة او غيرها من الدوائر الثقافية، ويشترك في المناقشات كتب ، ترجم . له دراسات كثيرة جلها في مجلة المعرفة ، تدل على ذهن نيّر واطلاع واسع . بقي حتى الايام الاخيرة من حياته وراء الطاولة في بيته او في اتحاد الكتاب يستزيد من المعلومات . ومن المؤسف انه لم يكمل الكتاب الذي كنت قد اتفقت معه على وضعه . وموضوعه : تطور الحركة السياسية في سورية الحديثة بوصفها حركة تحرر .

عرفته وتحدثت اليه ، تحدثنا معاً في كل مراحل حياتنا ، تحدثنا في الصحة والمرض وعن المرض والصحة . خبرته في الشدة والرخاء . ذاق حلو الحياة ومرها ، مرها اكثر بكثير من حلوها . وكانت ، في كل هذه الحالات ، ثمة ابتسامة حنونة تطوف على وجهه حتى لكأنها بعد من ابعاد شخصيته . تألم وهو صامت . كنت ألح عليه بالسؤال عن مرضه فيجيب : الشكر لله ، صحتي جيدة . أنا في طريقي الى الشفاء التام . ويشكر باستمرار أهله الذين استنفدوا السبل كلها عسى ان يشفى من مرض لا شفاء منه . كما كان يشكر اصدقاءه وزملاءه الذين احاطوه بعنايتهم .

هذا الخلق الرضي كان دليله الى عالم عزّ فيه الخلق الطيب . وهو الذي دله على الطريق حيث سدت كل الطرق الانسانية .

فكان يؤثر الجهل السقراطي على العلم السفسطائي . يؤثر ان يسكت على أن يتحدث ، ان يتعلم على ان يعلم ، يؤثر الانمحاء على الظهور .

لم يكن من ابناء هذا الجيل ربما انه من بقايا السلف الصالح ، ذلك الذي عمّر الوطن العربي بالعلم والفضيلة . وربما شعر أن هذا السلف قد انتهى وأن الأجيال التي تتكون اليوم ترفضه فهو غريب . اتى الى العالم وحيداً وغادره وحيداً . لكأنه يكرر مع حكيم المعرة :

هــذا جنــاه ابي علــي   وما جنيت علــى أحــد

* * *

كلمة ممثل وزارة الثقافة

عبد الكريم ناصيف

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا ... وعناهم من امره ما عنانا
وتولوا بغصة كلهم منه ... وإن سر بعضهم احيانا
ربما تحسن الصنيع لياليه ... ولكن تكدر الإحسانا

فهل تغير ذلك الزمان الذي تحدث عنه ابو الطيب ياترى ؟ امازال الناس يتولون عنه بالغصص كما كانوا من قبل ؟ الم يزل ديدن لياليه الاحسان للانسان وابتلاءه بالشقاء والعناء ؟ يحسن ساعة ويسيء ساعات ، يعطي بيد ويأخذ بأيد ؟

اجل .. انه الزمان الذي عرفه الانسان منذ القدم عدوا لدودا ... صراعه معه ابدي وحربه ضروس لا صلح فيهما ولا هوادة.

انه الزمان الذي طالما غدر بالناس وفرق الشمل واودى بالاحباء فكيف لا نلومه اليوم وقد اودى بأخ عزيز غال هو في الراس من اولئك الاحباء ؟

كيف لا نلومه اكثر وأكثر ونحن نرى عنته يشتد وطغيانه يزداد ؟ كيف لا نعتب عليه أكثر وأكثر ونحن نعاني منه ونقاسي ؟ كيف لا نشكو من زمن يعظم فيه الشر ويضؤل الخير ، ثم تميع الحدود وتمحي لتخلط الاشياء على العقول فيغدو الصالح طالحا والجميل قبيحا والغث سمينا، ينقلب الضد الى ضده ويضيع الانسان في دوامة تلف به وتدور حتى يفقد الجهات ويستحيل عليه التمييز : أهو عدو أم صديق ؟ ضار أم نافع؟ محب أم كاره ؟ لكنه لا يستطيع ان يجيب ، فقد ماعت الصفات واختلطت السمات وامحت الحدود .

انه الزمن الصهيوني الاسود ، زمن الاستغلال ورأس المال ... مثل عليا تنهزم واخرى قميئة تنتصر ، قيم عظيمة تبيد واخرى وضيعة تزدهر ، وبدلا من أن يكون في الناس المحبة وعلى الارض السلام يصبح في الناس الحقد وعلى الارض الفتن والحروب والقتل والتدمير ...

ذات يوم قال لهم ربهم يهوه « انكم جائزون الاردن الى ارض كنعان فتطردون جميع أهـل الارض عن وجهكم وتبيدون جميـع منقوشاتهم واصنافهم المسبوكة ومشارفهم تدكونها وتملكون الارض وتقيمون بهـا فإني أعطيتها لكم ميراثا » ولا يزال يهوه يلقنهم الاوامر ذاتها فينطلقون من المنطلقات ذاتها . كل قناعتهم ان العالم ملك أيديهم ، يفعلون بـه ما يشاؤون : يذبحون الرجال ، يقتلـون الاطفال ، يهتكون الاعراض ، يستحلون المحرمات ويلتهمون الطيبات والخيرات ؛ أليسوا هم شـعب الله المختار ؟ الا يحق لهم مالا يحق لغيرهـم ؟ وهـم السادة المسودون ؟ لا رادّ لارادتهم ولا صاد لمشيئتهم ، ومشيئتهم نفعهم وضرر الآخرين خيرهم وشر الآخرين .. هم الذين يكيلون بمكيالين ويزنون بميزانين ولا يرون بعين واحدة بل بالف عين وعين ... ربهم يهوه هو الذهب والفضة، اذن ليغدُ رب العالم الذهب والفضة ، فهل هناك شر من زمن الصهيونية ورأس المال ؟ زمن العدوان والطغيان ، زمن اليهود الأسود ، حين البغاث يستنسر والفار يستأسد ، حين الحق باطل والباطل حق ، الخير شـر والشر خير ، الابيض اسود والاسود ابيض ، وانت عاجز مكبل اليدين لا تملك ادنى حق في الحياة : حق الدفاع عن النفس .

رحمك الله يا فقيدنا الغالي ، ربما رأيت ذلك كله فآثرت الرحيل بعد ان رأيت شموع العالم كله لا تضيء ركنا واحدا من اركان الظلام . لقـد كنت شمعة أضاءت طويلا .... معرفة وضياء ومحبة . مذ عرفت الضياء والظلمة آثرت ان تحالف الضياء وتعادي الظلمة ، فضحيت بكل شيء، زهدت بذهب العالم كله وعزفت عن فضة يهوه اليهود لتنصرف للعلـم والمعرفة ، تنهل دون ان ترتوي وتعطي دون ان تشبع من عطاء فكنت خير من نهل وخير من أعطى .

في ليل الجهالة وقفت ، منارة شامخة لم تكف عن اطلاق أشعتها لكل الناس تدلهم وترشدهم دون ان تبتغي جزاء ولا شكورا . عمرك كلـه قدمته قربانا للثقافة والمعرفة دون ان تضن بغال أو تبخل بعزيز ، ليـل نهار كنت تعيش لهما ، تحصل وتجمع ، تهب وتوزع ، ينبوعا للإخلاص والوفاء ، جبلا من النبـل والصبر ، معينـا لا ينضب للفهم والعطاء ، للاخلاق الرفيعة والانسانية السامية .. للعمل والكلمة .. رائدك أبدا

تخدم الغير وتضحي في سبيل الغير حين من يخدم قليل ومن يضحي أكثر قلة .

سنين ثلاثين ظل الفقيد الغالي عاملا مجليا في حقل الثقافة وعنصرا فاعلا في وزارة الثقافة ، يكتب ويترجم ، يخطط وينفذ . مذ تأسست الوزارة جاء ليؤسس .. لم يكن ثمة شيء حين جاؤوا يرفعون بنيان الثقافة وقد بات اليوم صرحا عاليا فكم نحن مدينون له !! كم نحن مدينون لكل من يمد يده للبناء !

لقد أعطى وأعطى الكثير ... في المكتب الصحفي في الوزارة ، في العلاقات العامة ، في مكافحة الامية ، لو امينا لمجلة المعرفة ، دائما كان يعمل دائما كان ينجز .. كتبه تتحدث عن ذلك . علم النفس الحربي .. الاتمتة ، القصص الصينية .. المقالات ... فقد كان رحمه الله نشيطاً دؤوبا نبراسه العمل والعطاء ولذته في هذه الحياة كلها العمل والعطاء.

لكنه الخريف ... يأتي فتتساقط الاوراق . ورقة ورقة تعرى الشجرة وغصنا فغصنا تيبس وتبرد ليمسك بها الصقيع والشتاء . وهكذا نحن .. شجرة واحدة تتساقط اوراقها ، الواحدة تلو الاخرى . ترى الورقة بقية الاوراق تسقط لكنها لا تملك سوى ان تراقب ، في قلبها الحسرة وفي نفسها اللوعة . لا تملك الا ان تنتظر يوما تأتي فيه الريح لتحملها وتمضي ...

.. منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا .

اترانا نبدل بعدك يا ظافر ؟ ما احسب ذلك ...

فقط بأسى بالغ وحزن شديد ارفع الى روحك التحية والاكبار واطلب لها الرحمة والغفران ولسان حالي يردد مع الشاعر :

كان لي صاحباً فأودى بـه ... الدهر ففارقته ، عليه السلام

كيف يصفو لي النعيم وحيداً ... والأخلاء في المقابر هام

نفستهم علي ام المنايا ... فأنامتهم بعنف فناموا

لا يفيض انسجام عيني عليهم ... إنما غاية الحزين السجام

والسلام عليكم ورحمة الله

* * *

كلمة اساتذة الفقيد

للدكتور عبد الله عبد الدائم

قدرة النفوس الفنية الصادقة على اختراق الحواجز والنفاذ الى شغاف القلوب وشعاب الفكر، لغز معجز من ألغاز الحياة. وهل كان للحضارة البشرية ان تصنع لولا تلك النفوس الكبيرة التي تابى ان تسكن اللحم والعظم والتي تنشر دوحها وريحانها على من حولها، فاذا بهم يتحلقون حولها ويتزاحمون عليها تزاحم الفراش على النور ؟

وتتخذ هذه النفوس الفنية الف شكل وشكل وتلبس مائة لبوس ولبوس، ولكنها دوما وابدا تمتاز بما تنثه حولها سهوا رهوا، من حياة فكرية وخلقية ثرة.

وعندما عرفت فقيدنا ظافر تلميذا ثم صديقا، آنست منه دوما تلك القدرة الصامتة على الضوع والعطاء. لقد كان، وهو بعد على مقاعد الدراسة، يعطي دون ان يشعر، ويمنح وهو يأخذ، ويأخذ حين يمنح.

لقد قالوا ان كل شيء ينقص بالانفاق الا العلم فهو بالانفاق يزيد، وهو قول حق، ولكن شرطه الاول ان يتوافر لهذا العلم من يتلقاه بعمق ومحبة، ومن يتحاور معه ويحاور فيه. والمريد الذي يغدو جزءا من المعلم ومرآة له ومحكا لافكاره، هو وحده الذي يجعل المعلم يرتفع بعطائه ويرقى الى غير ما حد. وليس ادعى للتحليق المبدع في اجواء العلم مثل المتعلم الذي يشاطر المعلم مخاض افكاره وولادتها ورعايتها بالشرح والتوضيح والنقد.

ولقد كان فقيدنا ظافر واحدا من هؤلاء، وهم قلة. لم يكن ينشد المعرفة بمقدار ما كان ينشد ما وراءها من معان وقيم انسانية كبرى، ولم يكن يستمع فحسب بل كان يبعث الحياة فيما يستمع اليه وفي من يستمع اليه. ولم يكن معلمه يقدم المعلومات له، بل كان يستمد من نظراته المتسائلة وهمساته الخجولة وتساؤلاته الرقيقة، زادا غنيا ونظرة

مجددة الى موضوع بحثه . لقد كانت همساته القليلة التي يهمس بهما معقبا أو متسائلا عصارة حياة نفسية زكية يلتقي عندها العقل بالوجدان والعاطفة ، وتصب جميعها في مطلب المطالب ، مطلب بناء انسان جدير بهذا الاسم ، قمين بأن يحمل تلك الامانة الشاقة .

لقد قال من قال ايضا ان الرسالة المكتوبة او الحديث الملقى لا يكشفان عن الكاتب أو المحدث بمقدار ما يكشفان عمن يوجهان اليه . وهذا امر يعبر اعمق التعبير عن الصلة بين المعلم والمتعلم ، فالمتعلم الواعد المتوفز الى عالم الفكر يكاد يصوغ علم معلمه صياغة جديدة تولد من شرارة اللقاء بين فكر العالم والمتعلم . وليس كالنظرة الذكية والبسمة المبينة والهمسة الخجولة من طالب فذ طلعة ، شيء قادر على أن يضفي على علم المعلم وهجا متالقا واشراقة جديدة . انه بعض حصاد لقاء النفوس بالنفوس والعقول بالعقول والانا بالاخر كما يقولون . بل انه بعض مظاهر النفوس المؤتلفة التي يولد التعاطف الوجداني بينها مالا يولده العطاء العقلي وحده . وقد عرفت في حياتي التدريسية قلة من هؤلاء المتعلمين القادرين على الامساك بمقود السفينة جنبا الى جنب مع أساتيذهم ، وعلى الابحار معهم الى امواج الفكر ولجج المعرفة يقفون جميعا امامها ، معلمين ومتعلمين ، خاشعين عاجزين عطشى ، وكان المرحوم ظافر واحدا منهم .

وذلكم ان فقيدنا كان يرنو ، منذ طور مبكر ، الى ابعاد علمية وفكرية جديدة . وكان حسه المرهف يجرب ان يحتضن بدفئه وحنانه واقعا حضاريا ما تزال الافاعي ترتع فيه ، فينتفض حينا ويرتد على اعقابه ، وتأبى عليه شيمه حينا آخر ان يهزم ويستخذي ، فيجمع قواه ويجهد فكره لمحاربة الشر والضر . ومن وهج الصراع بين الهاجسين يولد افكاره ، ويحكم على ما يتلقى من معرفة ، ويسأل ويتساءل ويحاور ويجادل ، ولكن في اناة وصبر .

وقد تابع هذه الرحلة الشاقة في عالم الفكر وفي مصير الانسان بعد ان فارق مقاعد الدراسة وعمل بوزارة الثقافة ، وفي مجلة المعرفة بوجه خاص . لقد كان كل ما كتب وكل ما فكر فيه وقاله ولم يكتبه ، ثمرة

اللقاح بين فكره المتسائل، الذي ينظر الى العالم في دهشة وحيرة وعزم على اعادة صوغه ، وبين ما قرأ من نتاج عربي واجنبي . وظل حتى آخر رمق في حياته يقرأ ويكتب ويتساءل ، وفي نفسه مرارة وفي عقله غصة لم تفارقاه منذ كان على مقاعد الدراسة .

هذا هو الفقيد ظافر عبد الواحد ، تلميذاً في سمت استاذ ، واستاذاً في إهاب طالب ، وفذاً لا يجد في كل ما يتلقى وينشد من علم ، وفي كل ما يسوق من تساؤل وحيرة وقلق ، الا ذلك الخيط من النور في الافق البعيد ، افق حياة عربية ناهضة جديرة بأبناء هذه الامة ، وحياة انسانية كريمة لا مكان فيها لعدوان الانسان على اخيه الانسان .

للفقيد الرحمة ولأسرته صادق العزاء ، وعزاؤنا في افراد اسرته الذين ينتسبون الى معدنه الطيب ويتابعون سيرته ومسيرته ، بل عزاؤنا جميعا ان روحه حية بيننا ، وان حياته ، على قصرها ، قد اعطت الكثير الباقي وكانت وستظل مصدر وحي وإلهام ومحل قدوة وإعظام .

• • •

كلمة اتحاد الصحافيين في سورية

احمد حلواني

الزملاء الافاضل :

الكلمة المسحوبة من المعاناة هي الكلمة الصادقة الكلمة النابعة من الألم هي الكلمة المؤثرة الكلمة الممزوجة برائحة الخبز والمعاناة اليومية هي سلاح الصحفيين وغذاؤهم ومصدر نجاحهم .

ما من انسان اختار مهنة الصحافة إلا وكان ديدنه الكلمة المؤثرة والصادقة والمعبرة وذلك وحده هو الذي يحقق له الفرح والنجاح لانه مع كل مقال يكتبه او دراسة ينشرها او تحقيق يتابعه او صورة يرسمها او يلتقطها او لقاء يجريه يجد نفسه قد حقق جزءا من هدفه .

ذلك كان فيما احسب حال المرحوم ظافر عبد الواحد اختار الكتابة طريقا لاثبات وجوده وتعرض بالتعامل مع الكلمة المسؤولة بحكم ايمانه بفعلها ودورها فلم يكن مثل بعض المتراكضين على الصحافة للظهور او الوصول الى مكسب أو منصب ، تعامل مع الكلمة بايمانه وحبه فلقد كان يعني ما يكتب ويحاول جاهداً ن يزاوج بين الفكر والممارسة لذلك وهي جسده واسترخت افكاره بعض الوقت حين كانت تلم بالصحافة بعض الملمات من جراء انقلابات خاطفة أو تعسف اداري لا ينتمي الى اصالة هذا الوطن ولكنه كان يعود الى الكتابة مع اول فرصة فهو لا يستطيع ان يبتعد عن هذا العمل الجليل بحكم التكوين الاخلاقي والموهبة الصحفية والايمان باهداف الصحافة والاعلام تجاه المجتمع .

حياته كانت معاناة طويلة بين عذابات تأمين الحاجات الحيوية لبقائه واستمراريته وعذابات الحفاظ على طهارة ونقاء الكلمة المسؤولة وتلك هي عذابات الصحفيين الحقيقيين . عذابات لا حدود لها ولكن النقي الطاهر المؤمن بالكلمة والوطن العارف بقدرة الكلمة وتأثيراتها قادر على

المحافظة على شرف الكلمة ومسؤولية الكاتب وحق المجتمع في صحافة تعبر عن رؤاه وتطلعاته وأمانيه .

وعبر الآلام ودموع الأهل والأصحاب رحـل عنا ظافر عبد الواحد صحفيا وكاتبا واداريا الا أن الامل بالوفاء لمـن عمل صادقا والاخلاص لرسالة من كتب مؤمنا مـا زال حيا ينبض في كل بيت وحي ومدرسة ومؤسسـة لا بل في كل بقعة من بقاع هذا الوطن المعطاء الصامد .

امل كبير وشـعاع دائم لا ينطفىء ورواد في كـل ساحات الحياة ومجالاتها ، انتماؤهم لوطنهم وقضيته لا ينقطع . تلك هي بعض من قصة صحافيينا وذلك هـو بعض من املهم في اتحادهـم المولود ومستقبلهم الموعـود .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

* * *

كلمة اصدقاء الفقيد

الاستاذ نجاة قصاب حسن

ويا ترابا ؟ الأحباب قد سكنوا   قبله عن صحبه يا تربَ مثواه
وكن رفيقاً بــه فالرفــق معــدنه   واللطف والانس والحسنى سجاياه

لطيف هو هذا الرجل الـذي نجتمع في ذكراه . لقد كان على كثرة مجالاته وتنوع نشاطه واتســاع علاقاته ، كان من النــوع النادر الذي لا يفرض نفسه ولا تحس له وزنا يثقل على احد . متمنم ، أثيري ، يمر فتراه ولا تكاد تراه ، لا يقحم النظر ولا يفر منــه ، ثم تلمع في ملامحه بشاشة تنبع من سخرية ذكية ، وتترقرق من خلال صوت هادىء بطيء النبرات ، ومن خلال اسطر ناعمة الصياغة صادقة الحس .

كيف عاش حياته ؟ لم اكن اعرف بالتفصيل لانه لم يكن يفرض حديثه على الآخرين بل يمتاز بالحرص على الافادة دون التظاهر . وبعض ما اعرفه انه كان تلميذا ذكيا في مدرسة التطبيقات يوم كنت معلما في صفه ، ثم عدت في فترة من الفترات وكنت ازور عائلته فلقيته ، ثم عيّن في وزارة الثقافة وكان فيها مخلصا دؤوبا . وفي كل هذه الفترات ألمحه ثم يغيبُ ، ثم تذكرني به طلة لطيفة . فالمشاغل استغرقت الناس ونثرتهم كما تشاء ، ولذلك فحين قرأت اسمي على بطاقة الدعوة وانني القي كلمة الأصدقاء وجدت نفسي في هذه التسمية لانني كنت اشعر نحوه بود مؤكد ولو انني في السنوات الأخيرة نادرا ما التقيته . وسيان ، فنحن نجتمع اليوم لنحي ذكرى راحل سبقنا وكانما نتهيا لوداع بعد آخر .

منذ شهرين فكرت في لقاء فريق من أصدقائي القدامى ، ولكنني في مدى الشهرين رحل منهم ثلاثة قبل أن يتم اللقاء وهم عادل الحموي وعبد الرحيم الحصني وسلمي المارتيني ، والآن نجتمع في ذكر ظافر عبد الواحد . وقد يحدث لنا في هذه الهرولة المستمرة نحو النهاية ان نقرأ اسما على ورقة على جدار فنتحسر . الا ليتنا زرناه ، هذا الصديق الذي باعدت بيننا وبينه الأيام !.. وتستمر الايام في ركضها ونتحول

نحن الى اسماء على الجدران تثير ذكرى سريعة لدى معارفنا ، ثم يمضي كـل منهم الى عمله ، ومقصلة الزمان تلاحقـه وهو يفر منها متجاهلا لا جـاهلا .

في كل مرة اذكر الموت فيها لان غيري كان سبق وغادر ، اذكر انني جئت الى هذه الدنيا ولم يكن لي راي في هذا المجيء . لا اخترت ابوي ولا اسـمي وديني وصفاتي ، ولا زماني ومكاني والوطن الذي يؤويني ولا البلدة التي ابصر فيها النور . كلنا لم يكن لنا راي ولو خيرنا لعجزنا عن أن نختار : هل ياتي في الزمن الراكد البطيء الذي شهده اسلافنا ام في هذا الزمان ، في عصر الانهيارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي من كثرة ما ادهشت اتعبت الدهشة ؟!

ولكنني لا آسف على انني جئت ولـو كنت اعرف ان الرحيل غير بعيد . ننتهي ، ننتهي ! ولكن لا نقول كان بودنا الا نكون جئنا . وحين التقي مع الآخرين على دموع مشتركة تشيع راحلا انما نكون كلنا نتداول حقيقة الوجود ومعناه .

وقد تاملت فوجدت ان الحياة حادث بالمعنى الفلسفي ، لان لها بداية وسيرورة ونهاية ، أما الموت فليس حادثا . ليست له بهذا المنظور بداية وسيرورة ونهاية . وحين نضع المتضادات الاسمية وضعا صحيحا نجد ان الموت ليس مقابل الحياة . الحياة مقابلها الجمـاد ، والموت يقابل الولادة . الموت لحظة من لحظات الحياة حين تكف عن الحرارة والخفقان والوجود . كما تبدأ الحياة بالولادة تنتهي بالولادة . اذن فليس للموت وجود في ذاته والحياة وحدها هي الوجود .

وبالتالي فالمهم ان نعيشها وان نملأها بالعمل ، بالمسرة ، بالفرح وحتى بالالم المنشط المنبه المحيي . وحين يكف واحدنا عن الوجود كانسان حي يجب ان نسال السؤال الوحيد الذي هو الجدير بان يلقى : فهل عاش حياته وملأها حتى الحافة ، ام انه حضر وما حضر ، وعاش ولكن ماعاش؟

واعتقد ان فقيدنا عاش ، لانه وُجِدَ وعمل وانتج وابهج وابتهج وابتسامته كانت دائما تشـع وتشعر الناس بانه وجـود سار بل كان بسخريته ونقده أكثر من منفعل ، كان فعالا وايجابيا .

وقد عرفته بما يكفي لاقول انه لم يكن من الصنف الذي يأتي ويذهب فكانه لا جاء ولا راح . انــه عاش حياة منتجة رغم ما تخللها من آلام . حياة تكاد تقــول للناس : يا اخوتي عيشـوا قدر ما تستيطعون ، كمـا تستطيعون ، هذا هو الاهم في بعض الاحيان افكر في الموت ، هذا اللعين الذي يلاحق الناس ، ثم أرحمه لانه لا يلاحق احدا . الناس هم الذين يسعون اليه كانما هم معه على موعد لايخلفونه . وقد يكون راحة وخلاصا، وقد يكون بداية لحياة اخرى واغنى واكثر بهجــة ، ولو حياة في ذاكرة معارفنا وفي الحرف والكتاب . ومن عاش في الذاكرة وفي الكتاب والحرف مــا مـــات .

والشكر لمن دعوا الى هذا الحفل ، فان فيه تكريما للعمل والخلق والتواضع والصبر والنعومة ، رحمه الله .

* * *

الموسيقى الشعرية ... والجمال

محمد منذر لطفي

- ١ -

اذا كان بعض النقاد يرى ان الكاتب قلب ينخبر .. وعقل يفكر .. وقلم يسطر ، فحيث لا شعور لا فكر .. وحيث لا فكر فلا بيان .. وحيث لا بيان فلا ادب ، وبالتالي فان [الشعور والفكر والبيان] عناصر ثلاثة ، لا يكون انسان كاتبا إلا إذا توافرت له اكثر من توافرها لسواد بني البشر ، ولولا تفاوت الناس بها لكان كل من عرف القراء والكتابة كاتبا .. الخ ..

– محمد منذر لطفي : اديب وشاعر من سورية ، رئيس اتحاد الكتاب العرب بحماة ، ينشر في الدوريات العربية والمحلية ، من اعماله « اغنية الى حبيبتي » ، « الموت في شباب النهار » .

فانا ارى ان الشاعر ـ بالاضافة الى ما تقدم ـ قاصٌ يروي جميع ما ذكر من [شعور وفكر وبيان] في قوالب موسيقية ملأى بالجمال ، يُعبِّر من خلالها عن انفعالات نفسه .. وتموجات عواطفه .. وتقلبات أفكاره وصوره وخيالاته فيما يسمعه او يراه او يشعر به .

- ٢ -

والشعر هاجس الانسان الاول ورؤياه الفنية الحالمة منذ وجد على هذه الأرض ، وهو ايضا لغة النفس الانسانية ، والشاعر هو المخلوق الأوحد المُعبِّر عن تلك اللغة .. والترجمان الامثل والاصدق لها ، لذلك فقد رأى الاقدمون انه ـ اي الشعر ـ لا يليق بتلك اللغة ما لم يكن ملتزما بأوزان ذات موسيقى والحان ، لانهم وجدوا ان تلك الاوزان تساعد على تنسيق الجمل وتوازنها عند التعبير عن العواطف والأفكار ، كما وجدوا ان في التوازن سرا من اسرار الجمال ، وكذلك شاركهم معظم المحدثين تلك الرؤية ايضا ، وفي هذا المجال يرى الكاتب والناقد « ميخائيل نعيمة » على سبيل المثال ان النفس التي تلد عواطف جميلة وافكارا حية ناضجة هي نفس مستيقظة .. نفس شاعرة ، وما تلده مثل هذه النفس هو الفن .. والفن اذا اتخذ الكلام المنغَّم كان شعرا .. الخ ..

- ٣ -

ومن المسلَّم بـه ان الأوزان نشأت نشوءا طبيعيا ، وكان سبب ظهورها ـ على ما يبدو ـ ميل الشاعر الى تلحين عواطفه وافكاره ، لانه وجد ان الكلام المتوازن المقاطع أسهل للتلحين والحفظ من الكلام الذي لا توازن بين مقاطعه من حيث الطول والقصر ، وان موسيقى الأوزان تزيده جمالا آسرا على جمال ... وبيانا ساحرا على بيان .. لذلك ألحق الوزن بالشعر ، ونما معه نموا طبيعيا، فكان يتكيف بالشعر .. ولا يتكيف الشعر بـه .

هكذا نما الشعر العربي ، وهكذا نمت أوزانه ، وما زال الشعر سابقا والوزن لاحقا الى ان اتى « الخليل بن احمد الفراهيدي » فجمع كل ما توصل اليه من الأوزان ، فبوبها .. وحددها .. وجعل لكل منهـا

قواعد ، ولكل قاعدة جوازات ، وللجوازات جوازات ايضا ، وهو لم يقصد من وراء ذلك إلا الخير .. ولم يتوخ إلا خدمــة لغة عزيزة عليه كما يقول « ميخائيل نعيمة »(١) .

- ٤ -

وقد عرف الشعر الوزن والموسيقى منذ نشاته في قديم الزمان وغابر العصر والاوان ، فها هو « داود » يرتل « مزاميره » شــعرا منغما ذا موسيقى والحان ، وها هنّ عذارى « هوميروس » يغنين « شعرا » امجاد زمن غابر فيسحرن بغنائهن الآسر الشجي مسافري سفينة « أوليس » ، وها هو ذا الملك المصري العظيم والشاعر الفرعوني القديم « اخناتون » يكتب قصيدة تعتبر من اولى قصائد التاريخ الكبرى ، يرفعها للاله الواحد « آتون » المتجسد في الشمس .. مصدر الضوء والدفء وكل ما على الأرض من حياة فيقول :

[ما اجمل مطلعك في افق السماء .. اي « آتون » الحي .. باعث الحياة في الكائنات ..

فاذا ما اشرقتَ من الافق الشرقي ملأت الارض ، كلها بجمالك ..

ومهما بعدتَ فانّ اشعتك تغمر الارض ..

ومهما علوتَ فان آثار قدميك هي النهار ..

واذا ما غربتَ في افق السماء .. خيم على الارض ظلام كالموت ..

ونام الناس في حجراتهم ..

وخرج كل أسد من عرينه ..

وزحفت الافاعي كلها ..

واستراحت الاغنام في مراعيها وهي واقفة على ارجلها ..

ورفرفت الطيور باجنحتها المرفوعة تسبّحُ بحمدك ..

لانّ الذي صنعها يستريح في افق السماء .. !] .

وها هو ذا شاعر بابلي مجهول يقدم « نشيد بابل للأم عشتار » فيقول :

[إنها المليكة مطاعة من الجميع .. ومطيعة للجميع .. ! ..

وعندما تدجي السماء .. نستمد النور منها ..

إننا نجلها حقا على السواء .. رجالا ونساء ..

فهي مبعث الخصب .. والأمل .. والحب ..

وهي مبعث الحياة على الدوام .. !] .

— ٥ —

وها هي ذي شاعرة فرعونية من مصر القديمة ايضا تخاطب حبيبها بهذه المقطوعة الشعرية الجميلة .. التي تجسد من خلالها الرقة والعذوبة والشوق الانثوي للحبيب بأحلى صورها .. فتقول :

[إنه لمبهج حقا يا حبيبي الذهاب الى الغدير ..

هناك ساستحم بحضورك ..

وساتيح لك ان ترى جمالي .. وتتمتع بمفاتني ..

وانا في ثوبي المصنوع من الكتان الملكي الناعم عندما يغدو مبللا .. !

سوف انزل معك الى المـاء ..

واعود .. ومعي سمكة مذهبة .. جميلة وحمراء .. تستريح بنشوة على اصابعي ..

تعال يا حبيبي .. فانا ادعوك ..

تعال لانظر إليك كثيرا ..

تعال لتنظر إلي كثيرا .. !] .

وقد استطاع الشاعر العربي المصري الرومانسي المجدد « علي محمود طه » ان يعيد نظم هذه المقطوعة باللغة العربية .. نشره في الطبعة الاولى

من ديوانه [الشوق العائد] الصادر عام ١٩٤٥ عن دار احياء الكتب العربية في القاهرة بمصر ، وذلك بعد أن وجدها مكتوبة على قطعة من الفخار.. محفوظة في متحف القاهرة.. إثر نشرها من قبل «شبيجلبرج» تحت عنوان [أحلام عاشقة] بعد اكتشافها .. فقال :

يا للسعادة .. يا حبيبي .. حين اهبطُ للنهرْ

كي أستحمَّ .. وأنتَ تمعنَ في مفاتنيَ النظرْ

✶

اشتاقُ انْ اجلو امامكَ يا حبيبُ محاسني

بغلالةٍ مُبتلةٍ كشفتْ جميع مفاتني

✶

اهوى إلى الماء الهبوط .. واشتهي انْ اتبعكْ

واشدُّ ما اهواه منه .. صعودنا .. وانا معكْ

✶

بيديَّ من سمكاته .. حمراءَ .. رائعةَ الجمالْ

فتعالَ انظرْ إليكَ .. تعالَ وأنظر لي .. تعالْ ..!

✶ ✶ ✶

وتلك هي « سافو » شاعرة الإغريق الكبرى تغنّي حبها العظيم للبحار « فايون » .. ذلك الحب الذي ملأ قلبها وعقلها وحياتها .. وذلك من خلال قصيدة رائعة تم اكتشافها مؤخراً مع بداية القرن العشرين .. مخطوطة على ورق البردي .. تحمل عنوان « الطريق إلى كوكب السعادة » .. فتقول :

[لقد اكتشفتَ يا حبيبي ان كوكب التفاؤل هو كوكب السعادة ..

ورغم بُعدكَ عني .. أيها البعيد القريب ..

فسابقى فوق ذلك الكوكب المضيء ..

الذي لا بد وان يجذبك إليه ثانية ذات يوم ..

ليتحقق لقاؤنا المفعم بالنشوة والحب من جديد ..

وعندها يثبت التفاؤل ـ مجدداً وكالعادة ـ انه الطريق الرئيس إلى كوكب السعادة ..

إن لم يكن هو كوكب السعادة ذاته ..!؟ .

- ٦ -

بقي أن يعرف القارىء الكريم أن هذه النصوص الشعرية الاربعة القديمة المترجمة نثراً قد كتبت بلغاتها الأصلية ضمن قوالب الأوزان الموسيقية الخاصة بلغة كل منها ، وهو ما زادها جمالاً على جمال.. وبياناً على بيان .. واكد بالتالي صحة مقولة « جان برتلمي »(٢) الذي يرى « أن جمال القصيدة يأتي بنسبة كبيرة من أن وزنها يتفق مع أوزاننا الحيوية من شهيق وزفير ، ومن ضربات القلب ووقع الأقدام عند المسير .. ويأتي الإبداع الشعري ـ حسب وجهة النظر هذه ـ من الاتحاد بين الروح والجسد .. أي بين الفيزيولوجيا والتصوف » .

(١) انظر كتاب « الغربال » للكاتب « ميخائيل نعيمة » .

(٢) صاحب كتاب « بحث في علم الجمال » ـ ترجمة « أنور عبد العزيز » القاهرة ١٩٧٠ .

نافذة على العالم

كمال فوزي الشرابي

آداب

●● فيرنر فون هايدنستام Heidenstam الشاعر والروائي وكاتب الدراسات السويدي ، نبذة عن حياته واعماله ومختارات من اشعاره .

ينتمي فيرنر فون هايدنستام (١٨٥٩ — ١٩٤٠) الى اواخر القرن التاسع عشر الذي منح فرنسا كتاباً كباراً كبيير لوتي وموريس باريس ، اي الى الحساسة العالمية الحادة وحتى المتمردة ضد القيم البورجوازية الاوروبية ، كما ينتمي الى وطنية ثائرة مع طموحه في ان يجد لها تعبيرا كونيا .

— كمال فوزي الشرابي : اديب وشاعر من سورية ، يعمل في مجال الترجمة ، من مؤسسي مجلة « القيثارة » ، من اعماله « قبل لا تنتهي » ، « الحرية والبنادق » .

ينحدر هايدنستام من اسرة المانية حصلت على لقب نبيل واستوطنت السويد . وبدلا من أن يتابع دروسه الجامعية ، أرسله والده ، بالنظر الى صحته العليلة ، ليقوم بجولة في الشرق . وهكذا زار كلاً من مصر ، وفلسطين ، وسورية ثم اليونان قبل أن يعود الى روما وباريس ، حيث تعلم الرسم على يدي الرسام الاكاديمي الشهير جيروم . ثم تزوج ، وقضى بعد ذلك فترة قصيرة في سويسرا والريفييرا ، وصادق الشاعر السويدي الكبير ستريندبرغ الذي كان واياه دوماً على طرفي نقيض في آرائهما وافكارهما . وتشكل الرسائل المتداولة بينهما مستنداً اساسياً . ثم عاد الى السويد على اثر وفاة والده حيث بعثر رماد جثته على احدى البحيرات التي يقوم على احدى ضفافها القصر العائلي الذي ورثه عن ابيه . كتب في رسالة الى ستريندبرغ : « كان مشهداً من مشاهد السمو الوثني » .

في عام ١٨٨٨ أصدر مجموعته الاولى من القصائد الغنائية بعنوان (حج وتشرد) وهي مزيج من الشعر الموزون والنثر ، وتقف ضد تيار المذهب الطبيعي المسيطر آنذاك ، وتمجد الاغذية الارضية التي تلوثها الشاعر من دون ما اكراه . في العام التالي عرض هايدنستام افكاره الادبية في منشور وجيز أصدره بعنوان (انبعاث) حيث اعلن رفضه الكتابة بالدم ، وهاجم التشاؤمية التي سماها مرضاً المانياً ... وكانت تلك الحقبة في السويد حقبة الشعراء سلمى لاغرلوف وغوستاف فرودينغ واريك آكسيل كارلفيلا .

ثم أصدر شاعرنا روايتين رمزيتين ، الاولى بعنوان (انديميون ، ١٨٨٩) والثانية بعنوان (هانس اليتيوس ، ١٨٩٢) وهذه الاخيرة ذات نفس ملحمي ، وذات ابهة وضبابية تروقان لمعاصريه من الرسامين كغوستاف مورو اوجيروم . وحرص هايدنستام على التغني بالعبقرية السويدية في مجموعته (اشعار ، ١٨٩٥) حيث تتلون الملحمة القومية بالاغرابية او المجلوبية ، وتعبر عن روح العصر .

بعد رحلة زار فيها روسيا وتركيا ، انصرف الى الاهتمام بسلسلة من مستوحيات الماضي السويدي ، ومستلهمات التقديس الابتدائي

للابطـال القوميين . وهكـذا اصـدر (شارل الثاني عشر ، ١٨٩٧) و (سويديو شارل الثاني عشر ، ١٨٩٨) وهو يوقظ فيهما الروح البطولية لدى الشعب السويدي ، وقوته الخلقية ، وصرامته تجاه نفسه . ثم أصدر روايــة (ماغنوس لارولاس ، ١٩٠٧) وهي تمثل انتصار المثل الأعلى الفروسي على الهمجية . وانطلاقاً من هذه الجمالية الوطنية توصل هايدنستام مبكراً الى اتباعية ذات طابع اكثر حميمية ، على النمط الذي اتبعه غوته في أعماله ، وذلك في كتبه التالية : (الاتباعية والجرمانية ، ١٨٩٨) ، (أيام واحداث ، ١٩٠٩) ، (كتابات هجائية ، ١٩١٢) ، (أشعار جديدة ، ١٩١٥) .

وانتخب هايدنستام عضواً في الاكاديمية السويدية عام ١٩١٢ ، وفي عام ١٩١٦ حاز جائزة نوبل للآداب .

وفيما يلي ترجمة لمختارات من قصائده :

١ ـ ضوء القمر

لا أدري لماذا أسهر :
لم يمنحني النهار اي فرح ،
وكل ما عرفته في حياتي من مجد ،
وكل ما جرفه الظلام والعذاب ،
كل ذلك ليس في الليل سوى
نهر يتالق ويرتجف .

٢ ـ نحن

نحن الذين نتواجد لبضع لحظات قصار
جميعنا انبثقنا من الفرين ومن المعجزة ذاتها
على هذا الراس من العواصف ، مسرح حياتنا !

هل يجب علينا ان نمضي بلا قلب ولا حب ؟
تنتظر العزلة ذاتها كل واحد منا ،
وتنتظر الاغنية الحزينة ذاتها بين عشب الموتى .

٣ ــ مرثية الشاعر غوستاف فرودينغ

يذهبون بعيداً ،
يدخلون بكماً
الواحد تلو الآخر في عالم الظلمات .
الاجراس تقرع . وبشكل أصم
يصفق المصراع نحيبها
ليرافق موكب الموتى .

* * *

على بعد الف فرسخ من هنا
اسمع خفق الاجراس .
وبلادنا المتوهجة بأسرها تحت الشتاء
تسمعها اليوم تسمعها .

انت يا صيفنا ، ويا ربيعنا المزهر ،
انت ، يا أيها القصب المغني قرب ضفاف البحيرة !
انت ، يا مغنينا ، نم استراحتك الاخيرة ،
وانت محمول على الف يد !

* * *

كان شعرك أبيض ولحيتك طويلة .
وكانت الشمس تضيء كلمات كتابك المقدس

حين كنت تجلس مستنداً الى الجدار
وشبيهاً بأيوب على كومة من الرماد والأرض .
يا لها من عظمة في حياة الانسان :
حلم ، أسطورة ، نهر مزبد ،
امواج ، شعل ، جوقة عواصف :
لكن الانسان نفسه ليس الا قشة هشة .

* * *

ميت ، ميت ، يجيبه صوت ،
حين يخلق ، حين يسأل ، حين يترصد .
كل شيء باطل .
كل شيء يموت على الارض ، كل شيء يموت .
والانسان هو مبدع نفسه .

* * *

أيها الشاعر ، من أبواب الليل
اذهب لتنضم كملك الى جماهير الظلمات !
ويبقى لحن مزهرك الصافي لأجلنا
خالداً ، خالداً لا يموت .

٤ ــ حيث تنتهي الطريق

حين تقبل برودة المساء ، ستبلغ الحكمة
والقمم البعيدة التي سيعانق منها
نظرك العالم .
أيها الملك ، حيث تنتهي الطريق ، عد ،

واسترح وانظر إلى الوراء :
من هناك كل شيء يبدو صافياً ، وكل شيء راضياً ،
وسيعاود سراب صباك ظهوره
متألقاً بالضياء وبالندى الجديد .

٥ ـ على رخامة قبره

هنا يرقد
رماد رجل هرم
معترف بجميل السر الكبير
وشاكر فضله
الذي اتاح لـه
ان يعيش على الارض
حيـاة انسان .

●● (الحب المجنون او الحب من اول نظرة) مقال للكاتبة الفرنسية كاترين كليمان Clément ، مؤلفة كتابي (طعم العسل) عن دار غراسيه و (غاندي) عن دار غاليمار .

« رأيته ، احمر وجهي ثم شحب لدى رؤيته / اضطربت روحي المضيعة / لم تعد عيناي تبصران ، لم يعد بمقدوري الكلام / شعرت بجسدي كله يتجمد ثم يحترق ... » .

عاطفة الحب ، والعشق من اول نظرة قيمتان مطلقتان . ويدرك البشر الفانون الميزة التخديرية لجميع العـواطف الاخرى ، ويستطيعون أن يكشفوا عن صلتها المرضية ، تلك التي تلتهم الزمن وتمنعهم من العيش . أما حين يكون الحب هـو المقصود فان المعيـار يعتوره الصمت والعفة وينقلب : فمن لم يحب بجنون لمرة واحدة في حياته ليس جديرا بأن يعيش في هذا العالم الذي هو عالمنا . الف عذاب ينجم عن ذلك ، والف شقاء

مضن ، ترى هل يلتهم الحب المجنون الايام ويناقض الحياة ؟ ما من شك في ذلك ، ولكن كما ان البشر في القرن السادس عشر كانوا يتباهون بامراضهم التناسلية ، فانهم اليوم يتباهون بجراحهم العاطفية وبأسرارهم الخفية التي لا يريدون الافصاح عنها .

يقول الفيلسوف الفرنسي المعاصر جاك لاكان في احدى ندواته عن الجنس : « الحديث عن الحب بحد ذاته متعة » ، ويحارب بشجاعة اشباح المستحيل . وما دامت المتعة تبدأ بالحديث عن **الشيء الخفي** ، فان عاطفة العشق لا تفتأ تنتقل بوسائط النقل العادية للأساطير : كالقصائد ، والمسرحيات الفاجعة ، والصحف والوقائع المختلفة ، والروايات ، والافلام . وآخر هذه الافلام هو فيلم (الجميلة التي انت لا تستحقها) للمخرج الفرنسي برنار بلييه BLIER ، وهي قصة حب مجنون تدل ولادته من أول نظرة على انه يستطيع ان يقرب بين شخصين كان من المستحيل عليهما ان يتقاربا ، وهما صاحب المرآب وسكرتيرته ، وهما ايضا الكونتيسة الحافية وعابدها الخصي ، والدوقة دو لانجيه وجنديها الجميل ، وايزولده وأسوأ اعدائها . ومن دون ما تجاوز نقول انه لا يوجد عشق حقيقي ، وكلما اتسعت المسافة كانت البداية اقوى . وسيكشف الحب من أول نظرة فيما بعد عن اللحم اللامرئية وعن الاندماجات الشرسة . فالدوقة تبحث عن معلم وتجده ، والراقصة الشعبية الشبقة تبحث عن زوج نبيل لتوقف جموحها ــ وتجده ولكنه عنين . وصاحب المراب يبحث ويعثر على امراة شهية ولكنه مع ذلك يرغب عن العيش معها . ويبحث تريستان عن امه المتوفاة ويعثر عليها وهو يقود بنفسه محبوبته الى سرير والده الذي تبناه .

* * *

ان المصعوقين أو الذين يحبون من أول نظرة يقعون تحت تاثير العمى الكامن في اول نظرة . ويبدو عليهم في البدء الجمود ، فلا صوت لهم ولا رؤية بل رعشات . ولا زمن لديهم ولا حركة بل توقف عند الصورة . وينظر تريستان الى ايزولده وهي تشهر سيفا . يقول فاغنر في اوبراه (تريستان وايزولده) : « رفع نظره اليها ... لا الى الحسام ... لا الى

يدها . . . ونظر في اعماق عيني » اذ لم يعد ثمة نبـغ ، ولا جسد ، ولا حياة : لم يبق سوى التوقف . فالزمن الاول للصاعقة هو زمن الشجرة التي احترقت .

وفيما يشبه الدوام تكون التتمة شرسة لا يمكن تحاشيها . ان الحياة تقاوم ، ولا يمكن المصعوق ان يستسلم . فالدوقة دو لانجيه تتابع لعبتها كامرأة لعوب باردة جنسيا لتقطع الطريق امام ما يشعر به مونريفو من عشق . وتنفي فيدر لدى جان راسين هيبوليت : « كنت اتحاشاه في كل مكان » . ويدير صاحب المراب وسكرتيرته ظهريهما بعناد لاتقاء شفافية الزجاج . وعلى المركب الذي يبحر من ايرلندا الى بلاد الكورنواي يثور غضب ايزولده ، ويظل تريستان منزويا على عناده . ووجدها براءة كبرى تستطيع ان تدفع الاعمى الى ان يتابع في خط مستقيم ، كالراقصة ، اندفاعه للارتماء بين شدقي الذئب المحب .

في لوحته (حديقة اللذائذ) يظهر الرسام الهولندي جيروم بوش BOSCH العاشقين عاريين وهو يتطلع الى التعبير عن مقاومتهما للحب الصاعق . ولكن الكره ما يلبث ان ينقلب الى حب ، وتبقى جامدة تلك الحرارة والبرودة والرعشة التي تجمع اخيرا بين الشقيين الضائعين الذائبين المتجمدين . الم يقل اراغون في احدى قصائده انه لا يوجد ابدا حب سعيد ؟

ولكن ها هنا يبدأ السحر مع ذلك . وهنا نحن أمام المبدأ الأول القائل « ان لياليّ هي اجمل من أيامك » . والفندق الصغير الذي يجتمع فيه صاحب المراب بسكرتيرته هو نوع من انواع الليل لا يقل في صوفيته عن ليل الفصل الثاني من (تريستان وايزولده) لفاغنر . وفي اثناء الليل تختطف الدوقة دو لانجيه طواعية ، وتظهر باعتزاز ذات ليلة عريتها فارغة لتبين خضوعها . وفي اثناء الليلة الاولى يقول الكونت للكونتيسة الحافية انه لم يعد يملك عضوا تناسليا ، وفي ليلة اخرى يقتلها . فمن الليل ينبثق المبدأ الثاني المسمى مبدأ الاندماج . ولا يعود الظلام يتيح التمييز بين بزوغات الفجر الرمادية ، ولا بين الأجساد . لا يعود هنالك اية جاذبية ، ولا اي جوع او عطش ؛ وتتحدث السكرتيرة عن نشواتها الجنسية الى

الراكبين العابرين في المترو ، ولا يسمع تريستان وايزولده انذارات الليل ، ويمزج العاشقان بين تغريدي القبرة والبلبل ، ولا يريدان ان يشعرا بأصوات العالم . ويتحدثان ، يتحدثان كعجوزين ثرثارتين . فنحن امام « العناق ، العناق المندمج الذي تدافع فيه المتعة عن ذاتها » ، كما يقول لاكان .

اما المبدأ الثالث فهو اللاعودة او الذوبان . لم يعد احد العاشقين في الآخر بل أصبحا يشكلان شخصا واحدا . يقول جاك لاكان : « لسنا سوى شخص واحد ، ومن هنا تنطلق فكرة الحب » . وتحت الشجرة الأصلية للحب من اول نظرة — وحول هذه النقطة قال فاغنر كل شيء — يلعب العاشقان لعبة من يخسر يربح : « أنت انا ، وانا انت » . فالنهار بحسب هذا المبدأ هو الليل ، والحياة هي الموت . وكل شيء مسموح به . ولا يغير المرء هويته ، ولا يحقد على الاطلاق . فتريستان يريد ان يكون ايزولده ، وايزولده تريد أن تكون تريستان .

هناك دوما قائد يذهب الى ابعد من الآخر . انه فيدر او الدوقة ، انه الكونت او صاحب المراب . وفي اوبرا فاغنر تريستان هو القائد . ومع ان ايزولده اكثر حيوية فهي تتحفظ او تتكتم : ما ترانا نصنع بهذه « الواو » الموجودة بين تريستان وايزولده ؟ يقول جاك لاكان : « ألا يسمى حبنا تريستان — و — ايزولده ؟ ماذا يجمع هذا الحرف الصغير الآن عذوبة بصلة الحب ؟ » . وانها لعذوبة قصوى . وحينئذ ينطلق تريستان في غناء ذوبانه الأسمى : « سنموت هكذا ، بلا فراق ، ولن نشكل الى الابد سوى شخص واحد ، بلا نهاية ، ولا يقظة ، ولا قلق ، شخصين مغفلين ، مزجنا الحب ، واحدنا للآخر بشكل مطلق ، لنعيش للحب فحسب ! » .

كان فرويد يسمي هذه الحالة « العاطفة المحيطية » اذ تمحي فيها جميع الحدود ، ولا يبقى سوى الافق والابدية . ولكي ينطلق تريستان بشكل أسرع ، فإنه ينزع عصائبه ويجعل الدم يتفجر من جرحه . اما ايزولده فهي تغادر جسمها بلا جهد وسط الموجات الملونة للتوسع الموسيقي ، يجري كل هذا طبعا على المسرح ثم يسدل الستار . ففي

الحياة يستطيع الانسان ان يتخلص من ورطته كما يقول صاحب المزاب : « طبعا استطيع الخلاص ! » . على ان المرء اذا خرج من هذه الورطة حيا فانه يبقى جريحا وهناك ندبة كبرى في قلبه .

يعود تاريخ نشر كتاب المؤلف السويسري دوني دو روجمون Denis De Rougemont وعنوانه (الحب والغرب) الى عام ١٩٣٨ ، وقد طبع للمرة الثانية عام ١٩٥٦ . ويرى هذا الكاتب ان سيناريو الحب المجنون، وقد ورثه الغرب عن القرن الثالث عشر وعن عصر الحب المهذب، لم يفقد شيئا من حيويته . والسينما هنا لتظهر ذلك في افلام ك (بيير والمجنون) و (العاشقان) ولدى مخرجين هم جان ـ لوك غودار ، ولوي مال ، وبرتران بلييه . وكان الحدس الذي قاد دوني دو روجمون نحو الشرق يدفعه ايضا الى الصوفية ، وهي « محرّم » نعرف اليوم ايضا انه يلتقي بدروب من التخدير « القاسي » . ولم تظهر له القرابة بين هذا « المخدّر » والعشق ، مع العلم بأنها من البداهة بحيث قدم لنا الشرق مفاتيحها .

* * *

لننظر الى الهند ، هند الهندوسيين ، وهم يشكلون سبعمئة مليون من اصل ثمانمئة وخمسين مليون هندي ، ففيها نجد ما نشاء في مادة الحب الالهي . وافضل من ايروس الغربيين ذي السهام الذهبية ،الموجودة صورته الهندية لديهم وقد صعقه إله لم يكن راضيا عن اعماله ، نعثر على إله مراهق عبدته منذ آلاف السنين اسراب الحسان الورعات . وفي ليلة من ليالي الربيع رقص مع آلاف من الراعيات عشيقاته قبل ان يمتلكهن واحدة فواحدة ثم جميعا في الوقت ذاته . والافضل من ذلك انهن كن جميعا متزوجات . وهكذا فان الف ايزولده في هذه الاسطورة يعادلن تريستان واحدا . أضف الى ذلك ان الاله الجميل ذا الناي المسحور هو ايضا متزوج ، وهذا يعني التقديس المطلق للزنى الجماعي او ما يسمى بالهندوسية « الراسليلا Raslila » . اما الاله المشوه من قبل اتباعه في الغرب فاسمه كريشنا الكئيب . ويقدم التلفاز الهندي بانتظام هذه المشاهد الريفية . على ان اسطورة الحب بين الرجل والمراة ، واعني الحب

الصاعق الحقيقي المشترك ، فلا آثار قوية لها . وانما يجب الرجوع الى الأغنياء للسماع عنها .

« فاذن كيف يبدأ الحب لديكم ؟ » . ان طرح هذا السؤال بشكله اليومي التقليدي يزعج لا بل يثير الغضب . وحين طرحناه على أحد الأساتذة الهندوسيين خرج وهو يصفق الباب وراءه ويتلفظ بكلمات تشير الى بذاءة الغرب . اما الآخرون ممن سألناهم فكانوا أكثر صدقا وأقل انفعالا : « الحب الدينا لا يبدأ » . هل هذه العفة متوارثة عن الراجاوات الانكليز ؟ لربما ، وان نكن غير واثقين بذلك .

ولكن لنبق في سيناريو الاسطورة . فالمبدأ الهندي الاول يقول : ان تقارب الرجل والمرأة هو قضية تتعلق بالزواج ، وليس الزواج قضية المتزوجين . فنظام الزواج المرتب ، من طبقة الى طبقة ، وبين الديانات المختلفة هو نظام يتسم بطابع الأكثرية القصوى في الهند الديمقراطية الحديثة ، حتى ان الدولة تمنح مكافآت لمن يتزوجون من غير طبقاتهم . وهذا يذهب حتى الى نفي ما أصبح لدينا ، بحسب المؤرخ جورج دوبي DUBY في كتابه (القرن الوسيط الذكر) ، زواج الحب ، وما أصبح شائعا الى حد ما في مناطقنا .

أما المبدأ الهندي الثاني فهو يقول : ان القانون العام ، الذي يشكل التناسل المنتج قسما لا ينفصل عنه ، يقود الى استكمال نظام ينكر الفرد قبل كل شيء ، وذلك الى درجة اننا لا نرى فردين يعثر احدهما على الآخر حتى لكي يصبحا في حالة ذوبان او التحام كلي فيما بعد .

نصل الى المبدأ الهندي الثالث الذي يقول : كما انه يجب ان يوجد الحب الصاعق او من اول نظرة في مكان ما ، فان ما يعادل هذا الحب موجود بشكل مؤكد . وأعراضه ـ وهي التحجر المفاجيء ، والرعشات ، والاحساس بالحرارة والبرودة ، والتحام الواحد بالآخر لهذه الحياة وللحيوات الآتية ـ مهيأة جميعا لتلبية النداء . ولكن ذلك لا يجري بين رجل وامرأة ، وانما بين معلم وتلميذ او تابع ولا أهمية كبرى للجنس هنا .

ولكي يستجيب التلميذ لنداء المعلم فان جميع المخالفات في الواقع

مسموح بها ، اذ يستطيع هذا التلميذ بل يجب عليه أن يهجر أسرته ، كما فعل الرسل من أجل السيد المسيح . وفي هذا الفعل ذاته ، حيث تنبثق الطوائف ، يرى لوي دومون DUMONT في كتابه (الانســان وطبقات المجتمع) أصل الديمقراطية والفرد ـ وذلك لأن الطبقات في هذه الحال لا يعود يحسب لها حساب . ويكفي أن ينضم التلميذ الى المعلم : « منذ زمن طويل وأنا أنتظرك » يقول المعلم للتلميذ الخجول ، ويضع رأسه تحت قدميه . ولا يمكننا أن ننكر أن هناك شيئًا من الحب ، وأن المقصود الحب من أول نظرة . ولكن على العكس من عالمنا هناك مبدأ رابع فاعل يربط ما بين الرقص والتناسخ ـ وهو مبدأ يأتي في حينه ليبين لنا الترابطات الآتية من حيوات سابقة ـ وبين نظام الطبقات .

* * *

ذلك أن مبدأ الافتراق ، عبر حب التلميذ من أول نظرة لمعلمه ، يسمح للنظام أن يبقى على حاله ، بلا حراك ، يضمنه أولئك الذين يفرون خارج التقارب المحب المزعج فيما لو لم تنظم . ففي الغرب يسحر الحب من أول نظرة ويثير الاضطراب والازعاج على الدوام ، أما في الهند فهو متوقع كصمام ، ولا يعود يتصف تماما بـ « الإنسانية » . ذلك أن الطريق الذي سيجعل المعلم التلميذ يتبعه فيه يقوده منهجيا الى الخروج من وضعه كانسان، وهو وضع غير ذي أهمية . وعلى هذا فمهما تكن تأثيرات البوذية في فاغنر ، فان قضية تريستان وايزولده تحتفظ حتى نهايتها بطابعها الانساني : صحيح أنه هو يموت حبا ، وهي تنتهي في النشوة أو الوجد الا أنهما ما يزالان ينتميان الى كوكب البشر . ويرتفع حولهما النواح . ويتعلم التلميذ قرب المعلم أن يغير وضعه ، ويفقد تدريجا هويته الشرعية لصالح لا تعاطف مسبق ، ولا مجال للنواح حين « يهجر المعلم جسده » وما يفصل البعض يربط جميع الآخرين بعضهم ببعض .

ثمة حب من أول نظرة تحميه اللعنة الاجتماعية ، وحب من أول نظرة يدوم بمباركة الجميع : ونفهم أن الهجرة نحو كاتمندو Kathmandou أو غـوروا GOA هي ذاتها التي تقود أجيـال الغربيين بلا مبالاة نحو

المخدرات أو نحو المعلمين الروحيين . وفي الحالين يفلت المرء من الالتزام بالعيش . وهذا من شأنه على الأقل ان يقرب بين حبي الشرق والغرب .

ولكن ها نحن امام شيء آخر . ودوماً بحسب جورج دوبي في كتابه (القرن الوسيط الذكر) نجد تفسيراً لمهمة الحب المهذب ، الذي كان لا يكف عن السخرية بالنساء ، في اقبال رجال الدين على التقرب من زوجة المولى ، « سيدة » افكارهم المشوشة اجتماعياً . وفي العبور الاجتماعي لطبقة الشعب الى طبقة النبلاء من خلال الحب ، يرى دوبي أصل مبدأ المساواة في الثورة الفرنسية وفيما بعدها ، وهذا يقودنا الى القول تقريباً بان الحب المجنون للشعراء التروبادور كان يحوي احد مبادىء الليل الرابع من آب الثورة ، هذا الليل الذي لم يكن العشاق يتوقعونـه .

وندرك آنئذ لماذا ما زال من الصعب ، في عالم عـدم المساواة بين الطبقات الذي حكمه المجتمع خلال اكثر من الفي سنة ، ان نحطم الاقفال لقبول الحب من أول نظرة في مكان آخر الا بين تلميذ ومعلمه . فاذن الحب من أول نظرة لدينا هو أحد مخدراتنا الكبرى ؟ أكيد . ولكنه أيضاً ، وفي هذا يكون عزيزاً علينا رغم عنفه وقسوته ، يحوي الجذر غير المنتظر للمبادىء التحررية ، اللهم الا اذا وجب قلب الاقتراح والافتراض ان مبادىء المساواة لم توجد الا لحماية الحب المجنون . . .

علـوم

●● (**البنيوية ومبحث العلوم والماركسية : ثلاثة مجالات كبرى للفكر الألتوسري**) **مقال لأستاذ الفلسفة الفرنسي بيير ريمون ، مؤلف (العبـور الى المادية ، ١٩٧٣) و (التاريخ والعلوم ، ١٩٧٥) و (مقاومة القدرية في التاريخ ١٩٨٢) و (تبديد الرعب والظلمات ، ١٩٩٢) وغالباً ما يتحدث في هذا الأخير عن لوي ألتوسر .**

حين تعرفت الى الفيلسوف لوي التوسر (Althusser ١٩١٨ ــ ١٩٩٠) ، في تشرين الأول ١٩٦٢ ، كان يدير معهد المعلمين العالي أو عدم كفاءتهم ، أولئك الذين يخضعون لضغط التزاماتهم الايديولوجية. للدراسات الفلسفية . وباعتباري طالبــاً ، لم البث أن دهشت لوفرة النشاطات النظرية التي كانت تجرى في المعهد المذكور وخصوصاً بوساطته أو فيما يتعلق به . وهكذا تابعت المحاضرات التي كان يقدمها في « منشأ التاريخ » و « اركيولوجية العلوم » و « الفكر البنيوي وما سبقه » وبالطبع مجموع الأعمال التي تدور حول كارل ماركس .

كيف كان التوسر نفسه يقدم هذه المحاضرات والنشاطات ؟

كان يصر قبل كل شيء على الانبعاث الراهن والمعقد للفلسفة الفرنسية . وانفتحت مرحلة جديدة اتسمت بالعودة الى النصوص التقليدية وجدية الطرائق العملية . وكان هذا مما يغير جهل السابقين في صميم هذا الانبعاث كان النزاع يحتدم حول « الموضوع » : وهو نقطة انطلاق حول المبادرات وما تبرزه من أشياء أخرى ، وذلك في مجال « المثالية النقدية » التي بدأت تظهر ضدها « جبهة فلسفية عاملة » كما قال التوسر في ٢٦ حزيران ١٩٦٦ ، في محاضرة عنوانها (الظروف الفلسفية والبحث الماركسي النظري) .

وشكلت وفرة الأعمال الجديدة في صورتها تلك علامة أولى . ولم يكن يهم في البدء ان يقول المرء عن نفسه انه تلميذ هذا أو ذاك من الفلاسفة ولا أن يبحث عن وحدة عقائدية في هذا التنوع ، بل المهم ملاحظة انبثاق الاشكالات الجديدة . فوحدتها لا يمكن أن تكون الا سطحية ، وغير كافية ، وذلك بواقع وجود نقص في الفلسفة . وهكذا فان التوسر كان يتحدث احياناً عن « فكر بنيوي » ولكن ذلك لم يكن يتطلب منه أن يجد من المناسب اعطاء هذه الكلمة معنى مجرداً .

كان هناك ثلاثة مجالات للفكر متغايرة جداً يميل مسحوراً للتحدث فيها : الفكر البنيوي في بعثرته ، ومبحث العلوم في تجدده ، والنظرية الماركسية في تشكلها .

١ ــ الفكر البنيوي أو البنيوية :

فيما يتعلق بالبنيوية كان التوسر يلاحظ في الواقع ، الا في استثناءات قليلة ، ان المؤلفين لا يثيرون الاهتمام الا بمقدار ما يكونون غير بنيويين . فاذن كان هناك مع ذلك بنيويون يثيرون الاهتمام ؟ ولم يكن المعيار في انهم طالبوا بهذه التسمية ، بل في أن لكلمة « بنية » لديهم معنى مجرداً . وكان التوسر يرجع احياناً الى المعنى الرياضي ليقول ان « البنيويين » قلما يحترمون هذا المعنى ، ويحتفظ بمسافة بينه وبين اللسانية الموصوفة بـ « البنيوية » ، وهي الوحيدة التي يشير اليها في تلك الحقبة . ولذلك كان المزيد من اهتمامه ينصب على كلود ليفي-ستراوس وجورج دوميزيل Dumezil ، وكان يعتقد أن مسألة الاستعمال المجرد لكلمة « بنية » تستحق على الاقل أن تطرح في معرض الحديث عنهما .

ما الذي كان يصنع الوحدة التجريبية في هذا المجال ، ان لم يكن هذا النداء ، المتسم غالباً بالغموض ، لمبدأ « البنية » ؟

كانت الاعمال المطروحة تتميز قبل كل شيء بمتطلب علمي جديد ، ومن هنا تظهر اهمية المعايير غير الفلسفية (اللسانية ، المنطقية ، وكذلك الرياضية ...) لتحديد طرائقها ، شريطة مع ذلك ان يعكسها هؤلاء المؤلفون انفسهم في علاقاتها المستندية المنبثقة من المجال الثاني ، واعني به مبحث العلوم المتجددة .

على أن ذلك لم يكن كافياً ، ولذلك اعتقد التوسر انه يجب اللجوء الى هذه العقائد لاكمال عدم كفايتها وتحويلها ، ولكن من المحتمل ان يكون في الوقت ذاته قد اصبح ، ولو لفترة من الوقت ، متعلقاً بها اكثر مما أراد . والمقصود هنا المسألة الدقيقة لـ « لموضوع » التي سبق الكلام عليها . ولكي يقول التوسر كلمته في هذا الموضوع استند الى الاعمال « البنيوية » ليدعم مجادلاته ضد الفلاسفة « المثاليين ــ النقديين » للموضوع ، ولكنه اشار ايضاً ، حول هذه النقطة ، الى ان دعمه كان غير كاف (راجع ايضاً محاضرته في ٢٦ حزيران ١٩٦٦) .

ولقد فكر أن الجوء الحذر في مناسبات مختلفة الى فوكو ولا كان وليفي - ستراوس ودوميزيل وباشلار ، وان عودته المتسمة بشيء من الغموض الى سپينوزا ونيتشه وفرويد ، يسمحان له بان لا يعود يصنع من « الموضوع » مركزا لمبادرات تتعلق بالظواهر الانسانية والاجتماعية ، بل يصنع منه تأثيرا يزيد أو ينقص من ناحية الظاهرة العارضة التي تبرزها البنى » .

ومع ذلك فانه كان غير مرتاح لهذا الدعم لان المؤلفين المشار اليهم لم يتهيأوا لقبول الفلسفة الجديدة (« اذ لا يقدم ليفي - ستراوس مثلا أية قراءة لماركس أو فرويد »، ١٩٦٦). ولقد ابرز « شيئا فشيئا »الانتقادات التي توسع بها في كتابه (عناصر النقد الذاتي ، ١٩٧٤) ضد شكليه الاندماجات البنيوية او الديناميات الاجمالية ، وعاد الى المجادلات المرسومة فقط في (قراءة رأس المال) . فالمثالية الاساسية لـ « لبنيوية » هي التي هدف اليها - بمعنى ان الثوابت المطلقة قد اعطيت كتفسيرات ، من دون أن تفسر هي ذاتها ، اي انها افكار مجملة . وهذا يعني ان هؤلاء المؤلفين لم يكن لديهم وعي كاف لما هو عليه التفسير العلمي ، وانه يجب ابراز الشروط المتعلقة باعادة انتاج الثوابت ، والتمسك بتاريخانية هذه الشروط ، التي من شأنها اظهار ان الثبوتية يمكن ان تحدث اولا ، وان تحول وتتوسع الخ . ومن هنا اللجوء للمجالين الآخرين وهما مبحث العلوم والماركسية ، لا سيما وانه لجوء ضروري على اعتبار ان الانتقادات تجاه الاول كانت « شيئا فشيئا » اكثر دقة (...) .

٢ - مبحث العلوم (وهو مبحث نقدي في مبادىء العلوم وفي أصولها المنطقية) .

وهو بلا شك المجال الفكري الاكثر تناقضا لدى التوسر اذ كان المجال الذي كان فيه أكثر جهلا ، ومع ذلك كان قبل كل شيء بأمس الحاجة اليه ليعطي « النظرية الماركسية » أوج سلطتها . وكانت مراجعه فيه كما يلي : كاڤاييس Cavaillès في الرياضيات ، وباشلار في الفيزياء ، وكانغيليم Canguilhem في علم الاحياء. ولكنه كان يقول عن كاڤاييس

ان فيمه محدود ، وعن باشلار انه لا يستعمل الا بضع صيغ يزداد تحولها او ينقص . فلم اذن هذا الاهتمام بهذا الانبعاث المتعلق بمبحث العلوم ؟

أكيد قبل كل شيء بسبب الجدية العلمية المنوّرة بمعارف جديدة ، ولصالح صرامة فلسفية على نمطها ، لم يكن التوسر يتردد في ازجاء تحية سريعة الى هوسيرل . ومن دون شك بعد ذلك بسبب رفض كاڤاييس وباشلار ، ضمن اشكال مختلفة ، لفلسفات « الموضوع » وهو رفض كان التوسر يستند فيه بشكل غامض الى هيغيل فيما يتعلق باحدهما ، كما يستند الى الكراهية المبكرة لديكارت فيما يتعلق بالآخر . ولكن خصوصا بسبب الامتياز الذي كان يمنحه هذان المؤلفان للتاريخ حول عرض النتائج ـ وهو تاريخ متقطع عن انبثاق النظريات ، واقصد تاريخ البحوث في داخل كل منها .

واكيد ان هذه الضمانات في مبحث العلوم كانت ايضاً عرجاء ،ولم ينتبه التوسر مرة اخرى الى ذلك الا « شيئا فشيئا » . هل كان المقصود هو مبحث العلوم او التاريخ ؟ واذا كان المقصود هو التاريخ ، فهل كان هذان المؤلفان مستلحين ليشكلا معنى مجرداً للتاريخ ، من دون الرجوع الى ماركس الذي كان الى حد ما خارج الاهتمامات الفلسفية لكاڤاييس وباشلار وكانغيليم ؟ وهل يمكن تشكيل هذا المعنى المجرد ، حتى بدءاً من ماركس ، من دون الالتفات الى شروط سبقت اثارتها ؟ لم يكن الشيء الاساسي لدى التوسر تعميق الدراسات في مبحث العلوم ، وهي دراسات لم يكن لها مهيأ ، ولا تحديد الانماط العلمية التي ينتمي اليها ، بل الرجوع اخيراً الى المجال الفكري الثالث وهو مجال « النظرية الماركسية » .

٣ ـ الماركسية :

والواقع ان المسألة كانت معقدة لان الماركسية لم تكن توجد كنظرية منمة لدى التوسر ، وكانت اضواء المجالين الآخرين السابقين غير كافية . وبالفعل كان المقصود ، بالاضافة الى قراءة النصوص ذاتها ، علماً كبقية العلوم ولكنه يتميز بالاصالة ، هو التاريخ بمعنى صنع تاريخ الحدث

والاشارة الى تأثيراته السياسية . ولذلك كان يجب الرجوع الى تناول مسألة مبحث العلوم في تاريخ العلوم ، ولكن بشكل جديد ما دام الاساسي هنا ينقص مبحث العلوم . وكان المقصود من جهة اخرى فلسفة « تحديد الوعي » (ماركس ، مقدمة الاسهام في نقد الاقتصاد السياسي) . فاذن كان يجب الرجوع الى المسألة « البنيوية » للاخراج ، ولكن بشكل جديد ما دامت « البنيوية » تنقصها الفلسفة فيما يتعلق باخراج « البنى » ذاتها .

وقد ظهرت هذه المهمات « شيئاً فشيئاً » لالتوسر . وكانت تتطلب آنذاك انبعاثاً هائلا لـ « لنظرية » كان يجب ان يتمكن من التوسع كنظرية العلوم ، او نظرية التاريخ ، او نظرية الموضوع ، او نظرية النظرية الخ . وهذه الاخيرة ، وهي ما رفضت الفلسفة منذ افلاطون ان تكونها لتوجد كممارسة ، تقود نحو نوع من انواع الهوى : حرف « س » غائب مكلف ان يبرز في الوقت ذاته عدم ثبوتية وثبوتية البنى الاحتمالية وتمفصلاتها ولا تمفصلاتها بعضها مع البعض الآخر . كما يبرز الحدث وتشغيل العلوم وسلوكات « الموضوع » الخ .

وكانت هذه المهمات غير قياسية اذ كان من المستحيل على التوسر ان يعطي « مفاتيحها » (محاضرة ١٩٦٦) وان يبين المخرج اللاشخصي القادر على تحريك جميع الخيوط حتى بدءاً من سببية « بنيوية » . ولم تكن تكفي كنوز التقاليد الفلسفية ، المضافة اليها الاسهامات الجديدة والمصادر الماركسية .

ومنذ ١٩٦٧ وحتى (عناصر النقد الذاتي) فكر التوسر بهذه الاستحالة . والواقع ان النداء الى الماركسية يبدو ، بطبيعته ، نداء الى الخارج : صراع الطبقات ، وارضية التاريخ و « احداثه » ، وتخبط في هذا التناقض : س اللغز او صراع الطبقات ؟

وآله ان يتخلى عن هذا الـ س ، كما يشهد بذلك مثلا احد مقالاته عن الايديولوجية حيث يتأرجح بين العلاقات الاجتماعية والايديولوجية التي تحدد « الموضوع » وبين ممارسة صراع الطبقات التي تحدد هـذه

العلاقات ، والتي يشير اليها في حاشيته لعام ١٩٧٠ ، على اعتبار انه قد « ترك جانباً » وضع النظرية العلمية لذلك كله .

وبطريقة ما فان قفزات الفكر الالتوسري يمكن أن تبدو قبل كل شيء كأنها مقبلة « شيئاً فشيئاً » من المجابهة بين طريقته في طرح المشكلات ، من ١٩٦٠ الى ١٩٦٦ ، وبين « الاحداث » السياسية الجديدة التي ينظم بها جرداً في بدء (جوابه لجون لويس ، ١٩٧٣) ، ولكن من دون أن يتحدث عنها كثيراً اللهم الا الاشارة الى اهم ما فيها من أقوال ، وذلك تماماً كما في محاضرته لعام ١٩٦٦ ، ولكن لمجرد انها ليست هي ذاتها . ولدى « الماركسي » يجب الا يبقى صراع الطبقات « غائباً » بلا تحديد (انظر عناصر النقد الذاتي) . وعلى هذا فان « النظرية » تتحول الى « سياسة ممثلة لدى العلوم » (لينين والفلسفة ، ١٩٦٨) ثم الى « صراع للطبقات في النظرية » (انظر جوابه الى جون لويس) .

على أن ذلك ليس حقيقياً الا بطريقة ما ، ويجب من دون شك اعادة تشكيل تامة للتفسير ، ولعل هذه المراحل الجديدة من فكر التوسر ليست سوى قفزات اثارتها صعوبة اخرى هي الاهم .

والواقع ان الاختيار بين س وصراع الطبقات لم يكن اكثر امكانية من اكتشاف س ، او بالاحرى لم يكن قضية نظرية ، بمعنى انه اذا كان لجدلية ما ان تكون نظرية ، مهما تكن قيمتها ، فان ممارستها ، هي ، لا تكون ذات طبيعة نظرية . وعلى هذا ففي (عناصر النقد الذاتي ، ٥) عني التوسر ، كما فعل منذ ١٩٦٧ ، بكلمة « فلسفة » « تشوش الوظيفة النظرية والوظيفة العملية » مع « اولوية الوظيفة العملية » ، وبذلك امتص هذا التشوش « في صراعه مع النزعات النظرية » التي هي ذاتها « على علاقة حميمة بصراع الطبقات » . وهكذا ارجع هذه الوظيفة العملية الى « خارج الفلسفة » ، الى هذا « الصراع الطبقي بمعناه المحدود » من غير أن يحدد موضوعاً للممارسة التي هي خارج النظرية : ففي الفلسفة كان الصراع نظرياً ، اما خارج الفلسفة فكان اما مجرد تأثير في العلاقات الايديولوجية أو ... ممارسة لا تخضع للتحليل باعتبارها لذلك .

ومما لا شك في صحته ان التوسر لم يحاول ان يستخلص من مغامراته الفلسفية ، رغم جهوده الخارقة ، اجوبة عن المسائل التي طرحها على نفسه « خارج الفلسفة » ؛ بل استخلص هذه الاجوبة من اللقاءات غير المتوقعة الفكره مع « الاحداث » التي بدا له في كل مرة انه غير قادر على مجابهتها . ولقد اصطدم الانبعاث المنشود للماركسية على التوالي بعدم قدرته تجاه انقسامات الحركة الشيوعية من مراحل ايار ١٩٦٨ الى وحدة اليسار التي اخفقت مع الانتفاضات السوفييتية . وعدم كفاية « علم التاريخ » لعقل هذه العلاقات مع الممارسة السياسية هو الذي جعل التوسر ملتزماً بتسييس الفلسفة لمواجهة انقسامات الحركة الشيوعية . وعدم كفاية « هذا الصراع بين الطبقات في النظرية » لعقل غياب الديمقراطية في البلدان الشيوعية هو الذي جعله ملتزماً بتحليل « أزمة الماركسية » لمواجهة انهيار الشيوعية ـ الذي لم يحسب حسابه .

ولكن ما يهم بالضبط هو هذا الاختلال الدائم في هذه المواجهات حتى آخرها ؛ لا ثغرات فكره . وكان يجب ان تكون « ازمة الماركسية » لديه فرصة لـ « تغيرات عميقة » (الماركسية اليوم ، ١٩٧٨) ولكن في اتجاه « التجديد » (اخيراً ازمة الماركسية ! ١٩٧٧) ، هذا الاتجاه الذي كان يؤكده بنفسه لا كمخرج . ولم يمزج قط بين « النظرية الماركسية » ونظرية ماركس باعتباره فرداً ؛ واراد ان « تمثل السياسة بقربها من العلوم » وذلك منذ ١٩٦٨ . ولكن في الواقع كانت المسألة القطعية هي في معرفة ما اذا كان ما يزال بالامكان ، من قفزة الى قفزة « تغيير النظرية » ، « تغييراً ملتزماً منذ ماركس نفسه (اخيراً ازمة الماركسية ! ، ١٩٧٧) او اذا كان يجب مواجهة الخروج منها ، او الخروج من النظرية ، وبخاصة الخروج من الديمقراطية ؛ وهي مسألة لم يتوصل في الحقيقة قط الى متابعتها .

وكان غالباً ما يظهر ميله الى فلسفة توجه « الفطنة » لابدءاً من الحدس كما يقول ؛ بل من « ظروف نظرية » تتحدث عن ذاتها عبر نفسه (محاضرة ١٩٦٦) . وفي عام ١٩٧٨ رأى « الماركسية لربما للمرة الاولى في تاريخها على اعتاب تغيرات عميقة ، دلالاتها الاولى مرئية » . وكانت لديه الشجاعة لان يعترف باخفاقاته المتكررة في تشخيصاته

لتجديد « النظرية الماركسية » وان يعاود البدء في كل مرة تختلف عن سابقتها قبل ان يتخلى عن الموضوع . ولم تكن الاخفاقات لتنجم فقط ـ لربما ـ عن صعوبة « صنع وسائل نظرية جديدة » ، بل عن السر الذي ترك فيه ظاهر النظرية تحت تسميات « الاحداث » و « الممارسات الاجتماعية » و « صراع الطبقات » و « قضية الجماهير الشعبية » .

ومما لا شك فيه انه كان يهتم كثيراً بالاسماء المستعارة لـ « البنيويين » « وعلماء مبحث العلوم » و « سبينوزا » وسواهم ايضاً . ولكن اذا ما وجب على الفلسفة ان تواجه خارج النظرية لا خارج ذاتها ، فلربما تزداد الاهمية في معرفة من يستعار منه ـ وخصوصاً اذا ما ذكرنا غرامشي في (الماركسية اليوم) حيث يقال « ان كل انسان هو فيلسوف » .

فنـون

●● **اوسكار كوكوشكا Kokoschka ، الرسام النمساوي ، نبذة عن حياته واتجاهاته الفنية واشهر اعماله .**

مع ان الرسام النمساوي اوسكار كوكوشكا (١٨٨٦ ـ ١٩٨٠) قد درس في (مدرسة الفنون التزينية) بفيينا ، الا انه لم يكن اي تقدير لدراسته ، والف في هذه المرحلة مسرحيتين شعريتين الاولى بعنوان (ابو الهول والفزّاعة) و (القاتل امل النساء) ، وشكل الاعلان عن عرضهما لوحة تعتبر من اللوحات الاساسية للمذهب التعبيري في بداياته وقد تأثر في اوائل رسومه العارية بالفنانين روماكو وكليمت وخصوصاً بفن الشرق الاقصى ، ولكنه سرعان ما اظهر اصالته في الرسوم التي نفذها لمسرحياته وفي اللوحات التي عرضت في (معرض الفن) بفيينا مابين عامي ١٩٠٨ و ١٩٠٩ . ثم اسهم في اعمال المراسم الفيناوية ، التي اسسها هوفمان عام ١٩٠٣ ، بلوحته المتميزة (الاطفال الحالمون ، ١٩٠٨) . وادخله المهندس المعماري لوس LOOS ، عام ١٩٠٨ ، في الاوساط الفنية والادبية وقد صلحت شخصياتها كنماذج للصور الشخصية المتتالية التي اطلق عليها اسم « اللوحات النفسية » ، وتم تنفيذ هذه اللوحات مابين عامي

١٩٠٩ و ١٩١٤ ، وتعتبر من روائع المبتكرات في المذهب التعبيري الفييناوي . وصرح كوكوشكا فيما بعد : « **ان الناس كانوا يعيشون بامان الا انهم كانوا جميعا خائفين . وقد لمست ذلك من خلال طريقة حياتهم المرهفة التي تتصل بالعصر الباروكي ، وهكذا صنعت صوراً شخصية لهؤلاء الناس في قلقهم وآلامهم** » .

وحتى عام ١٩١٠ ظل كوكوشكا يمنح دورا هاما للاشكال او التعابير الخطية في لوحاته (الصورتان الشخصيتان الاولى لادولف لوس ، ١٩٠٩ ، في متحف برلين ـ والثانية لاوغست فوريل ، ١٩١٠ ، في متحف مانهايم) . وتعتبر صورة (هيورات والدن ، في متحف شتوتغارت) رائعة من روائع تلك الحقبة حيث تطغى الدقة الحادة في الرسم على سحر الالوان . وكان والدن قد تعرف الى كوكوشكا بوساطة لوس ، ثم دعاه الى الاسهام في رسم عدة صور شخصية لمجلة (ديرستورم) في عام ١٩١٠ .

في عام ١٩٠٩ رافقه صديقه لوس في رحلة الى سويسرا ، وهناك دهش برؤية مواقع من جبال الالب رسم لها بضعة مناظر ، وكان هذا اول تماس له مع هذا النوع الذي اوقف عليه قسما من فنه فيما بعد كما في لوحته (نتوء الجبل ، زوريخ ، مجموعة خاصة) . وبدءا من عام ١٩١٠ اكتسب الشهرة في برلين ، وزاد انعكاس حياته في اعماله (صورة ذاتية مع الماهلر ، ١٩١٢ ، هامبورغ ، مجموعة خاصة) . وكشفت له زيارته لايطاليا في عام ١٩١٣ عن جمال الرسم في البندقية ولدى الفنان تانتوريه بشكل خاص ، كما اكدت اتجاهه في التطور نحو غزو مهنة اكثر دينامية وتصويرية كما في لوحة (العاصفة ، ١٩١٤ ، متحف بال بسويسرا) .

في عام ١٩١٥ تطوع كوكوشكا في الجيش ، وفي ايلول من العام ذاته اصيب بجرح خطير في احدى المعارك فتمت العناية به بمدينة دريسدن حيث ظل مقيما من ١٩١٧ الى ١٩٢٤ بسبب تعيينه استاذا في اكاديمية الفنون عام ١٩١٩ . وعاد الى العمل للمسرح والاوبرا فرسم لوحة (ايوب والعوسجة الملتهبة ، ١٩١٩ ، في مسرح ماكس رينهارد ، كما عمل

للموسيقا مع الموسيقار هند ميث ، وتم عرض مسرحيته (القاتل أمل النساء) في عام ١٩٢١

توافقت هذه السنوات مع تغير لديه في الرؤية والتقنية . وتتميز لوحات ١٩١٧ و ١٩١٨ بكثافة مادتها التي يقطعها الايقاع المحموم في التنفيذ ، كما تتميز بتعبيرها الشجي (صورة ذاتية ، ١٩١٧ ، مدينة رووبرتال بألمانيا ، مجموعة خاصة) . ويميز اتساع أكثر توحيداوشواطىء ذات ألوان نابضة الاعمال اللاحقة (العبد ، ١٩٢٤ ، سانت لويس بالولايات المتحدة ، مجموعة خاصة) .

وتكثر الصور المائية ، المرسومة او المطبوعة على الحجر ، في مطلع العشرينات ، ويتسع سجل التفسير كثيرا ، فمن تعريف وجيز متراص الى اختراع أكثر حرية (غيتا فالرشتاين ، لوحة مائية ، ١٩٢٦ ، مجموعة خاصة) .

على ان مدينة دريسدن هي التي رأت بخاصة اول تطور متماسك لكوكوشكا كرسام للمناظر (جسر اوغست والمركب البخاري ، ١٩٢٣ ، احد متاحف ايندهوفن بهولندا) مع ما يوازيه من تخلٍ نسبي عن التعبيرية التي ما تزال تظهر في الصور الشخصية الذاتية ودراسات الحيوانات (القرد الافريقي ، ١٩٢٦ ، روتردام بهولندا) . ولقد أصبح المنظر هو الموضوع المفضل لدى كوكوشكا ، يتجدد من خلال تنقلاته (سوق في تونس ، ١٩٢٨ – ٢٩ ، مجموعة خاصة) و (جسر شارل في براغ ١٩٣٤ ، متحف براغ) ، ويعالجه بطلاقة واتساع ، ويلونه بألوان يزداد صفاؤها وبلمسات مرحة تبرز فيها الانطباعية احيانا .

بين عام ١٩٢٤ وعام ١٩٣١ عاش كوكوشكا معظم ايامه بباريس حيث قدم عدة معارض . ثم انتقل الى فيينا (١٩٣١ – ١٩٣٤) ثم الى براغ (١٩٣٤ – ١٩٣٨) . في عام ١٩٣٨ نفذ لوحة اعلانية لصالح الجمهوريين الاسبانيين . وكان اضطرابه وحزنه كبيرين على اثر صعود النازية واتهامها الفن المعاصر بانه « فن منحل » الامر الذي اجبره على اللجوء الى انكلترا في عام ١٩٣٩ ، ثم اكتسب الجنسية البريطانية في عام ١٩٤٧ ، وانسحب

الى بلدة فيلنوف على بحيرة جنيف . وتطور فنه فاصبح يرسم الى جانب المناظر لوحات واسعة تحوي موضوعات اتباعية (معركة الترموبيل ، ١٩٥٤ ، همبورغ ، كلية الحقوق) ، وعثر من جديد على الحيوية التزيينية والغنائية للفن الباروكي الفييناوي (نهر التاميز ، ١٩٦١ ، لندن ، مجموعة خاصة) .

وتنافس لديه نشاط فنان الديكور والطابع على الحجر مع نشـاط الرسام ، فصنع في عام ١٩٥٣ ديكورات وملابس لكل من اوبرا (الناي المسحور) لموتسارت ، واوبرا (الحفلة الراقصة المقنعة) لفيردي ، كمـا قام برسم عدة لوحات مطبوعة على الحجر منها (الملك لير ، ١٩٦٣) و (الاوذيسة ، ١٩٦٣ ـ ١٩٦٥) و (الطروادیات ، ١٩٧١ ـ ٧٢) ، وصنع فسيفساء هائلة لكنيسة القديس نقولا في هامبورغ تم تدشينها في عام ١٩٧٣ .

في عام ١٩٧١ نشر كوكوشكا سيرة ذاتية له بعنوان (حياتي) . وفي تلك السنة كرمه بعض دور الفن والمتاحف وعرض له لوحات من عـام ١٩٠٧ الى عام ١٩٧٠ . وتجدر الاشارة اخيرا الى ان الكثير من روائعه موجود في معظم المتاحف الكبرى باوروبا وامريكا .

انباء ثقافية عالمية

● **الروائية الزنجية الامريكية اليس ووكر ، التي تقدم نفسها على انها تؤمن بانسانية المراة اكثر مما تؤمن بحركة تحررها ، فوبلت، بمناسبة نيلها جائزة بوليتزر على روايتها (اللون الارجواني) ، باستقبال فاتر من قبل الزنوج الامريكيين ـ الذكـور ـ لان كتابها يبرزهم في مظهر غـير مناسب ، وعلى اية حال لا يتعاطف القارىء مع اي من اشخاصه الرجال .**
ويتناول كتابها الجديد (الامتلاك سر الفرح) احدى الشخصيات الثانوية من روايتها (اللون الارجواني) وهي شخصية تاشي الصبية التي مورست عليها عملية « الختان الفرعوني » ، وهي اعنف واصعب من الختان العادي للنساء . تقول اليس ووكر : « ليست روايتي الجديدة تتمة لكتابي (اللون

الارجواني) . كنت قد أشرت الى هذا التشويه او البتر في كتابي ولكني لم اعد استطيع الذهاب بعيدا او التعمق بصدده . كان يلزمني المزيد من الوقت لأستطيع التوسع بالموضـوع . قليل من الناس هم على علـم بهذا ومع ذلك ... » وتثير أعصاب ووكر هذه العادة القبيحة المفرقة في القدم والتي تمارس في شـرقي افريقيا . وتضيف : « اذا بتر بعض الاعضاء التناسلية لمئة مليون من النساء واصبحت الولادات من الصعوبة بحيث ان كثيرا من الاطفال يموتون او يولدون معوقين ، فكيف السبيل الى توقع الحصول على قارة يتمتع سكانها بالصحة والنشاط ؟ » .

● **ديريك والكوت Walcott حصل على كل شيء ليكون سعيداً ، اذ حاز جائزة نوبل في الآداب لعام ١٩٩٢، وهو يعتبر احد افضل الشعراء الذين يكتبون باللغة الانكليزية .** ولد ديريك والكوت عام ١٩٣٠ في احدى الجزر الكاريبية ، وهو ينحدر من أصول افريقية وهولندية وانكليزية. وقد فاز بقصب السبق على مواطنه الكاريبي ف . اس . نيبول Naipaul الذي استأثر ايضا باهتمام لجنة الجائزة في ستوكهولم . ويأخـذ بعض المفكرين الكاريبيين على والكوت صفة كونه مغرقا في انكليزيته ، وصفـه كونه لم يتأثر في شعره بايقاعات الموسيقا المحلية ، أضف الى ذلك ان شعره لا يحوي ما يكفي من البدائية واللغة الدارجة . وبحسب المثـل القائل ان شقاء لا يأتي وحده بل يصحبه دوما شقاء آخر ، اتهم والكوت مؤخرا بأنه يزعج جنسـيا احدى طالباته في جامعة بوسطن التي يدرّس فيها . ومع انه تصرف مع الطالبة المذكورة بلباقة ، الا انها اتهمته بانه وضع لها علامة متدنية في نهايـة الدرس . ويسخر من هـذا الاتهام : « يعطيك ذلك شعورا او انطباعا بانك قد اصبحت وحش بوسطن » .

● **ما زال الكاتب الايرلندي الكبير جيمس جويس يبذر الشـقاق لدى الجامعيين . ويعمل دنيس روز ، وهو باحث ايرلندي ، منذ سـتة عشر عاما في طبعة مبنية على الاصول لرواية جويس وعنوانها (سـهرة**

فينيغان) ، ويعتقد بانه اكتشف العمل الضائع لجويس وهـو سلسلة اقاصيص عنوانها (فندق فين) كتبها جويس بأسلوب (اناس دوبلن) وهجرها في عام ١٩٢٣ ليعمل في روايته (سـهرة فينيغان) . وهـذه الاقاصيص ، التي ادخل قسما منها بعد تحويله في هذا العمل ، تشكل لدى روز « كتاب الغسق » عـلى اعتبار ان رواية (أوليس) تشـكل « كتاب النهار » و (سهرة فينيغان) « كتاب الليل » . وقد كتب جويس (فندق فين) تحية لزوجته نورا بارناكل التي كانت تعمل في فندق فين عندما قابلها . على ان جميع الناس ليسوا على وفاق مع دنيس روز . فهناك مثلا ديفيد هايمان ، الذي نشر منذ ثلاثين عاما مقاطع من هـذه الاقاصيص ، اذ يعتبرها نسخة اولى من تقدم العمل في (سهرة فينيغان)، ويتحدث عن خطأ في التفسـير . وهناك باحثون امريكيون اكثر حدة يتهمون روز بالخداع . وقد اشترت احـدى دور النشر بسعر مرتفع حقـوق (فندق فين) التي تتألف من مئة صفحة ، وتعتزم اصدارها في ربيـع ١٩٩٣ .

● **حين كان الروائي الكولومبي العالمي غبرييل غارثيا ماركيز يكتب روايته الأخيرة (الجنـرال في متاهته) ، كان يتسلى في اوقات الراحة بكتابة ستة سيناريوهات مقتبسة من اقاصيصه او رواياته لاخراجها سلسلة من الافلام طلبها منه التلفاز الاسباني** . وعنوان هذه السلسلة هو (الغراميات الصعبة) وفيها يحصي الكاتب الكبير جميع اشكال الحب من الحمى الشهوانية الى الحنان العائلي، وذلك في اصطدام هذه الغراميات بالعوائق المختلفة . يقول ماركيز : « **الحب والموت هما على الدوام قريبان احدهما من الآخر** » . وهو مرتاح جدا لعمله في السـينما . يقول : « اذا كانت الظروف لم تسمح لي قط بان أتابع دروس الادب في الجامعة فانني بالمقابل قد درست الفن السينمائي حتى توصلت الى تدريسه » . ومهما يكن من امر « فانا راوي حكايات . ولا يهم ان كانت هذه الحكايات مكتوبة أو معروضة على الشاشة او يتناقلها الناس فيما بينهم . المهم ان تقال » .

● **الناقد الأمريكي الشهير ادموند ويلسون لم يكن الرجل الذي نتصوره . فهذا الناقد المعروف بصرامة احكامه ، وقدرته على سبر اعماق اي عمل ادبي ، كان يعيش حياته في فوضى كبيرة .** وكان يميل الى السحر ، وصديقا للسحرة المشهورين آل هوديني ؛ ويعرف جميع حيل المتدرعين بالوهم والاعيبهم . لكنه لم يستطع قط ان يوهم احدا من دائنيه الكثيرين بأنه سدد له دينه . وقد حرم نفسه من الهاتف خلال سنوات لان الشركة طلبت منه ، كدافع ردىء ، ضمانة قيمتها عشرة دولارات رفض ان يدفعها . ولم ينجح مرة واحدة في حياته في الجلوس الى المائدة مع زوجته ماري ماكارتي ـ وقد دام زواجهما سبع سنوات ـ لانه كان لا يستطيع ان يمتنع عن التعليق الفظ على اطباق الطعام التي صرفت عدة ساعات في تحضيرها . هذه المعلومات اوردتها ابنته روزاليند بيكر ويلسون في الصورة الشخصية بلا لمسات عن ابيها ، وذلك في كتابها الصادر حديثا بعنوان (قرب الساحر) . والجدير بالذكر هنا ان روزاليند قد ورثت عن هذا الأب صفاته النقدية ذاتها .

* * *

كتاب الشهر

من حياتي
الشعر والحقيقة

ميخائيل عيد

قد يكون من اصعب الأمور تعريف العبقرية . اما ما لا شك فيه فهو ان احد مظاهرها ، أن يعيش المرء بعض الزمن ثم يملأ الأزمنة كلها، وان يعيش حياة جيل ليشغل حياة الاجيال التي تلي جيله . وكان جوته احد العباقرة الذين عاشوا زمنهم ثم ملأوا الأزمنة وشغلوا الأجيال ، وما زال المنقبون يكتشفون في تربة ابداعاته الخصبة كنوزا لم يكن احد قد اكتشفها بكل غناها .

- ميخائيل عيد : أديب وشاعر من سورية ، يكتب الشعر والقصة والمقالة ، ويهتم بالترجمة ، من اعماله « حكايات واغاني » ، « ملاحم الجبال الهرمة » ، « ابطال وجباع » .

ولقد سأله أناس في زمنه ان يكتب لهم شيئا من سيرته ليكون بمثابة ضوء من خارج أعماله الابداعية يسلط على الظروف التي ولدت فيها تلك الاعمال عسى ان يساعد على فهم بعض جوانبها الداخلية . ويبدو ان غوته ، وهو الاديب المفكر المتزن ، قد رأى ذلك منسجما مع المنطق فعمل على تلبية رغبة معاصريه أولئك وكتب كتابه الثمين « من حياتي ، الشعر والحقيقة » .

لقد أتاحت الحياة لجوته ان يكون جوته ، إذ ولد في اسرة ميسورة الحال : والده دقيق في عمله وصارم وامه حنون متسامحة .. فكان ابوه يرتب له ما لم يكن هو يرتبه من انتاج في ميداني الادب والفن كما كان يحضه على المزيد من العناية بما يكتب او يصور ، وعلى اكمال مشاريعه بدقة ، كما كان يدفعه دفعا الى ارتشاف المزيد من العلم والثقافة .

وكان جوته محبا للرحلات والاسفار ، وواتته الظروف فجاب ربوع بلاده الجميلة وزار العظماء من اهل زمانه سائلا ومحاورا ، كما اتاح له وضعه العائلي أن يطلع على أمور ما كان بوسع الكثيرين ان يطلعوا عليها .. ومع ذلك لا يزعم احد ان هذه الامور وحدها هي السر في عظمته . إن عبقريته الفذة هي العامل الاول ، ثم جاءت كل العوامل الاخرى لتكون عناصر تقوية واسناد لتلك العبقرية .

كتاب جوته « من حياتي ، الشعر والحقيقة » يحمل الرقم (١٦) في سلسلة « دراسات نقدية عالمية » التي تصدرها وزارة الثقافة في دمشق ، وقد ترجمه الى العربية محمد جديد . والكتاب في اكثر من الف صفحة من القطع الكبير موزعة على جزءين ، الثاني منهما اكبر من الاول .

ولد جوته في الثامن والعشرين من آب ١٧٤٩ « والساعة تدق الثانية عشرة ظهرا جئت الى هذا العالم ، في فرانكفورت على الماين . وكان البرج يدل على حسن الطالع » (ص ١٠) وقد تعثرت ولادته فكان ذلك من حسن طالع الاجنة من الاسر الاخرى . إذ امر جده عمدة المدينة ، بتعيين معرض « وادخال تعليم فن القبالة ، او تجديده » (ص ١٠) .

وتبدأ الحكاية . يصف لنا الشاعر الوسط الذي عاش فيه طفولته ،

مكانا وسكانا .. ويكبر الصبي وتتسع دائرة معارفه وتتسع مساحة اللوحات التي يرسمها على الورق فننتقل معه عبرها من منزله الى الحدائق والبساتين المجاورة ، مارين بالاسواق والاحياء السكنية ثم نجتاز الدروب الى المدن الاخرى .. ونقرا تاريخا لعصر كامل ، تاريخا يشمل السياسة والاجتماعية والتربية والتعليم ، لكنه تاريخ حي تكمل فيه الصورة وتتآخى فيه الفنون والعلوم فنرى الجغرافية تمسك بيد التاريخ ، والفلسفة تعانق الشعر ، والنقد يتداخل مع السيرة ، والفن التشكيلي والعمارة يخطران مجتازين الاودية وصاعدين ذرى الجبال الشاهقة .

يسهب المؤلف احيانا في وصف بعض الاحداث التي شهدها او عاشها في طفولته او صباه ويقدم للقارىء الكثير من التفاصيل وهو يصف هذا المبنى او ذاك ، او هذه الحديقة او تلك ، ويقف طويلا ، احيانا ، في الأسواق العامة في بلدته .. ونقف معجبين بقوة ذاكرته .. ويخيل لنا احيانا انا كنا معه في تلك الامكنة وقد رأينا ما رأى ووصف .. وتترسخ الصور في ذاكرتنا .

قد ننسى الكثير من التفاصيل بعد زمن قصير ، لكن الكثير مما وصف به تتويج الملك ، وحبه الأول لجريتش ، الفتاة الجميلة ، من بنات الشعب ، سيعلق زمانا طويلا في الذاكرة ، وقد يصبح جزءا خاصا بنا نحن الذين قرانا حكاية ذلك التتويج ، وذلك الحب ولم نعشهما .

ونعجب بالاب الذي حاز صفات المعلم الحق كلها ، اما الحب فيكون من نصيب الام الرؤوم الوديعة والاخت العذبة روحا ، ذات الوجه غير الجذاب ، بل قد يبعث على شيء من النفور اول الامر ، ثم يتراجع النفور شيئا فشيئا امام الوهج المنبعث من الداخل لتحل من ثم الالفة فالاعجاب .

قد يبدو طبيعيا ان نجد الكثير من التشابه بين ما احببناه او شقينا به وبين ما احبه الشاعر او شقي به ... فهو كان يضيق ، احيانا ، بصرامة والده الذي كان يريد ان يعوض ما فاته عن طريق ابنه ، وكان لا يحب

علم النحو « ولولا كتاب « اللاتيني المبتدىء » المقفى لبدت حالتي على جانب من السوء » وقد ساعده نظم « قواعد النحو » شعرا على حفظها .. وكذلك كانت حال الجغرافيا (ص ٤٠ - ٤١) ونتذكر الفية ابن مالك وما شابهها في شتى العلوم عند العرب .

ويعترينا القلق الذي ساوره وقد بدأ ينظم شعرا .. فهل يستحق ما ينظمه ان يسمى شعرا أم انه كتلك الاشياء الركيكة التي ينظمها اترابه ويرونها أحسن من شعره ؟ وكان عسيرا عليه إن يجد سمة مميزة «ظاهرة للحقيقة » (ص ٤٣)

ونتذكر طفولتنا : « ولم تكن قد انشئت في ذلك الزمان مكتبات للأطفال بعد . وكان الكبار ما زالوا بالعقليات الطفولية ، فكانوا يجدون من المريح أن ينقلوا ثقافتهم الخاصة الى الخلف » (ص ٤٤) .

وثمة تشابه آخر يشعرنا بشيء من الغصة هو وفيات الاطفال في تلك الازمنة وفي ايام طفولتنا .. لقد ولد في اسرته عدد من الاطفال ثم تواروا وبقي واخته وحيدين ، « فارتبطنا برباط أوثق وأكثر ودا »(ص ٤٨)

ويتلقى جوته التعاليم الدينية .. وما كانت « في الحقيقة الا نوعا من الاخلاق الجافة » (ص ٥٤) ولم تكن دروسها تلبي « حاجة الروح ولا حاجة القلب » .. ويسمع الحكايات التي يحكيها الناس « عن المتدينين المعتزلين » فيتعاطف معهم لان الآخرين من رجال الدين كانوا يشاركون رجال الدنيا سيئاتهم ، وقد جعل كل ذلك جوته ينتهي الى فكرة الاقتراب مباشرة من رب الطبيعة الكبير ، من خالق السموات والارضين والقائم بامرهما » (ص ٥٥) وكان طريقه الى ذلك « فريدا جدا»

ويحكي لنا حكاية الناس في كل زمان ومكان ، فما هو في صالح الخصم يتعرض « للانكار او يستصغر شانه » (ص ٦٠) ويطربنا التهكم على الخصم ولو بابيات ركيكة ، والتشنيع بمن نحب مؤلم ، خصوصا اذا كنا نميل الى التبجيل « فهذه أعظم المكتسبات واجلاها تتعرض للطعن والعداوة ، وتلك اجل الاعمال تتعرض للتشويه والاستهانة » (ص ٦١) وكانت الاحزاب والفئات الالمانية يزعج بعضها بعضها الاخر

الى أن احتل الفرنسيون فرانكفورت » وحملوا الينا الازعاج الحقيقي في بيوتنا » (ص ٦٢) .

ونمحر بحاياته .. نقطف من ثمرات الخيال أصنافا ، ونسأل مع المؤلف : « فمن عساه يقدر على أن يتحدث عن خصب الطفولة برصانة» (ص ٩١) وندهش بالكائنات دهشة الاطفال الذين وهبتهم الطبيعة اعضاء تجعلهم يبدون « معقولين » وهم يتعرفون الى الكون والكائنات .

وتمر بنا وجوه رجال فكر وسياسة وفن وادب ، نعيش في مدن محدودة « حيث لا ينبغي لأحد ان يتميز بسلوكه ، لا في الخير ولا في الشر » (ص ٩٩) ونبتعد عن الشعر لنعود اليه ، ونبتعد عن الحب واجوائه لنراه يصعد من كل ما يحيط بنا ويقودنا بيده اللطيفة الى اجوائه ، توجعنا قسوة الايام فنبكي ، ويبتسم لنا الحب فنضحك ونمرح ، ثم نألف كما يألف الناس كالاطفال « تحويل العظيم والسامي » الى لعبة ، بل الى ألعوبة شيطانية ، وأنى لهم بغير ذلك ان يحتملوه ، وأن يطيقوه » (ص ١٠٤) .

وكما ينبثق الحب تنبثق الحكمة ، نطوف هنا وهناك ، نجمع نتف المشاهد والحوادث وأطياف الوجوه ليتجسد كل ذلك في خلاصة هي الذروة المنطقية لكل ما رأينا وتذكرنا . ويظل من الامور التي تلفت النظر .. أن اشكال الايمان والخرافة ظلت هي ذاتها دائما عند كل الشعوب ، وفي كل العصور » (ص ١٢٣) .

ويبقى الاطفال افضل من يعرف كيف يجد التسلية في كل مكان وفي كل شيء ، حتى في أقسى الظروف .. ويخيل للمرء أن الكثير من الاساطير الدنيوية والدينية قد فسرت خروج الاطفال من جنة الطفولة وتحولهم من ملائكة فائقي الجمال والسحر الى بشر عاديين على انه خروج للانسان من الجنة الى العالم . وما من شاعر لم يرغب الرجوع الى تلك الجنة . وقد وقف الكهنة في كل العصور عثرة على طريق العودة . لقد أقاموا المعابد مملكة لهم وحبسوا الطبيعة فيها ، وحرموا الصلاة خارجها ، وحددوا للناس صلواتهم ، وصار لزاما ان يطالب

الانقياء بحرية الصلاة ، وتفرض على الناس دروس لا تعلمهم شيئـا . فمعلموهم الجدد يعلمونهم بالتفكيك والقتل لا بالجمع والاحياء والانعاش ويدفعونهم قسرا الى دروب شتى ، لكن الانسان « سيعود دائما الى ذلك الطريق الذي رسمته له الطبيعة ذات مرة » (ص ١٦٥) ويكون ما تفعله التربية الخاطئة اطالة مصطنعة لطريق العودة .

ونقرا اسفار الخلق الاول ومسيرة الناس ، نرافق الصيادين والرعاة الذين صار لهم رب يصحبهم في ترحالهم ويساعدهم في امورهم ، ونرى ملامح القسوة في دين الآباء الاوائل .. فثمة غضب وانتقام .. وتسـفح الدماء كي ينطفيء الغضب ، وتقدم الاضاحي .. تتوارث الاجيال الاحقاد والثارات ، ويزداد جنون العالم ، ويسفح المزيد من الدم .. ولا نرى الكثير من الفضيلة حتى لدى اولئك الذين استأثروا « بالحظوة لدى الرب » (ص ١٧٥) فهم بشر تتباين شخصياتهم اشد التباين .

وينكر جوته ان يقبل الكائن العظيم « فردا من الافراد ، او قبيلة ، او شعبا او ارضا بصورة حاسمة وبطريقة تفضيلية » (ص ١٧٦) ويكاد يتشوش فكره من اختلاط الخرافة والاساطير والدين فيعود الى اسفار موسى الأولى حيث قبائل الرعاة فيأنس ثم يتلاشى ذلك كله في تاريخ اليهود ولا تبقى سوى صورة يوسف « سليل الحب الزوجي المتناهى فى حرارته » (ص ١٨٧)

ويسمع الشاعر حكايات قسوة اليهود على ابناء المسيح ، تلك القسوة الفظيعة ويدهش فقد ظلوا « مع ذلك شعب الله المختار » .

ونمضي مع سيرته ، نقرأ احداثا ونستخلص حكمة ولا نخرج مـن اطار الحكاية التي تحكي في اهاب من الشعر يشف احيانا ليتماهى الاهاب والجوهر ويصيران شعرا مدهشا .

وتعدم السلطات كتابا فيدهش ! كيف يعدمون من لاحياة فيـه !

وتفتح الفتاة الفقيرة جريتش عينيه على جنة الانوثة الساحرة ، ويفتح لها قلبه ويكتب لها الشعر وحين يهم بتقبيلها به « لا تقبل ، فهذا

شيء مبتذل ، ولكن فلتحب ، ان امكن » (ص ٢١٨) ثم يصدم مرتين اذ استغل علاقته بها أحد الوصوليين ليصل الى وظيفة يسيء استعمالها ثم اكتشف ان الفتاة كانت تدلله كطفل لا كعاشق .. وتغادر المدينة مكرهة ثم لا يلتقيان الى الابد .. وتبقى أصداء ذلك « الحب » تترجع طوال الحياة في قلب الشاعر الذي اكتشف امرا هو ان البريء من الاغنياء وابناء ذوي النفوذ قد يستطيع اثبات براءته اما الفقراء فقد لا يستطيعون ذلك .

ويدخل عالم الفكر فيقرأ تاريخ الفلسفة « وكان اكثر ما يعجبنني في اقدم الرجال والمدارس ان الشعر والدين والفلسفة كانو ينصبون في شيء واحد ، وزعمت ان اولئك يبدون انهم يقدمون دليلا مقبولا على رأيهم الاول بصورة اكثر حيوية مما يقدمه سفر ايوب ونشيد الانشاد وحكم سليمان ، وكذلك اناشيد اورفيوس وهزيود » (ص ٢٨٧) ويشبه سقراط بالمسيح في حياته ومماته ، وكذلك في تنازع تلامذته بعد موته ، اذ لم يتعرف احد منهم « الا على طبيعة محدودة للحق . »

ويميل الشاعر الى الرواقيين .. ويكبر ويكبر حبه للطبيعة حتى يكاد يصير أسلوبا للعبادة .. وينفر من المعلمين الذين يقولون لك نحن نعلمك « في حين أن المرأة التي تثقفك ، بينما تبدو كأنها تدللك ، يصلى لها كأنها كائن سماوي » (ص ٢٩٠) ويكون وقار الجبال من معلميه ، ويكون الينبوع الذي كان اخته « لم تكن عيناها أجمل ما رأيت قاطبة ولكنهما كانتا أعمق العيون التي ينتظر المرء من ورائها أكثر مما ينتظر ، واذا ماعبرتا عن نزعة او هوى كان لهما بريق لا مثيل له » « كان هذا التعبير يصدر عن الروح ، وكان مترعا خصبا ، وكان يبدو انه لا يريد إلا ان يعطي ، وانه لا يحتاج الى أن يتلقى » (ص ٢٩٧) .

ويكلمنا على حاجة الناس الى ان يكونوا مستعذبين ، وعن حقهم بالاستمتاع بوجودهم ، وعلى الذين يحاولون « تغطية نظرات القمر السماوي الرقيقة بالأضواء الأرضية » (ص ٣٠٥) متذرعين بما يقتضيه « التدبير الاجتماعي الجديد » ويبدي اكبر الدهشة من ان تعجز امة

بأسرها عن « أن تتحرر من جديد من موضوع ورد ذات مرة ؛ وعولج معالجة ناجحة في صيغة معينة ، بل تريد أن تكرره بكل الطرق ، إذ يغطي الأصل نفسه ويختنق تحت أعمال التقليد المتراكمة » (ص ٣٠٨) ويتكلم على الاستقامة وكره الظلم حديثا حيا فنعجب ونشعر بنفور من الحقائق التي تسلي « أكثر مما تثقف » ونرغب في أن نتعلم ما نحتاج اليه فعلا .

ويتكلم على محدودية أشكال التهذيب الاجتماعي وسخافتها ، وعلى التقليد والمقلدين وروح الضحالة إذ صارت « رؤية السيء سيئا هي النكتة الكبرى ، بل كانت تعد انتصارا لنقاد ذلك الزمان » (ص ٣٣١) .

ويتكلم على جانبي السخرية والنقد في الأدب الالماني في زمنه « إذ يكدر الكاتب الساخر صفو المواطن ، ويكدر الناقد صفو الكاتب . وبذلك يتم احداث حركة مزعجة في المجتمع الوادع » (ص ٣٣٦) وتولد حقبته من سابقتها مناقضة لها . . وكان على الالمان أن « يتألنوا » سلوكا ، ولغة، وفنا . . وفتحت جهود « الألنة » « الباب على مصراعيه للابتذال الوطني الواسع » (ص ٣٣٨) ونشبت معركة ضد التفاهة والحذلقة ، وسمي السخيف سخيفا . . وشرع راببنر يمارس التربية عن طريق الضحك . .

وتطور النقد عبر الكثير من العثرات . . وكان على النقاد أن يبحثوا عن المهم . . لكن « ما هو المهم ؟ » فالعجيب والمدهش قد يكونان فارغين وغير نافعين . . وقد اعتبر المدهش والنافع الذي يحاكي الطبيعة في المرتبة الأولى والأعلى . . ومجدت خرافات إيسوب .

وكثرت « النظريات المنقسمة على نفسها » وبرزت الفردية بفضائلها وأخطائها . . ولم يكن ثمة نقص في المواهب لكن اليأس أصاب الكثيرين . . لمعت أسماء واختفت . ويرى المؤلف « أن الخطوة الأولى للخلاص من هذا العصر المضجر التافه لا يمكن القيام بها إلا عن طريق التحديد والدقة والايجاز ، فمع الأسلوب الجاري حتى الآن لم يكن في وسع المرء أن يميز المبتذل من الأفضل لأن كل شيء قد دفع به الى الضحالة مختلطا بعضه ببعض » (ص ٣٥٠) .

ووجد مغربلون . . لكنهم راحوا يغربلون على هواهم ، يبقون ما هو

ضروري .. ونشأت أشكال شعرية جديدة .. واخفقت بعض المحاولات .. وكانت المكتبة الالمانية « متخلفة تخلفا لا حد له في مسائل الذوق » (ص ٣٥٤) وانتشر الاتجاه الرعوي انتشارا واسعا . وكان القوم «يزنون انفسهم بالمقارنات المتجهة نحو الخارج ، بينما كانت كتلة الأعمال الشعرية تنمو نموا مطردا ليغدو من الممكن ايضا في النهاية انشاء مقارنة في الاتجاه الداخلي » (ص ٣٥٥) .

ونشعر هنا كأن كلام المؤلف موجه الينا نحن العرب في يومنا هذا .. ثم نراه يذكرنا بماضي ثقافتنا حين يقول : ومع صياغة اللغة الالمانية والأسلوب في كل مادة علمية نمت ايضا ملكة الحكم (ص ٣٦١) .. ونشعر بالخطر .. فنحن نبتعد عن جودة صياغة لغتنا .. فهل سنفقد ملكة الحكم نتيجة الضرر الذي نلحقه بلغتنا ؟

ويدخل « المضمون الحيوي الحقيقي الاصيل » الشعر الالماني عن طريق فريدريش الاكبر ووقائع حرب السنوات السبع . وذلك ان كل ادب قومي لا بد ان يكون فاترا عديم النكهة او يغدو كذلك ، ما لم يكن قائما على ما هو انساني في المقام الاول ، وعلى احداث الشعوب ورعاياتها ، حين يقف كلا هذين موقف الرجل الواحد » (ص ٣٦٤) .

ويؤكد جوته ضرورة ان يكون لكل امة ملحمة .. ويرى ان « المضمون الداخلي للموضوع المعالج انما هو مبتدأ الفن ومنتهاه » (ص ٣٦٥) .

وتطلع في سماء الادب الالماني نجوم ساطعة ، ويتطور الفن ويترسخ الفكر ، ويحتدم الصراع بين الجديد والقديم ، وتولد فوضى جديدة ، ويشتد الصراع بين الجوهر والمظهر ، بين الداخل والخارج ، وتتصدع القيود وتثبت الموهبة جدارتها ويركز جوته موهبته وجهده على ابداع ما ينفع ويبقى ..

ويقيم الشاعر الرصين علاقات مع فتيات « كن خيرا من سمعتهن ، وذلك ما لم يكن من الممكن أن يحسن سمعتنا » (ص ٣٩٧) .. ويجهد كي

يعرف معنى التجربة .. فيسال ويرد عليه صديق مجرب : لن تعرف معناها ما لم تجرب . فعش التجربة بنفسك .

ويدرك المستقيمون ان افضل افكارهم ومقاصدهم لا سبيل الى بلوغها لكنهم لا يتخلون عنها .. ويعانون ويتألمون .. ويبتعدون عن التجارب غير المستحبة .

ونمر بوجوه أساتذة وأصدقاء وصديقات ومعارف من فنانين وشعراء ، ونلم بإيجاز أو باسهاب بأساليبهم وبعض سمات طباعهم وتكتمل الصور بما يستخلصه المؤلف من تجربته : «وعودت نفسي ، على هذا النحو ، على أن أنظر الى الفنون مرتبطا بعضها ببعض ، بل ان الاخطاء التي ارتكبتها ، ذاتها ، حتى غدت قصائدي بها وصفية في بعض الاحيان ، كانت مفيدة عندي حين عدت الى مزيد من امعان النظر ، اذ كانت تنبهني الى الفرق بين الفنون » (ص ٤٠٧ ــ ٤٠٨) فاذا كانت ذرى الفنون متباعدة فان قاعداتها قد تكون متقاربة جدا ولا يستغني فن منها عن الآخر .

ويرسم الشاعر صورة لحذاء طريف أمضى عنده وقتا في مدينة درسدن واختار الكلام التالي : « وكان يظل هو ذاته دائما ، لان كل شيء كان يصدر عن ينبوع واحد ، وكانت ثروته عقلا انسانيا حصيفا يستند الى نفس مرحة ، ويرتضي النشاط التقليدي على المستوى الثابت . اما انه كان يعمل دون توقف فكان ذلك اولى خصاله واكثرها ضرورة ، واما انه كان يرى كل شيء آخر من قبيل المصادفة ، فلذلك ما كان يحفظ عليه راحته ، وكان لا بد لي أن أقدمه على كثير من الآخرين ، واضعا اياه في مرتبة اولئك الذين يطلق عليهم اسم الفلاسفة العمليين أو حكماء الحياة اللاواعين » (ص ٤١٧) .

وتزداد معرفة جوته ويزداد اضطرابه .. فكل موهبة تكون كالبذرة ، يزداد اضطرابها حين تتعرض لمزيد من المطر والدفء في حضن التربة الخصبة وتهم بالتحول من حال الى حال اغنى وارحب .. ويجهد نفسه في سبيل مزيد من المعرفة وفي سبيل مزيد من الابداع فتخذله اعضاؤه

ويمرض ، فتساعده الموهبة على الشفاء ، ليمرض ثانية وثالثة . ويتجه « نحو الاعزة القدماء الذين كانوا ما يزالون يخطون ، كالجبال البعيدة الزرق ، أفق رغائبي الفكرية ، وهم الواضحون في خطوطهم العريضة ، وفي مادتهم ، ولكنهم غير معروفين في الاجزاء والعلاقات الداخليـة » (ص ٤٣٤ ــ ٤٣٥) ويقرأ بعض الكتاب الاغريقيين فينتعش ويشفى . ويعرض لنا وجوها أخرى لرجال ونساء جدد وقد وصل الى قناعة مؤداها « أن ليس على المرء ان يتجنب الالعاب الاجتماعية ، بل عليه ان يطمح ، بالاحرى ، الى براعة فيها . فالوقت طويل لا نهاية له ، وأنما كل يوم وعاء يمكن أن يصب فيه ما هو كثير جدا اذا ما اراد المرء أن يملأه حقا » (ص ٤٥٢) .

وقد لا نستغرب مثل هذا الراي اذا تذكرنا انه لم يكن مضطرا الى الركض وراء الرغيف ، وان الارغفة لا تركض امام الاثرياء بالسرعة ذاتها التي تركض بها امام الفقراء .

ويقرأ تاريخ الهراطقة ويعجب ببعضهم ، ويعجبه القول الذي سمعه مرارا : « لكل انسان في النهاية دينه الخاص » (ص ٤٥٦) . وكانت له أيضا « ديانته الخاصة » « وكانت الافلاطونية الجديدة كافية في الاساس، ثم اسهمت الهرمسية والصوفية والقبالية في ذلك ايضا ، وهكذا شيدت لنفسي عالما كان يبدو غريبا بما فيه الكفاية » (ص ٤٥٦) .

ويجد الانسان البارع ، نفسه ، وهو يعيد صياغة الارتباط بالذات الالهية في الحالة « التي كان عليها الشيطان ، وهي كونه مطلقا ومحدودا في الوقت ذاته » وكان « لا بد من التكهن بان يصبح هذا المخلوق الاكثر كمالا والاكثر نقصا ، والاكثر سعادة والاكثر تعاسة » (ص ٤٥٩) . ثم لا يلبث ان يلعب « دور الشيطان بصورة كاملة » ويكون الخلق عودة الى الاصل ، ويتجدد الخلاص « المرة تلو المرة خلال كل زمان الصيرورة والوجود » وكثيرا ما تشاركنا الذات الالهية مصيرنا فتزيد ما هو سار « وتخفف ما هو مؤلم » (ص ٤٥٩) .. وينتهي الجزء الاول من الكتاب .

يبدأ **الجزء الثاني** بالقول : « ثم إن القلب يتأثر بعد ذلك ، في كثير من الاحيان ، تأثراً هو في صالح فضائل شتى ، ولا سيما الاجتماعية والرقيقة ، وتستثار فيه أرق الاحاسيس ويتم تطويرها . وسينطبع فيه بصورة خاصة كثير من المعالم التي تتيح للقارىء الناشيء نظرة فاحصة في الركن الخفي من القلب البشري وعواطفه ، وتلك معرفة أكبر قيمة من كل ما هو لاتيني واغريقي ، وقد كان أوفيد أستاذاً في ذلك ممتازاً للغاية » (ص ٥) . ثم يتابع ايراد كامل الفقرة التي « عثر عليها في المكتبة « الالمانية العامة » ولم تكن الوحيدة من نوعها » (ص ٦) .

ونمضي معه في حله وترحاله بين الوديان والجبال . نعيش مثله مع اناس « يملكون العلم أو يلتمسونه » (ص ٣) ونستمد الزاد منه ومنهم ، نقرأ سيرة المسيح الذي « كان يجوب الارض من اجل المرضى والمشلولين » ونرى الملكة « المسيحية » « تجفل من هؤلاء التعساء ولم يأخذ عليها أصدقائي شيئاً » (ص ١٩) ويقتل أناس في الاحتفال الملكي ويدفنون سراً كي لا يتعكر مزاج الاسياد .. وندفن انفعالنا في اعماقنا ونمضي معه .. لنجلو الحياة الواقعية « بطلاء براق » .

وتتعدد الوجوه والصور ، نضطرب ونهدأ ، نرى وجوها تشع مرحا ، وأخرى تقتم اكتئابا ، نرى قلاعا وكنائس ، يتحد السامي والرائع احياناً، ويلوح التنافر احيانا بينهما ، ويكون الجليل مفتقراً الى الزينة في احيان كثيرة . وتكون المتعة الحقيقية « بتوافق كل التفاصيل المنظورة » (ص ٤٥) وحين يوجد كل من الكبير والصغير في مكانه الصحيح « يتمثل الممتع في المهول » (ص ٤٦) وتكون « رغائبنا ضروبا من الشعور المسبق بالقدرات ، وطلائع لما سنكون على استعداد لادائه » (ص ٤٨) وتنضم الى « المحدودية البشرية عقبات عارضة كثيرة جداً » « ويسقط من اليد هناك ما سبق أن امسكت به ، وتتمزق الرغائب واحدة بعد الاخرى » اما اذا كانت الرغائب صادرة عن القلب ومتماشية مع روح العصر فسيخرج الى الضوء بعض الاشياء المتصلة بها ، مما لم يمسسه المرء قط ، ولم يفكر به أبداً » (ص ٤٩) .

وينجز الآخرون ما لم نستطع انجازه ، نشعر أن البشرية كلها هي « الانسان الحق ، وأن الفرد لا يستطيع أن يكون مسرورا أو سعيدا إلا حين تكون لديه الشجاعة لكي يحس بنفسه في المجموع » (ص ٥٠) .

ونخرج من وصف الآثار المعمارية ومن أجواء الحكم الى مشاهد حب لنعود الى أجواء الادب والادباء الذين فقدوا مزاياهم « في عالم الطبقة الوسطى ، إذ لم يكن لهم سند ولا مكانة ولا سمعة ، إلا بمقدار ما تواتيهم علاقة ما » « وكان لا بد للفقير من ابناء هذه الدنيا أن يجرر أثواب البؤس في الحياة وهو واع لفكره وطاقاته ، وان يبدد الموهبة التي أوتيها من لدن ربات الشعر ، إذ تزيحها جانبا حاجات اللحظة الحاضرة » (ص ٦٣) .

ولعب الكثيرون دور المهرج والطفيلي ، وعبث بهم العابثون كما يحلو لهم ، وحظي بالتكريم من تميزوا بالوهبة ويكونهم رجال أعمال نشيطين. وكان على الموهبة أن تثبت جدارتها وأن يجد الموهوبون مكانهم . وكانت الكتب تهمل على الرف إذ أن « أكثر البشر امتيازا لا يعيش إلا معتمدا على يومه ، ولا يستطيع إلا بقوت ضئيل » ص (٦٨) .

واغتنت تجربة الشاعر مع كل يوم ، وزاد عطاؤه مع ازدياد أخذه ، سما ببعض المسائل ووسعها ، واستكمل بعض ما كان قد فكر فيه .. ونقرأ . ويتألف النثر كالشعر ويتوهج فنخشع ونعيد القراءة ثم نتقدم ونحن نتمنى أن نحفظ كل شيء فلا تفارقنا النشوة الجمالية مدى الحياة « وقدمت إنا ذراعي الى الصغرى ، وانطلقنا على هذا النحو عبر الحقول الفسيحة ، وكان موضوعنا السماء التي فوقنا أكثر مما كان الارض التي كانت تتناهى حوالينا على المدى » (ص ١١٤) ... « ولما كنت لا أسمع إلا صوتها ، على حين تلوح على الغسق ملامح وجهها وكذلك سائر العالم، فقد كنت أشعر كأني انظر الى قلبها الذي لم يكن لي بد أن أراه في ذروة النقاء ، إذ كان ينكشف لي في هذه الثرثرة الطليقة الى هـذا الحد » (ص ١١٥) .

كان جوته يدرس الحقوق والطب ويهتم بالكيمياء ، وقد أثقل نفسه بالخطط والاعمال . وكان يكرس للمجتمع بعض الوقت والانتباه ومن

ثم فرض عليه هردر ما اثقله اكثر « وكان قد هتك الستار الذي يخفي عني فقر الادب الالماني » (ص ١٣٣) « فلم يبق في سماء الوطن إلا القليل من النجوم البارزة » (ص ١٣٤) .

وجرفه هردر معه « على الطريق الواسع الرائع الذي كان هو ذاته يجنح الى السير فيه » (ص ١٣٤) ويعترض الحب طريق الشاعر .. يقصر الحب الوقت ، ويحدث التغير : « اضفت الفتاة ذات العاطفة الجياشة العنة والقداسة على شفتي » (ص ١٣٨)« وكان حسن سلوكها يبدو كأنه يضاهي الارض الموشاة بالزهر ، وكان المرح الذي لا يكدره مكدر في محياها يبدو كانه يضاهي السماء الزرقاء » (ص ١٤٠) .

ويمتزج الشعر بالخرافة، يتذكر الشاعر لعنة فتاة فرنسية فيرتعش ونعجب .. فكيف يبرر مثل هذا العبقري فتور حبه لمن الهمته مثل هذا التبرير ... ثم نراه يطوي ضلوعه « وسط اسعد الايام على طيور النحس البالغة الكآبة » (ص ١٤٨) ويدعونا الى أن نلعب في العالم « دورا مزدوجا ، دورا واقعيا ، ودورا مثاليا ، ويجب أن نتلمس في هذا الاحساس اساس كل شيء نبيل » (ص ١٤٩ ، ١٥٠) .

ويناقش بعض ما جاء في التوراة ، فلا يعجبه ان يستخدم الله سيف اللهيب ليطرد آدم وحواء « العروسين » من الجنة .. فلا حاجة للسيف هنا . ويتحدث عن القوانين الالمانية في تلك الازمنة حديث الخبير . ويروي بعض ما رأى من سوء الامور أحيانا بين رجال الدين والدولة ويعلن : « إن كل الاديان العلنية العامة إنما تم ادخالها عن طريق قادة الجيوش والملوك والرجال الاقوياء » (ص ١٦٣) .

ويتكلم في الفلسفة « حياتنا مركبة بطريقة لا سبيل الى ادراكها من الحرية والضرورة » « وعلى حين تكمن الماهية فينا فان الكيف قلما يرتبط بنا ، ولا يجوز إن نتساءل عن العلة ، ومن اجل ذلك يدلنا الناس على السببية » (ص ١٧٠) .

ويعجب من الذين يتنكرون للغتهم الام : « ولكن ما عسى ان يجديه التنكر للغة الام ، والسعي الى لغة غريبة » (ص ١٧٣) .

وحين يحتل غاصب الارض ويريد اغتصاب اللغة ينهض الكيان كله للمقاومة « وحين يفقد المغلوب نصف وجوده مضطرا يرى من العار أن يتخلى عن النصف الآخر بمحض ارادته » (ص ١٧٤) .

ونرى لوحة شاملة عن تخبط ذلك الجيل من المثقفين الالمان ، حيث تتألف القوانين « من ضروب الشطط والتجاوز » ونرى جوته يرد على الفرنسيين الذين اتهموا الالمان بالافتقار الى الذوق ويعلن ان الادب الفرنسي ادب متقادم ، ارستقراطي .. « وحتى فولتير هذا ، وهو اعجوبة زمانه ، غدا الآن متقادما كالادب الذي ظل قرونا من الزمان يبث فيه الحياة ويهيمن عليه » (ص ١٧٧) ثم يعرض عيوب الادباء الفرنسيين وحسناتهم عرضا فيه الكثير من المنطق .

وينشأ موقف متعصب لدى الشبان من الادباء الالمان « كنا ننفض ايدينا ، ونحن على حدود فرنسا ، من كل ما يمت الى الفرنسية بصلة مرة واحدة » (ص ١٨٨) .

وجوته يقدر الايقاع والقافية « لا يكون الشعر شعرا إلا بهما » وما ينطوي على النفع هو ما يتبقى « من الاديب حين يترجم نثرا » وهو يفضل الترجمة النثرية للشعر .. وتظل الترجمة البسيطة افضل للجمهور . ثم يتحدث عن شكسبير ويجله . ويعرض آراء كثيرة هامة .. ثم يعود الى الكلام على ابيه وامه ودورهما في حياته ، وعلى اصدقائه ومعارفه .. وعلى التناقضات في « الكتاب المقدس » وكيف حاول الآخرون حلها ، ويشرح موقفه من كل ذلك شرحا فيه الكثير من العمق وبعد النظر .. وهو يفرق بين « الطبيعة الفجة في العهد القديم والبساطة الرقيقة في العهد الجديد » (ص ٢١٣) كما يفرق بين اسفار موسى والاسفار التي تلتها .

ونغوص معه الى الاعماق ثم نصعد فترتسم امامنا صوره اجتماعيه ادبية وتاريخية متناسقة الالوان مؤازرة بكل انغام الحياة البشرية . وتتوالى الوجوه التي تمر بنا ويتوالى ايضاح المواقف او الرد عليها .. وينزل « الثراء الغني منزلة فوق منزلة الشاعر الفقير من جديد » وقد

تفاقم الشح والتقتير والدناءة عند القائمين باعادة الطبع (ص ٢٢٢) « وكانت كل القوى الموجهة نحو الخارج مشلولة ، كما كان النظام الموجه نحو الداخل معطلا » (ص ٢٣٢) وكثيرا ما استعملت وسائل قاصرة « من أجل هدف كبير » في مجال القضاء .. وتقتم اللوحة : فلم تكن للجمهور « سلطة تنفيذية ، ولم يحدث أن نفــع الراي العام في المانيا الممزقة احدا أو الحق الضرر بأحد » (ص ٢٤٧) .

ويحكي لنا حكاية تأثره بالحكايات والاساطير من يونانية ، وجنوبية وهندية وغيرها ولا ينكر أن معرفته هنا معرفة مدرسية ترتكز على الكتب وحدها « وكانت معرفتي التاريخية غير مترابطة . ولم يجتذبني تاريخ العالم ولا تاريخ العلوم ، ولا تاريخ الادب الا في عصور معينة » (ص ٢٦٧) وكان يفضل قرأءة الكتب على سماع المحاضرات .

ويشير إلى اولئك الذين « يحاولون عن طريق التعرف على الناس أن يجعلوا من انفسهم شيئا ما » (٢٨٤) ثم ينتقد ذاته اذ حاول « البدء بالاصعب » واراد « تحقيق المستحيل » وهو يافع .. ويكون موضوعيا هنا ومنصفاً ، ويكون أيضا موضوعيا ومنصفاً حين يقارن بين آداب شتى أو حين يقارن بين المسرح في كل من فرنسا وايطاليا والمانيا ... ويحدثنا عن محاولاته الاولى في ميدان الكتابة للمسرح .ويعرفه الناس ويقع هو في الحرج « حيال كيفية تسديد قيمة الورق الذي عرفت العالم بموهبتي عليــه » (ص ٢٩٩) .

ويتعرض للنقد .. وكان من النقاد المغرض سيء النية ، وكان منهم محدود الموهبة وحسن النية .. وكان الزمن خير الناقدين فكم غربل وكم نخل وكم أعلى وكم انزل !

وتتداخل الحسنات والاخطاء ، ويكون علينا أن نراجع ما نفعل ، وأن نكون احزم الناقدين لعيوبنا ، وكثيرا ما نجد انفسنا امام اخطاء لنا لم يكن قد اكتشفها احد .

ويتكلم على الشعر ، وعلى سمات الشعر الانكليزي والالماني ويرى أن الشعر الحق « يتجلى من خلال مقدرته ، بحكم كونه انجيلا دنيويا ، على تحريرنا عن طريق البهجة الداخلية ، وعن طريق السرور الخارجي ، من الاعباء الارضية التي تثقل علينا » (ص ٢٠٨) ويطرح من خلال ذلك مسألة التقليد والابداع ، ومسألة التفاؤل والتشاؤم ، ومسألة العقلانية في الشعر ، ومسألة الموت الذي هو نهاية كل حياة وكل نضال .

وتزدحم الاراء والصور على صفحات الكتاب فندهش لغنى ثمار هذا البستان بالفائدة ، ولتعدد أزهاره على الرغم من اننا نرى دودة الموت تنخر كل شيء في العالم .

وتطرح أسئلة ، وتولد تناقضات .. ويتابع جوته السير بهدوء واتزان ، يرى عبثية المقدمات وازدياد التشويش مع الامعان في التفكير ، يألف الظلام المشجع على الانتاج ، لكنه يدخل صخب النهار ويتعرض للتضليل عن طريق الاهتمام والبرود ، وعن طريق الثناء والذم ، يرى الماضي حيا في المستقبل ، يرى النجاح الجديد علة لسقوط جديد .. ويستمر .. اذ لا يجوز ان نتخلى عن أجمل اهوائنا .

وتزداد المادة كثافة وغنى ، نحن نمعن في القراءة ، تعلو اصوات المفكرين والمؤمنين « تتحور العقيدة الواحدة تبعا لعقليات الشخصيات المتباينة » (ص ٣٥٣) ونرى وجوها شتى لأمور متعارضة ، ونمر بالاماكن من جديد فلا نجد جديدا سوى انفسنا .. نرى السماوي يغور في جسد الرغائب الارضية ويجرفه الزوال ، لتنبثق رغائب تصعد من التراب نحو السماء .

وتظل مسألة الدين والبحث عن خلاص من المسائل التي تشغل الفكر البشري ، وتكون لكل ديانة جاذبيتها وهي « في طور النشوء » حين يستغرق التبشير بها « كل الطاقة الفاعلة الكامنة في الانسان » ويختلف

الناس حول مسألة الخلاص .. ويصير الرسل والانبياء زعماء فرق وطوائف وتستفحل البلبلة . ويولد حالمون عمليون « تنطلق موهبتهم من الحياة العملية، وتعود ادراجها لتصب في الحياة العملية بصورة مباشرة وفورية من جديد » (ص ٣٩٦) ويضيع اناس في المتاهة التي حبستنا فيها ، وينظر اليها اناس من عل فيعرفوا دروبها وتقوم متاهات جديدة ويكرس بعض الناس مواهبهم بطرق عجيبة . ويخرج اناس الى الملأ قبل ان يستعدوا لذلك فيستاء الناس منهم . وتنعقد عروة الخطأ من جديد ويدب الترهل والفساد في الطبقات العليا ثم ينتشران .

وتجد الكثيرين من الذين يشوهونك اولا ثم يحاربونك على انك مشوه ويكون عليك ان تلتقط درك من بين اقدامهم القذرة كي تغسلها من جديد ، وتظل تعيد صياغة حياتك .

ويطرح مسألة الفهم المتباين للكلمات ، ومسألة بعض ما يشابه الفهم لدى الحيوانات والحس لدى بعض النبات ، ومسألة ما اذا كانت الموهبة طبيعة ، وكيف تعامل هذه الموهبة معاملة « الخارج على القانون » في كثير من الاحيان ، وكيف يجعل بعض الموهوبين « الدناءة تقتني من مواهبهم » ..

وتمر الايام ، يقتم بعضها ويتألف بعضها الآخر ، يولد عشاق ويهرمون ، تولد قصائد وموسيقى وحكايات ، وتحدث فظائع وشرور ، يمضي الحاضر ونحن ندرس الماضي أو نتطلع الى المستقبل .

ويتكلم جوته على السياسة .. وهو يرى أن التحزب اهتمام خيالي بسعادة الاخرين قائم على اسس اخلاقية .. وهو يهتم بسعادة الاخرين لكنه يتخلى عن التحزب .. ويحلل مواقف الطبقات الاجتماعية تحليل المحايد ، فيدين الكثير من انماط السلوك الاجتماعي .. ثم يعود الى الكلام في الادب والثقافة والعاملين في ميدانيهما تاليفا وترجمة ، ويدلي

باراء مفيدة .. ويستمر الصراع بين ما يشيخ وما يشب ، ويكون جوته من بين الذين يسبقون « على الواقعي صورة شعرية » ولم يكن من الذين يسعون الى تحقيق ما يسمى « بالشعري والخيالي » وهذا لا يفضي الى شيء سوى السخف » (ص ٥٠٠) .

ويعبر بشيء من المرارة عن حال الناس فيقول : « ما من احد يسلم لآخر بمزية وهو مسرور ، مادام في وسعه أن يجحدها الى حد ما فحسب (ص ٥٤٥) ثم يقول « فنحن نشق طريقنا وسط الاعداء الذين يحدقون بنا على كل حال » (ص ٥٦٦) .

ويختتم الكتاب بنغم حزين على شيء من الحزن « ولا يتبقى لنا شيء أخر سوى أن نتشبث بالاعنة رابطي الجاش ، ونجنب العجلات الحجارة هنا ، والسقوط هناك ، يمينا تارة ، ويسارا تارة اخرى . أما الى اين المسير فمن يعرف ذلك ، وهو الذي لا يكاد يذكر من اين اتى » (ص ٥٨٠) .

ونضع الكتاب جانبا ونمعن في تملي وجه الشاعر وفي ملامح وجه المانيا في ذلك الزمن ، نظل نسمع اصداء جلية لما كان يدور من جدل ثقافي شامل ، وبتصاعد الجدل ، نربط ذلك الماضي بحاضرنا .. ونشعر برغبة في العودة الى الكتاب لننهل الى أن نرتوي .. لكن هيهات !

* * *